التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب

السفر الأول

تأليف

الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين
الخزرجي المكناسي ثم المراكشي

تقديم وتصحيح

محمد المنوني



التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب

السفر الأول

تأليف

الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين الخزرجي المكناسي ثم المراكشي

تقديم وتصحيح

محمد المنوني



زنقة الرخاء الحي الصناعي ـ الرباط
تلكس 32843 م ـ ص.ب : 1213
79 57 02 / 79 69 14 فاكس
المملكة المغربية



الطبعة الأولى

1415 هـ - 1994 م

رقم الإيداع القانوني 1994/931

ردمك 4-16 -808 -9981

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تقديم

محمد المنوني
كلية الآداب — الرباط

القصد في هذا العمل إلى النصف الأول من كتاب «التنبيه المعرب، عما عليه — الآن — حال المغرب»، تأليف الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين، الخزرجي المكناسي أصلا، المراكشي دارا ومنشئا وولادة، حسب تقديم المؤلف لاسمه ص 30 [1] وواضح من هذا أنه ابن مباشر للطيب بن اليماني بوعشرين وزير السلطان العلوي محمد الرابع، إلى أن توفي عام 1286/«1869».

والملاحظة الأولى أن المؤلف — على قرب عصره — لم تدون له ترجمة بالمصادر المهتمة، فلا ذكر له في «السعادة الأبدية» لابن الموقت، ولا في «الاعلام» لابن إبراهيم، أو «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان، كما أنه غير وارد عند إبن داني في «الدرة السنية»،[2] ولا عند غريط في «فواصل الجمان»، ثم لم يرد إسم الكتاب عند ابن سودة في «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، هذا إلى أن التحريات في مراكش — بلد المؤلف — لم تسفر عن أية معلومات عنه.

وبهذا فإننا أمام فراغ حول ترجمته، حتى إذا رجعنا إلى السفر الأول من كتاب المؤلف لا نستخرج إلا معلومات ضئيلة عن حياته، فيشير عند ص 197 من المخطوط إلى وفاة زوجه والدة كبار أولاده، بتاريخ أواخر عام 1295 / «1878»، مما يحدد سنه — إذ ذاك — على وجه من التقريب، وبالتالي يوقت ولادته — تقديرا — بنحو عشرة الخمسين ومائتين وألف هجرية.

وعن تعلمه الأولي يُبرز — في الصفحة نفسها — إسم مؤدبه السيد علي رزكّو، ثم يذكر أستاذه في العلوم محمداً السباعي الدرباكّي، قائلا ص 227

(1) الاشارة هنا وفي الأحالات التالية إلى صفحات النص المخطوط.

(2) من مخطوطات خ. س 481.

ـــ 228 وبسببه أنقذني الله من ظلمات الجهل وموارد الرّدى...»، ومن هذا الأخير ـــ فيما يظهر ـــ، سرى إلى المؤلف التفنن في التعبير الذي صاغ به عروض الكتاب.

وفي التصوف اعتمد الشيخ ماء العينين.

وعند حديث المترجم عن نباهته، يشير إلى أنه كان منتظما في سلك الكتاب في حاشية السلطان الحسن الأول ثم إبنه العزيز، وفي عهد هذا الأخير صار بين الكتاب المرموقين، فيثبت النص الكامل لرسالتين كتبهما عن س العزيز، للإعلام بانتصاره على قبيلة «الرحامنة» ص 47 ــ 50، ثم على قبيلة «الأعشاش» بالشاوية ص 55 ــ 59.

وبهذا قدم المؤلف نموذجين من نثره الديواني، وإلى ذلك أثبت من شعره ثلاث قصائد مديحية ص 61 ــ 62 و 150 ــ 151 و 233 ــ 234، وإذا كان أسلوبه في القصائد نازلا عن طريقته في كتابته النثرية، فهو ــ على كل حال ــ يدلّل على معاناته للشعر إلى جانب النثر، وإضافة لهذه النماذج يشير المؤلف في تصميم الكتاب، إلى أنه أثبت في الباب الثامن بعضا من نثره وشعره، غير أن هذا الباب لا يزال ضمن السفر الثاني الذي سنتبين أنه ــ الآن ــ غير معروف، وفي الخزانة العامة كراسة غير تامة التأليف، في حجم صغير. بشتمل على 31 ص، وتحمل رقم 1261 ج، جمعها أحد أبناء المترجم، وأثبت بها بعض النماذج من نثر والده وشعره.

وأخيرا يأتي توقيت الفراغ من تأليف السفر الأول، بأوائل المحرم 1324/«1906»، وعند هذا التاريخ تقف معلوماتنا عن المؤلف.

وأستدرك هنا فأشير إلى أني وقفت ــ وشيكا ــ على إشارة مقتضبة عن المؤلف، كتبها مؤرخ مراكش ونادرتها، القاضي عباس بن إبراهيم، فيعدد بعض أبناء الوزير الطيب بوعشرين، ويذكر بينهم المترجم هكذا «ومنهم السيد حسن الكاتب، كان رجلا له مروءة وسمت حسن وخط مقبول (كلمة غير واضحة) وملكة في الترسيل، وله علاقة بالتاريخ، ومعرفة بالشطرنج، ألف تاريخا في الدولة يوجد عند ولده السيد عبد العزيز، استعمل في الكتابة سفيرا مع بناصر غنام إلى

الجزائر، وولي على طنجة قبل نصر مولاي عبد الحفيظ بها، ودفن بباب أغمات».

ںںں

هذه فقرة مؤرخ مراكش بخطه المدمج السريع، ومنها يصل بنا المطاف إلى تحليل الكتاب، وقد تبيّنا أنه يحمل إسم «التنبيه المعرب عما عليه ــ الآن ــ حال المغرب»، غير أن المؤلف لم يتقيد في تصميمه بعنوان عمله، ووسع مضامينه فجاء برنامجه كالآتي

الباب الأول دولة السلطان الحسن الأول.

الباب الثاني دولة إبنه السلطان العزيز.

الباب الثالث في أحوال الوقت وأخبار الثائر بو حمارة.

الباب الرابع به أخبار منوعة، بيها إرتسامات المؤلف عن رحلته للجزائر، ثم إنطباعاته عن مدن فاس ومراكش ومكناس.

الباب الخامس ملوك الدولة العلوية إلى عصر المؤلف.

الباب السادس الدول العظام بالمغرب من الادارسة إلى العلويين.

الباب السابع في ذكر الغزوات التي تقدمت للملوك بالمغرب، وما يجر إليه الحديث ــ مما يناسب المقام ــ من كل عجيبة وكل مغرب.

الباب الثامن في نسب المؤلف، وذكر وزارة والده الطيب بوعشرين، وبعض نثر المؤلف وشعره.

الخاتمة : في ذكر السيرة النبوية، والصحابة العشرة والأئمة الأربعة.

الموجود من الكتاب هو النصف الأول، في سفر ينتهي عند آخر الباب الرابع، دون أن يعرف هل كتب المؤلف السفر الثاني وأتم الكتاب ؟.

255 ص عدا الفهرس التصديري، مسطرة 18، مقياس 180/230م.م، خطه مغربي بين المبسوط والمجوهر، حسن واضح مجدول ملون، مشكول في الغالب، مع تهميشه بتعاليق تفسيرية للتعابير الغامضة من عمل المؤلف، على أنها تقل عند الباب الرابع.

○○○

أما تدوين «التنبيه المعرب» فجاء معظمه في شكل مذكرات لانطباعات المؤلف عن وقائع الفترة التي عايشها أيام العاهلين الحسن الأول والعزيز، وهو واقع يبرزه في عدة مناسبات، ومنها قولته عند بدايات الكتاب «... وما ذكرت فيه إلا ما أسندته لعلمي ودرايتي، وفهمي الركيك وعبارتي» ص 17.

ويعاود نفس الملاحظة اخر الكتاب «... وإنما ذكرت ما ذكرت من حفظي وفهمي، وبحسب ما وصل إليه علمي» ص 253.

وفي مناسبة أخرى «... وما ذكرت إلا ما عاينته ورأيته وشاهدته، ولم نستند فيه لغيري» ص 165.

وهو يشكو من انعدام المصادر التي يرجع إليها، بعد ما خلفها في بلدته مراكش عند انتقاله لفاس، فيردد ذلك في الفقرات التالية «... حيث لم يكن لديّ كتاب نستمد منه ونعتمد عليه من كتب التاريخ» ص 17.

«...ولنا مرثية وتعزية في هذا السلطان الجليل (الحسن الأول)، تركتها بمراكش من جملة كتبي» ص 33 — 34.

«... وذلك لعدم كتاب ننقل منه عليّ عسير» ص 165.

«...وليس عندي — الآن — شيء منها لغربتي، وانتقالي عن أهلي وبلدتي»: ص198.

«... ولم يحضر لدي — الان — الكتاب المذكور» ص 223.

«... حيث لم نجد ما نستعين به على ذلك، لفراقي كتبي وتقاييدي»: ص253.

أما الجهة التي ألف بها كتابه فيحددها قائلا «... بعد أن كنت بفاس موله البال، ومستغرق الأحوال» ص 230.

لهذا الواقع يعتبر المؤلف الكتاب إنما هو مختصر ص 106، وهي إشارة يكررها اخر الكتاب «... مع الاختصار الذي كاد أن يكون لغزا، ومعانيه الدقيقة رمزا» 255.

◡◡◡

وتبدو ظاهرة الاختصار — أكثر — في عروض الكتاب أيام السلطان الحسن الأول، غير أن المؤلف غطى — على العموم — تاريخ عهد السلطان العزيز حتى نهاية، 1323/«1906»، فيرصد وقائعها إنطلاقا من نكبة الوزيرين الجامعيين، إلى رحلة العزيز من فاس لمراكش، وبتوسع في الحديث عن انتفاضة الرحامنة جيران مراكش، ثم عن قومة الأعشاش بالشاوية، مع الاشارة لانتفاضات قبائل الريف وذوي منيع ومسفيوة، ثم إجراءات عزل الوزير الصدر المختار بن عبد الله، وما تبع ذلك من عزل وتنكيب لمجموعة من الولاة، دون أن يغفل إحصاء أبناء الحسن الاول، أما ثورة بوحمارة فيفصل ما جرياتها في نفس مستوعب.

وخلال عروض هذه الأحداث، ترد تفاصيل تخلو منها المصادر المعروفة عن هذه الفترة، وتلك إحدى مزايا الكتاب.

هذا إضافة إلى معلومات أخرى لم تعرف تفاصيلها إلا من جهة المؤلف، ومنها تتبع سيرة المنبهي بعد وفاة أحماد إلى عزله.

ومن ذلك لائحة مطولة تكاد تستوعب أسماء الكتاب في بلاط الحسن الأول، فتزيد — كثيرا — على ما عند ابن .اني وغريط.

ثم حديثه عن منطقتي الحوز والغرب، وتحديد قبائل ومدن كل من الجهتين، وطبيعة علاقتهما بالحكم المركزي.

ومن الافادات التي انفرد بها الكتاب عن المصادر العربية المعروفة الاعلان عن سفارة مغربية إلى الجزائر مفتتح عام 1321/«1903»، وكانت برئاسة الأمين بناصر غنام وعضوية المؤلف، وهو الذي دون وقائعها في مؤلَّف أثبت نصه — كاملا — أول الباب الرابع ص 121 — 139.

وبعد هذا أتى على أسماء الموظفين السامين بحاشية السلطان العزيز وزراء وسواهم.

مع الاشارة إلى محاولة أجنبية لاحتلال مدينة فضالة (المحمدية)، خلال عام 1323/«1905» ص 235.

ثم إحصاء زيارات الشيخ ماء العينين للمغرب أيام السلطان العزيز إلى عام 1324/«1906».

فهي نماذج للأخبار التي انفرد «التنبيه المعْرب» بالكشف عنها أو بتفاصيلها، ومنها نتبين ناحية أخرى من مزايا الكتاب.

وناحية ثالثة تبرز أبعاد الخطة التوثيقية للمؤلف،فيتحرى تدوينه للأخبار،ولا يثبت منها إلا ما تأكد استحضاره له، ويعرض عما يبدو له إشتباه في ذكره أو غاب عنه مصدره، وهو يكرر الاشارة لذلك أكثر من مرة، فيقول ص 17 «وقد أعرضت في هذا المسطور، عن التعرض لتاريخ كثير من الأمور، حيث لم يكن لدي كتاب...».

وعند ص 247 — 248 «... وطال عهدي بذلك، ولذلك لم نشرحها خوفا من ذكرها على غير وجهها، حيث نسيت صورتها».

وإذا شك في تحديد مصدر يذكره بمثل هذا التعبير ولعلني رأيتها في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ص 85.

وفي حال نسيانه لاسم مكان «... في محل ضل عني إسمه» ص 89.

ومن جهة أخرى قد يضطر المؤلف لإهمال بعض التفاصيل «... وقد تعلق بهذه القضية أمور وغرائب ونكث أضربت عنها، لأني لست بصددها» ص 110.

«...لأمور طويل شرحها، ومستبشع إبرازها ونشرها» ص 110.

«... وفي خلال هذه الأخبار أمور لم يسمح الوقت بإفشائها وإبرازها» : ص 144.

○○○

وفي الكتاب وقفات نقدية وإن كانت قليلة، فيقارن المؤلف أيام س الحسن الأول مع آخر دولة العزيز، ويعلق قائلا «وفتح على هذه الدولة العظيمة بسعود غا؛ ورجال أحلامهم فاشية،وقلوبهم على الاسلام والمسلمين صافية»:ص 33.

ثم يصوب سهام النقد الصارخ إلى سيرة المنبهي، وضدا على سياسة الحكومة في مقاومة ثورة بوحمارة.

ويعقب على ذكره لحاشية العزيز عام 1323 /«1905» «وكل هؤلاء الناس لا زالوا موجودين في الوقت... وعلى يدهم تدور أمور السياسة، وغالبها مختل لجريانه على غير مهيعة من أجل العصبية التي لبعضهم والطمع» ص 145.

وفي اتجاه اخر ينتقد انتهاك حرمة جامع القرويين ليلة 27 رمضان، ويشنع على ما يقع فيه من الضجيج والازدحام، فيفضي ذلك إلى خصومات ومناوشات بالجرح والقتل والترافع للحاكم، ويضيف «ولا يبعد أن يجد الكفار السبيل للدخول إليه ويدخلون، وكذلك النساء، وقد قيل ذلك» ص 163 — 165.

○○○

وعلى عكس هذه المواقف تنعدم الحاسة النقدية للمؤلف عند عروضه أيام السلطان الحسن الأول وفي عهد وزارة أحماد، فيمنح تأييدا مطلقا للسياسة المتبعة، وتصل به موالاة الحكم الأحمدي إلى تبرعه بالتشفي ضدا على الذين تنزل بهم عقوبات الدولة، في عبارات نابية.

ومن المواخذات على المؤلف إهماله للربط بين الأحداث، مثل سلوكه عند الاشارة للقبض على البشير بن مسعود اليزناسني، ثم عند حديثه عن ثورة الرحامنة، وقد كان هؤلاء ينادون بالشرعية، ويطالبون بإرجاع الأمر لمولاي محمد ولي عهد السلطان الحسن الأول.

ومن المجازفات أنه يسجل أعمالا دون أن تأخذه الرأفة للتعليق عليها. كقوله عن وقعة الأعشاش «وقبض على الشيوخ والكهول والأطفال، وطوقهم السلاسل والأغلال» : ص 60

○○○

والمؤلف يؤدي عروضه في صياغة يطغى عليها السجع الحريري، ويتخير التعابير التي تشف عن تمكن لغوي قوي، ونادرا ما يلتجىء للتعبير الدارج، كقوله ص 82 — 83 وجاء أهل الطبل والغيطة لباب دار السلطان... بعد أن أكلوا العصا»، وفي ص 213 «...وانخرطوا من عِصِبي وزراويط...»،وفي ص 215 «بدقّة الباب».

وبلغ به هيامه بالسجع إلى أن وقع في لحنة فاضحة «... وكانت أيامه لهم أعيادا ومواسم، وروضا نضيرا باسم» ص 31.

○○○

أما عملي في إخراج المخطوط فقد قمت بمعارضته وتصحيحه على النسخة الوحيدة المتوفرة الان، وراعيت المحافظة على النص، إلى جانب إثبات الترقيم الأصلي للمخطوط، وهو الموضوع بمكانه بين قوسين مربعين، فضلا عن هوامش التعاليق الشارحة التي دونها المؤلف، وهو ينقلها عن «القاموس» للفيروزابادي، وقليلا عن «المصباح» للفيومي، ومرة عن «مختار الصحاح» للرازي، حسب اشارات المؤلف التي يذيل بها هوامش الكتاب، مسميا لكل من المصباح ومختار الصحاح باسميهما، ويرمز للقاموس بحرف (ق)، وهو عمل سايرته في نقلي لهذه التعاليق، وبما أن «التنبيه المعرب» بمثابة مذكرات للمؤلف، لم يكن هناك داع لاضافة تعليقات جديدة.

ختاما لا أنسى تقديم عبارات الشكر للمعونة التي ساعدني بها في مقابلة الكتاب، الكتبي الأريحي الكريم، السيد مصطفى ناجي صاحب مكتبة دار التراث بالرباط، ونفس الشكر للكتبي الأريحي النشيط، السيد مبتسم محمد مدير مكتبة المعارف بالرباط، وهو صاحب المبادرة لنشر «التنبيه المعرب» والله — سبحانه — ولي التوفيق.

الرباط 28 /06 /1413

23 /12 /1992


بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وءاله

الصفحة الأولى من كتاب التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب» (خزانة خاصة)

وعلى آله وصحبه غيوث الندا، ونجوم الهدى، وقتلة
الكفار والأعداء، ما بين الكبير والصغير، آمنوا بالله ثم
استقاموا، وفرّوا من أجله وقاموا، وخاضوا لجج الحروب
في مرضاته وعاموا، حالتي التعسير والتيسير، رضي الله عنهم ونفعنا
بهم، ونبتهج وكثّر منهم، فنعم المولى ونعم النصير،
أما بعد، فهذا تقييد لطيف، وتسطير نفيس
ظريف، في بيان أحوال الوقت وتنقلاته، وتقلباته وتطوراته
وقد قال الشاعر: من كل شيء ومن كل أمر، جعلته
تربية للنفس، ولمن استحسنه من أبناء الجنس
وسميته: [التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب]
والله أسأل أن يجعله وإياي من المقبولين، وعلى كامل
فضله وكرمه معولين، وقد رتبته على ثمانية
أبواب وخاتمة وتتمة نذكر فيها ما قال العلماء فيما يقع في الوقت
من الحوادث.

الباب الأول

في الكلام على دولة أمير المومنين مولانا الحسن على
الإجمال والاختصار، وما انتشر فيها من الشعر والبهاء
وشعار الأنوار

الباب الثاني

في دولة نجله الأرضى أمير المومنين مولانا عبد العزيز

الباب الثالث

وأنوار في شكل عجيب

الصفحة الثانية من المخطوط

في أحوال الوقت وأخبار الثائر الفتان، المزمّل الرؤيا بالأكاذيب
والبهتان، والمرفع الناس برزنت في العرس الكبير والإشهار.

الباب الرابع

في أخبار الجن والسحر والشيب، ووصولنا إليها، وما منها من البهجة والأنس
وكل ما يشتهى.

الباب الخامس

في ذكر ملوك دولة الدولة العلوية الشريفة، ذات الظلال الوريفة
والعناية السابغة المنيفة، من لدن ابتدائها إلى الآن، بحسب
التيسير والإمكان. الباب السادس

في التعرض للدول العظام، التي تداولت المغرب وذكر ملوكها الفخام
من لدن الفتح الإسلامي زمن إدريس الأكبر رضي الله عنه إلى هذه الدولة
العلوية، والنخبة المظفرية، أدام الله جمالها، ومدّ على
المسلمين أفياء أمنها وظلالها، على حسب الاختصار، لأنها بلغت
مبلغ التواتر في الانتشار والاشتهار.

الباب السابع

في ذكر الغزوات التي تعرضت للملوك بالمغرب
وذكر ما أنتج إليه الحديث مما يناسب المقام
من كل عجيبة وكل غريب.

الباب الثامن

في ذكر نسبنا ووزارة والدنا، وذكر بعض إنشائنا
ونظمنا، وما استحسناه من كلام غيرنا.

ه: الثائر من لا يبقي على شيء، حتى يدرك ثأره. هـ ق

ه: العرس الزفاف والكسر، الوليمة والإمساك. هـ ق

ه: الشيب محركة الجبل الطويل أو علم الجبل. أسماء هـ ق

ه: ورفيف السيف والفضة ماؤه وحسنه. هـ ق

ه: ورق الظل يرف ورفا ورفيفا ووريفا: اتسع وطال وامتد كأورف وأرق. هـ ق

ه: شمخ الجبل علا وطال. هـ ق

ه: ونام وأنام على الشيء أشرف. هـ ق

ه: النخبة بالضم وكهمزة المختار، والتنخيب اختيار. هـ ق

ه: الفيء ما كان شمسا فينسخه الظل، الجمع أفياء وفيوء. هـ ق

ه: التواتر التتابع أو مع فترات. هـ ق

الخاتمة

الصفحة الثالثة من المخطوط

الحسنى ويجعل لنا في الاخرة ما هو اعلا واعز واسنى
بمنه وكرمه امين قلت وكتب [illegible]
[illegible] افضل الشيخ [illegible] والنجم [illegible]
قطب الوجود [illegible] الوجود جامع الحقيقة والشريعة
صاحب الرحمة الرفيعة ذو القدر المنيف والنسب
الشريف [illegible] وبركة وجودنا الشيخ
ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن
مامين بن الطالب اخيار بن الطالب محمد بن الجيه
المختار بن الطالب احبيب بن الطالب علي بن
سيدي يحيى بن سيدي يحيى الصغير بن سيدي عال
ابن سيدي [illegible] بن يحيى الكبير القلقمي بن سيدي
محمد بن سيدي عثمان بن مولاي ابو بكر بن سيدي يحيى
ابن مولاي عبد الرحمن بن [illegible] بن مولاي [illegible]
جمال بن ابراهيم بن مولاي مسعود بن مولاي [illegible]
[illegible] بن مولاي اسماعيل بن مولاي عبد الوهاب بن
مولاي يوسف بن [illegible] بن عبد الله بن مولاي ادريس بن
[illegible] ادريس الاكبر بن عبد الله الكامل بن
الحسن المثنى بن الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible]
علي كرم الله وجهه [illegible]
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم [illegible]

انتهى [illegible]

الصفحة ما قبل الأخيرة من المخطوط

انتهى ما تيسر جمعه في النصف الاول من هذا الكتاب الذي اتى بما نستحسنه
ويرغب فيه اولو الالباب مع الاختصار الذي كاد ان يكون لغزا او معانيه الدقيقة
لا يفهمها الا العاقل الذي لا تخفى عليه الاحوال ولا تلتبس عليه الاقوال ولست شاكا في بغيض
يفرح وحسود يكلح وينبح فكل الاواني بما فيها تنضح وفي معانيها تناى وتصرح
والكريم يمدح ويسمح ويغضي ويصفح على انني لا ابرئ نفسي من الزلل والخطا اذ ذاك
فقلما ... الانسان وتعظم الخطا فقلما يخلو مصنف من الهفوات او ينجو
مؤلف من العثرات فمن راى عيبا فليتكلم بادب ووفاء او ليلتمس العذر لاخيه
لان المومن يلتمس الاعذار والكاتب ... للنكبات وللعثار والمنصف لن يعيب
ادبه ومثبت حسنه والانصاف من شيم الاشراف والحسود مجبول على
النقصان والاستسلام وركوب متن الاباية والاختلاف فالحسود لا يسود ولا يومن
له في مقصود وعودا على بدء اجري به القلم في اخر الكتاب وفضالة الحكم العدل رب الارباب
الاحوال له متمثلا والله تعالى متبتلا

لا والذي بات في حاسرا ... اثر رفع على من اساء الادب
اساء على الله في حكمه ... لانه لم يرض ما وهب
واحرى ان يات زاده ... وسد عليه وجوه الطلب

وكل الكلام فيه المقبول والمردود الا كلام الله وكلام رسوله الخاص المحمود فمن قال ما انشأ
... ومن خرج لقافية الهوى ... في دركات المقت وهوى واقول ... وارى
... من كسب خطابه ما قاله ابو الطيب المتنبي المسلم الا العزيمة من كل
... : واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل :
... الكمال وعليه الاعتماد في كل حال من حسبي وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى
نسأله ... في الجنة منزلا ... وقبولا ويحظيني بحسن الختام في زمرة النبي المصطفى
وكان الفراغ منه تحريرا ... اوائل المحرم الحرام عام اربعة وعشرين وثمانمائة والف
ويليه النصف الثاني واوله الباب الخامس عشر تم

الصفحة الأخيرة من المخطوط

[2] **بسم الله الرحمٰن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله.**

قال العبد الفقير الفاني
الحسن بن الطيب بوعشرين بن اليماني،
أتاحهم الله في الدارين غاية الأماني

الحمد لله الذي له الملك الكبير، والسلطان الذي لا يلحقه تبديل ولا تغيير، ولا توهين ولا تكسير، الغني عن المعين والظهير [1] والمشير والوزير، والجليل والحقير، والمثري والفقير، لا اله إلا هو العليم الخبير، السميع البصير، ذو التصرف الكامل، والحكم الشامل، والانشاء والخلق، والفتق والرتق، والحكمة البالغة وكمال التدبير.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله البشير النذير، السراج المنير، الذي شكا إليه البعير، وحن لفراقه الجذع الشهير، وفار من بين أصابعه الشريفة الماء النمير، وأروى به الجيش الكثير، وأشبعه من الطعام اليسير، المبين للأمة كيف المسير، وما إليه المصير، وحق الأمير على المأمور وحق المأمور على الأمير، وعلى آله [3] وصحبه غيوث الندا، وبحور * الهدى، وقتلة الكفار والعدا، ما بين الكبير والصغير، آمنوا بالله ثم استقاموا، وقعدوا من أجله وقاموا، وخاضوا لجج الحروب [2] في مرضاته وعاموا، حالتي التعسير والتيسير، ونصروه ونصرهم، وقواهم وكبرهم، وثبتهم وكثرهم، فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد فهذا تقييد لطيف، ومسطور نفيس ظريف، في بيان أحوال الوقت وتنقلاته، وتقالباته وتطوراته، وما آل إليه الأمر، من كل فتق ومن كل إمر [3] جعلته ترويحا للنفس، ولمن استحسنه من أبناء الجنس، وسميته

(التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب)

---

(1) الظهير المعين، ويطلق على الواحد والجمع، وفي التنزيل «والملائكة بعد ذلك ظهير»، انتهى «مصباح».

(2) لجة الماء معظمه، واللج ــ بحذف الهاء ــ لغة فيه، انتهى «مصباح».

(3) وأمر إمر منكر عجيب، «ق».

والله أسأل أن يجعله وإياي من المقبولين، وعلى كاهل فضله وكرمه محمولين، وقد رتبته على ثمانية أبواب وخاتمة، وتتمة نذكر مآل الفتان، وما يظهر في الوقت من الحدثان (4).

البـاب الأول

في الكلام على دولة أمير المؤمنين مولانا الحسن على الاجمال والاختصار، وما اكتنفها من السعد والبهاء وشوارق الأنوار.

[4] ## * البـاب الثانـي

في دولة نجله الذهب الابريز، أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز.

البـاب الثالـث

في أحوال الوقت وأخبار الثائر (5) الفتان، الذي ملأ الدنيا بالأكاذيب والبهتان، وأوقع الناس بذلك في الهوس (6) الكبير والأشطان (7).

البـاب الرابـع

في أخبار الجزائر والسبب في وصولنا إليها، وما فيها من البهجة والرونق (8) وكل ما يشتهي.

البـاب الخامـس

في ذكر ملوك هذه الدولة العلوية الشريفة، ذات الظلال الوريفة (9)،

---

(4) حدثان الأمر بالكسر أوله وابتداؤه، كحداثته، ومن الدهر نوبه، كحوادثه وأحداثه، «ق».
(5) الثائر من لا يبقى على شيء حتى يدرك ثاره، «ق».
(6) الهوس الذق والكسر، إلى أن قال والافساد، «ق».
(7) الشطن ـــ محركة ـــ الحبل الطويل، أو عام، الجمع أشطان، «ق».
(8) ورونق السيف والضحى ماوه وحسنه، «ق».
(9) ورف الظل يرف ورفا ووريفا ووروفا اتسع وطال وامتد، كأورف وورّف، «ق».

والعناية الشامخة [10] المنيفة [11]، من لدن بدايتهم إلى الآن، بحسب التيسر والامكان.

البــاب الســـادس

في التعرض للدول العظام، التي تداولت المغرب وذكر ملوكها الفخام، من لدن فتحه مولانا إدريس الأكبر رضي الله عنه إلى هذه الدولة العلوية، والنخبة [12] المصطفوية، صان الله جلالها، ومد على المسلمين أفياءها [13]وظلالها، على حسب الاختصار، لأنها بلغت مبلغ التواتر [14] في الانتشار والاشتهار.

البــاب السابـــع

في ذكر الغزوات التي تقدمت للملوك بالمغرب، وذكر ما يجر إليه الحديث مما يناسب المقام من كل عجيبة وكل مغرب.

البــاب الثامـــن

في ذكر نسبنا ووزارة والدنا، وذكر بعض إنشائنا ونظمنا، وما استحسناه من كلام غيرنا.

* الخاتمـــة [5]

في ذكر النبي ﷺ وكيفية بعثته وذكر الصحابة العشرة، والأئمة الأربعة، رضي الله عن جميعهم ومجد وعظم وكرم، لتكون هذه الخاتمة كفارة لما أسلفناه في هذا الكتاب، العذب [15]المستطاب، الذي أتى بما تستحسنه العقول، وتنتصف له الرجال الفحول، والله أسأل أن يتممه على أحسن المراد، ويجعله ناهجا نهج الصواب في كل إصدار وكل إيراد، إنه العلي القدير، السميع البصير، نعم المولى ونعم النصير، عليه اعتمادي، وإليه ركوني واستنادي.

---

(10) شمخ الجبل علا وطال، «ق».
(11) وناف وأناف على الشيء أشرف، «ق».
(12) النُّخبة بالضم وكهمزة المختار، وانتخبه اختاره، «ق».
(13) الفيء ما كان شمسا فينسخه الظل، الجمع أفياء وفيوء، «ق».
(14) التواتر التتابع أو مع فترات... «ق».
(15) العذب من الطعام والشراب كل مستساغ «ق».

البـــــاب الأول

في الكلام على دولة أمير المؤمنين مولانا الحسن بن أمير المؤمنين مولانا محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمٰن بن هشام، قدس الله أرواحهم في دار السلام، ورضي عنهم وعن آبائهم الكرام.

لما مات أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله كان مولانا الحسن قدسه الله غائبا في بلاد تسمى بوريقى من بلاد قبيلة حاحا، محاصرا للقبيلة المذكورة عن أمر أبيه، لخروجهم عن طاعة عاملهم ولد يهي، وكان والده المذكور بمراكش وقتئذ، فمرض بعض يوم فيما ظهر للناس ومات عند الزوال من يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام، عام تسعين ومائتين وألف، [6] فاجتمع إذ ذاك أهل الحل والعقد من الوزراء والشرفاء*والكتاب وقواد الجيوش والقبائل وأهل مراكش بدار السلطان، وعقدوا البيعة لنجله (16) الأبر مولانا الحسن، ولم يختلف عليه أحد فيها، وكان المتولي لعقدها وجمع الأعيان عليها حاجب أبيه الفقيه الأرشد، أبا عمران السيد موسى بن أحمد، ثم اشتغل بتجهيز أمور الجنازة، واحتفل لها احتفالا (17) عظيما ما سمع بمثله، ودفن سيدي محمد ليلا بقبة جده مولانا علي الشريف بباب أيلان من مراكش رحمه الله، ثم توجهت الرسل بالخير لأمير المؤمنين مولانا الحسن فقام بأعباء الخلافة أحسن قيام، وحملها على كاهل المبوّ والاعظام، وتلبث يسيرا إلى أن اجتمع عليه من كان غائبا عنه في أغراض المملكة من جيوشه، وولى على القبيلة المذكورة من ظهرت له توليته من العمالِ، وأوصاهم بما تَنْبَغِي الوِصاة (18) به من الأقوال والأفعال.

---

(16) النجل الولد والوالد ضد، انتهى «ق».

(17) الاحتقال الوضوح والمبالغة، كالحفيل، وحسن القيام بالأمور، «ق».

(18) أوصاه ووصاه توصية عهد إليه، والاسم الوصاة والوصاية والوصية، «ق».

ثم نهض قاصدا مراكش نهوض عز وتأييد، ونصر ما عليه من مزيد، ومر على شيشاوة وزار أولياءها، وذبح الذبائح وسلك طريق الأدب مع الأولياء والصلحاء وقدر قدرهم، وأعطى أموالا كثيرة، وكسا الكسا (19) الرفيعة، وفعل الفعل الجميل، والخير الجزيل، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن وصل لمراكش في يوم كان عيدا، وموسما كبيرا وحيدا، وخرج له الجم الغفير من مراكش وسلموا عليه وعزوه في أبيه وجددوا بيعته، واختلط بالناس ودعا لهم ودعوا له، ودخل من باب يغلي، وحصل للرعية فرح كثير بخلافته، لما يعلمونه من حسن طلعته (20) ويمن نقيبته (21)*وحصول كفايته، وعليّ همته وكثرة شفقته ورحمته، وثباته ووفور عقله ومعرفته ودرايته، وقد حلت فيه المملكة محلها، وكان أحق بها وأهلها. [7]

ولما استقر بداره أقر حاجب أبيه المذكور على حجابته وزاده الوزارة عليها، وعرف له حقه وجازاه مجازاة الكرماء على وقوفه في بيعته، واختصاصه إياه بها على كثرة أعمامه وبني عمه وإخوته، ونوه (22) به التنويه التام، وصير في يده من الأمور الخاص والعام، فأصبح أبو عمران قطب الدائرة، ورئيس تلك المملكة الفاخرة، وأقبلت عليه الوجوه، ونال فوق ما كان يرجوه، وتأثل (23) مجده، وسما عرشه وسعده، واختص بنفوذ الكلمة من بين سائر الوزراء، وتقدم وتركهم وراء.

ثم جاءت الوفود بالبيعة للسلطان من جميع الأقطار، وأعيان كل البلاد والأمصار، وطأطأت (24) له الرؤوس وخضعت الأعناق، وبذلوا من الطاعة كل ما يطاق، فقابل كلا بما يليق بجلاله وكرمه، وأفاض عليهم جلابيب إحسانه ونعمه، وباشر الأمور مباشرة أماثل (25) الملوك، وسوى في الحق بين الشريف والمشروف

(19) الكسوة بالضم الثوب، ويكسر، الجمع كسى وكساء «ق».
(20) حبا الله طلعته رؤيته أووجهه، «ق».
(21) النقيبة النفس والعقل والمشورة، وتفاذ الرأي والطبيعة، «ق».
(22) نوهه وبه: دعاه ورفعه، «ق».
(23) أثل يائل أثولا وتأثل تأصل، وأتل ماله تأثيلا زكاه وأصله، وملكه عظمه، والأهل كساهم أفضل كسوة وأحسن إليهم، والرجل كثر ماله، وتأثل عظم، والمال اكتسبه «ق».
(24) طأطأ رأسه طامنه وخفضه، فتطاطا، «ق».
(25) الأمثل الأفضل، الجمع أماثل، والمثالة الفضل، وقد مثل ككرم... «ق».

والغني والصعلوك (26)، وحمد الناس سيرته، وأشربت قلوبهم وداده ومحبته، وصار حالهم كحال من سقط منه درهم فعوضه الله عنه بدينار.

ثم أخذ في أسباب السفر لمدينة فاس واستعد له كل الاستعداد، واجتهد في [8] تنظيم الأمور وتمشيتها على مقتضياتها غاية الاجتهاد،*وحشد (27) الحشود الكثيرة، وجمع الجموع الغزيرة، ولما تكامل له الأمر وفق المراد، ومهد البلاد وساس العباد، قام الرحامنة على عاملهم، وراموا ثلب (28) المملكة على عادتهم، فأخره السلطان عنهم وأرخى لهم الرسن وطول الأمل، وتمثل بقولهم «مكره أخاك لا بطل»، وقد سقاهم على ذلك بعد حين كؤوس المرارة، وأطفأ من شدتهم كل الحرارة.

ثم نهض من مراكش في ثالث رمضان من العام المذكور مؤيدا منصورا، فرحا بما آتاه الله من الملك مسرورا، يجر الطِّم والرِّم (29) من الجيوش والرجال، ملأ منها السهل والجبال، فقابلته رعيته وقبائله في سفره بمزيد الطاعة، والهدايا الوافرة جهد الاستطاعة، ولم يزل اليُمْن يقدمه والسعادة تخدمه إلى أن وصل لفاس، وكل أيامه كذلك من غير احتمال ولا التباس، ما رأي ما يخدش (30) في وجه المملكة أو يهضمها (31)، وينقصها حقها ويثلمها (32)، إلى أن استأثر (33) الله به، وقبضه إليه، وقد تكفلت بأخباره ومآثره كتب التاريخ الموضوعة في هذا الشأن ككتاب «الاستقصا، لأخبار ملوك المغرب الاقصا» وغيره، فعاش جليلا حميدا، ومات عزيزا شهيدا، رحمه الله وغفر لنا وله، ودفن بثغر الرباط ضجيعا لجد جده أمير المؤمنين سيدي محمد، بن أمير المؤمنين مولانا عبد الله، بن أمير المؤمنين مولانا

(26) الصُّعلوك كعصفور الفقير، «ق».

(27) حشد يحشد ويحشد جمع، «ق».

(28) ثلبه ثلبا من باب ضرب عابه وتنقصه ولامه وطرده وقلبه وثلمه، والمثلبة المسبة، وتضم اللام.

(29) الطم بالكسر العدد الكثير، جاء بالطِّم والرِّم بالبحر والثرى، أو الرطب واليابس، أو التراب والماء، أو بالمال الكثير، «ق».

(30) خدشه يخدشه خمشه، والجلد مزقه قل أو كثر، أو قشره بعود ونحوه، «ق».

(31) هضم الطعام الدواء يهضمه نهكه،وعليهم هجم أو هبط، وفلانا ظلمه وغصبه، «ق».

(32) ثلم الاناء والسيف ونحوه كضرب وفرح، وثلّمه فانثلم وتثلم كسر حرفه فانكسر، والثلمة بالضم فرجة المكسور والمهدوم، والثلم محركة أن ينتلم حرف الوادي، «ق».

(33) واستأثر بالشيء استبد به وخص به نفسه، والله ـــ تعالى بفلان إذا مات ورجي له الغفران، «ق».

اسماعيل بن الشريف، عام أحد عشر وثلاثمائة وألف أوائل حجة الحرام ختام

[9] العام المذكور، وقد دخلنا لمقامه وزرناه، ودعونا* له ولجده المذكور بما نرجو من الله تعالى قبوله، وهو مقام حفيل، عليه من البهاء والرونق وحسن المنظر ما لا تفي بشرحه الأقلام، ولا تبلغ لكنهه ـــ بدون المعاينة ـــ الأفهام، وأيام مملكته أكثر من العشرين عاما كما يأتي.

وقد وقعت له مع أهل فاس وقعة شنيعة أثر حلوله بها، أبان فيها عن حسن التدبير، من ملك ذكي خبير، نشأت عن وقعة بنيس المشهورة، التي هي ـــ إلى الآن ـــ في الألسن مذكورة، مات فيها من الفريقين كثير، وكان أمرها من الأمر الغريب العسير، ثم اصطلح معهم بعد أن كان الظهور لجلاله الرفيع، ومقامه المنيع، وقبض على عاملهم السراج، لريبة تعلقت به في هذه الوقعة ونفاه إلى مراكش، فبقي بهامدة طويلة يعالج الحسرات، ويتأوه من النكبات والعثرات، إلى أن تعطف عليه بعد اللتي واللتيا ورده لمحله، ولما وصل لفاس مات يوم دخوله لداره رحمه الله، واستراح من تلك الغصة، التي لا رأفة فيها ولا رخصة.

ثم أخذ أمير المؤمنين بعد الوقعة في تمهيد الأقطار، وتسكين الروعة في الانجاد والأغوار، وواصل في ذلك الليل بالنهار، والعشايا بالأسحار، ونفي الدجاجيل عن مملكته، وحصلوا في قبضته كالهبرى ومولانا الكبير وهابه أهل الغرب برمته (34) لما تحققوه من صرامته (35) وإقدامه وشجاعته، وجودة رأيه

[10] وسياسته، وعلا صيته (36) في جميع الأوطان، وسارت* بأخباره العجيبة الركبان، وسمت همته العليا إلى توسيع المملكة وتمتين عروتها (37) وانفساح دائرتها وتنظيم أمتها، ولم شعثها (38) وجمع كلمتها، فتيسر له ذلك، وبلغ فيه أقصا ما هنالك، واتسعت دائرة ملكه كثيرا، وكان بإدارة الأحوال وصرف وجوه الأهوال بصيرا، وجال في أقطار مملكته القريبة والشاسعة (39) في سائر أيامه النيرة الناصعة.

---

(34) ودفع رجل إلى أخر بعيرا بحبل في عنقه، فقيل لكل من دفع شيئا بجملته أعطاه برمته، «ق».

(35) الصارم السيف القاطع كالصروم، والماضي الشجاع، وقد صرم ككرم، «ق».

(36) الصيت بالكسر الذكر الحسن، «ق».

(37) العروة من الدلو والكوز المقبض، «ق».

(38) الشعث محركة انتشار الأمر، «ق».

(39) شسع المنزل كمنع شسعا وشسوعا بعد، فهو شاسع وشسوع، «ق».

فوصل للريف مرتين، ودوخه (40) كرتين، وطاف على أممه المحشورة، وقبائله المذكورة، على اتساع أقطاره، وكثرة أوعاره، وعلو مناره، فثقف أطرافه، ووطد (41) أكنافه (42)، وولى فيه وعزل، بمعونة من الله عز وجل.

وقبض في المرة الثانية على البشير بن مسعود اليزناسني وبعض من أقاربه وذويه، ولم تكن سماء تظله ولا أرض تؤويه، جزاء على ما اقترفه من التهاون بمنصب المملكة، والتجاسر على خليفة السلطان لما وجهه لتلك البلاد بالحركة، وهو من هو في رفعة الشأن بتلك الأقطار، والحكم على صناديد (43) هاتيك الديار، وكثرة الأموال التي جلت عن المقدار، واتساع دائرة أبطاله، وكثرة عَدده وعُدَده ورجاله، فافترسه السلطان افتراس الأسد الضاري (44) وانقض عليه انقضاض البازي على الصيد العاري، واستخرجه من كنه (46) وسلبه من عزه على كبر سنه، فأصبح [11] حقيرا أسيرا، بعد أن كان أميرا كبيرا، ثم وجهه ومن معه لفاس* يسجنون بها وكان ذلك اخر العهد بهم، وبجموعهم المفلولة (47) من بعدهم، فذهبوا وتفرقوا شذر مذر (48) حتى لا خبر ولا أثر، وتعجب الناس من ذلك وتحققوا به يمن السلطان الغضنفر، وما سناه له من التيسير والظفر، العلي الكبير المالك، وولى في محله عددا من العمال، وأصلح ما انثلم من تلك الأحوال، وجبى من هنالك شيئا كثيرا من الأموال.

---

(40) داخ البلاد قهرها واستولى على أهلها، كدوخها، ودوخه : أذله، «ق».

(41) وطد الشي يَطِدُه وطدا وطِدَة فهو وطيد وموطود أثبته وثقله، كوطده فتوطد، وإليه ضمه، وله منزلة مهّدها «ق».

(42) أنت في كنف الله تعالى في حرزه وستره، وهو الجانب والظل والناحية، كالكنفة محركة «ق».

(43) الصِّندد كزبْرج السيد الشجاع كالصنديد، أو الحليم أو الجواد أو الشريف «ق».

(44) ضري به كرضي ضرى وضراوة وضريا وضراءة لهج، وضراه به تضرية وأضراه، والضرو بالكسر الضاري من أولاد الكلاب، كالضري، وكلب ضار بالصيد... «ق».

(45) انقض الطائر هوى ليقع «ق».

(46) الكن بالكسر وقاء كل شيء وستره، كالكِنة والكنان بكسرهما، والبيت، الجمع أكنان وأكِنّة... «ق».

(47) فله وفلله ثلمه فتفلل وانفل ومنفل، والقوم هز مهم فانفلوا، وقم فل منهزمون، الجمع فلول وأفلال، وسيف فليل ومفلول وأفل ومنفل منثلم، وفلوله ثلمة، واحدها فَل «ق».

(48) تفرقوا شذر مذر ويكسر أولهما : ذهبوا في كل وجه.

ووصل إلى وجدة ودخلها، ونظر حالها وأصلح شأنها، ولما قضى من ذلك الوطن الأغراض، وأزال منه الشقاق (49) والأمراض، رجع لقرار ملكه وبحر فلكه مدينة فاس، الطيبة الأنفاس، مؤيدا منصورا، وبكل لسان مذكورا، وقعد على أريكة ملكه يباشر الأمور، وينظر في عواقب ما تأتي به الأيام والدهور.

وقد كانت وقعت بينه وبين قبيلة غياثة في وجهته هذه للريف قبل القبض على البشير بن مسعود وقعة مشهورة، وعثو بالبوار (50) — لولا لطف الله — موقورة (51) وكان النصر فيها أخيرا للسلطان، الذي هو نور هذا المغرب الهتان (52) فهدم لهم الديار، وحرق الأشجار، ومحا منهم الآثار، وطلع عليهم في جبالهم التي هم بها معتصمون، وعن طوارق الحدثان متحصنون، وأراهم خلاف ما كانوا يظنون، وانشمروا لرؤوس الجبال هاربين، ولنجاتهم ونجاة أولادهم طالبين، لكن [12] إنمحص (53) من جيوشه وعساكره شيء كثير، بقدرة الله العلي الكبير،*سقطوا في هوة (54) غامضة لم يكن عندهم علم بها، حيث اضطرهم الأعداء وألجأوهم إليها، إلى أن امتلأت من الخيل والرجال، والأموال الكثيرة ذوات البال، وماج (55) الناس موجا ظنوا به وقوع الكائنة على نفس السلطان، وانبهمت المسالك بكثرة الغبار والدخان، وكادت الهزيمة تتم على المحلة لولا حلم الله الملك الديان، واظهر السلطان في ذلك الوقت من الشجاعة والصبر والثبات ما تحدث الناس به دهرا طويلا، وكان ذلك على رفعته وشدة بأسه دليلا، وحاز به ذكرا جميلا، وثناء جزيلا.

ولما رأى ما حدث من الفزع والاضطراب، وقرب انغلاق الأبواب، رجع من محل المعركة لتمهيد محلته وتسكين روعتها، وتأمين جمعها وأمتها، فاستبشر الناس بمقدمة وفرحوا، وابتهجوا بسلامته وانشرحوا، وهان عليهم ما حل بإخوانهم بالنسبة

---

(49) الشقاق الخلاف والعداوة، «ق».

(50) البوار الهلاك، وكساد السوق، «ق».

(51) الوقر بالكسر الحمل الثقيل، أواعم، الجمع أوقار «ق».

(52) الهتن الانصباب، أو هو فوق الهطل... «ق».

(53) التمحيص الابتلاء والاختبار والتنقيص. «ق».

(54) الهوة كقوة ما انهبط من الأرض، أو الوهدة الغامضة منها، كالهواعة كرمانة، «ق».

(55) الموج: اضطراب أمواج البحر. «ق»

إليه إذ بقاؤه بقاء للجميع، ولا سيما في ذلك الصقع الفظيع، وقال لسان حالهم بجبهة العير يفدي حافر الفرس، فلبث [56] في محلته ثلاثة أيام ريثما [57] راجع الناس بصائرهم، وعقدوا على النصرة ضمائرهم، ثم قصد بعدها غياثة في جبالهم وأوعارهم، واستخرجهم من عشاشهم وأوكارهم، وكان له من النصر والظفر ما قدمناه، واسلفناه وشرحناه.

ورجع السلطان بعد حين من فاس لمراكش فجلس فيها مدة حتى [13] استقامت أمورها، وأمنت سبلها وجموعها، واوقع فيها* بأولاد أبي السباع وقبض على كثير من رجالهم وصناد[يد]هم بحيلة دبرها، وشبكة نصبها ويسرها، وأورث نساءهم وأولادهم البكاء والعويل، والحزن الكبير الطويل، ولولا تلك المكيدة ما حصلوا، ولا مستهم شوكة الغالبين ولو بذلوا ما بذلوا، لأنهم كلهم شجعان وأبطال وفرسان، لا يصبرون على الهضيمة، ولا يرضون بالذميمة، ولكن أمر الله إذا جاء لا تنفع فيه التميمة [58] فانكسرت شوكتهم، وذهبت حدتهم، وزالت نخوتهم، وصاروا في ذلك الوقت أذل من وتد بقاع، وتفرق من بقي منهم في كل الأصقاع والبقاع، طلبا للنجاة من مثل هذه الفتكة العديمة المثال، والفعلة التي بدلت الأحوال، وكثرت الأهوال، ولم يبق سوى المستضعفين من الرجال والنساء والبنين، تبكي عليهم ربوعهم بالصراخ والأنين، وتناديهم ألا هلموا فليس إلا الصبر الجميل والاتكال على الرب المعين.

وذلك بعد أن فتك بالرحامنة مثلها، وفرق جموعهم كلها، وأكثر لهم العمال، وأشبعهم من الأهوال والإهمال، في خبر يطول جلبه، وغاية الأمر فهذا لُبه.

ثم رد وجهته للكُنتافي بجبال المصامدة من الموحين لتعصبه وتمرده في غيبة السلطان لفاس وقتاله لجيوشه المحاصرة له، وطلبه بالنزول من جبله والقدوم على [14] حضرته وإلا* يأذن بالحصار، وإخلاء الديار، فلم يمكنه إلا الامتثال، خوفا مما يجر إليه الحال، فجاء إليه مستجيرا بكبير زاوية أهل تمكدشت، فأجاره وشافهه

---

(56) اللبث ويضم واللبث محركة واللبَاث واللُّباث واللُّباثة واللبيثة المكث، لبث كسمح، «ق».

(57) الريث الابطاء كالتريث، والمقدار، وما أرائك ما أبطأك... «ق».

(58) التميم التام الخلق، والشديد، وجمع تميمة، كالتمائم لخرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق، وتمم المولود تتميما : علقها عليه، «ق».

واجتمع به وولاه على أهل جبله، وغض الطرف عما اعتذر به وأظهره من علله، وسدل عليه جلباب الأمن والكرم، ورده لمحله مغمورا بالنعم، واستقام حال الكنتافي وأخلص الطاعة، ودخل فيما دخلت فيه الجماعة، وبقي على ذلك إلى أن مات، وذهب وفات، رحمه الله، فقدم ولده على حضرة السلطان وولاه في محل أبيه، وكبو على قبيله وذويه، ولا زال على طاعة السلطان، إلى الآن وحتى الآن.

ثم صار السلطان يستنزل الأسود من الصياصي (59) ويلين قناة كل مريد عاصي، إلى أن أطاعته البلاد، وخضعت لصولته العباد، ولم يزل يذهب لفاس تارة ولمراكش أخرى سائر أيامه، ما ركن إلى دعة ولا شبع من منامه، ووصل إلى جبال أيت ومالوا وقبائل فازاز وما والاها، ودوخ ذلك القطر المديد، والصقع (61) العريض البعيد، مرة بعد أخرى، وأيادي الله تتزايد لديه وتترا، وأوقع بقبيلة آيت شخمان وقعة بعد العهد بمثلها، ولم يوقف لغيرو على شكلها، لقتلهم ابن عمه مولاي سرور، ومن كان معه من الجيش المغدور، فأبقاها فيهم دينا على الملوك، وتوجه [15] *لقطر السوس الأقصا مرتين: الثانية منهما كانت عام ثلاثة وثلاثمائة والف، ووصل إلى وادي نون ووفدت (62) عليه الوفود هنالك من قبائل الصحراء متبركين بمقدمه، ومستظلين بظل حرمه ورايته وعلمه، فقابل كلا بالجميل، وأنعم عليهم بالخير الكثير الجزيل، وكتب من وادي نون كتابا إلى الشيخ الجليل، والغوث الذي ماله من مثيل، سيدي ماء العينين أطال الله حياته في عافية الدارين، يطلب منه القدوم عليه لمحلته، بقصد التبرك به والاجتماع معه ورؤيته، وتمثل في آخر ذلك الكتاب بما نصه

وأبـــرح (63) ما يكـــون الشوق يومـــا إذا دنت الديــــــار من الديــــــار

ومكث بوادي نون نحو العشرة أيام.

---

(59) الصياصي جمع صيصة بالكسر، ولها معان، منها الحصن وكل ما امتنع به، «ق».

(60) القناة الرمح، «ق».

(61) الصقع بالضم الناحية، «ق».

(62) وفد إليه وعليه يفد وفدا ووفودا ووفادة وإفادة قدم وورد، وأوفده عليه وإليه، وهم وفود ووفد وأوفاد ووفّد، «ق».

(63) وأبرح أي أشد. «ق».

ثم نهض راجعا لمحل سلطنته، ومقر مملكته، مدينة مراكش الحمراء، ذات البساتين الشهية الخضراء، والبهجة البهية الغراء، والنخيل الباسق (64) الأفنان (65) كأنها الياقوت والمرجان، وبينما الشيخ يهيء الأمور إذ بلغه نهوض السلطان من وادي نون، فأمسك عن القدوم وبعث الجواب، عن شريف ذلك الخطاب، بأن الاجتماع المطلوب بوادي نون لم يمكن الآن، فأجابه السلطان بالمجيء لأي محل وجده الحال به من الأوطان، فامتثل ذاك وتحرك من محله بدرا طالعا، ونورا ساطعا، [16] وغوثا (66) جامعا مانعا، وسمة تشهد أنه من أكابر الصالحين، الناجحين* الرابحين، ما شئت من سناء (67) تخجل (68) منه الأقمار، وبهاء (69) تجله الأبرار، وقدر تصغر عنده الأقدار، وحالة تحبها القلوب، ويتقرب بالانتماء إليها من علام الغيوب، فلا شك أنه من بقية الناس أهل الصدق والوفا، والفناء في محبة الله ومحبة المصطفى، فلله دره ما أعظم منظره ومرآه، وأحلاه وأغلاه،

آياتـــــه تنبـــــيك عن أخبـــــاره حتـــــى كأنك بالعيـــــان تراه

ووصل لمراكش حيث لم يدرك السلطان إلا بها في يوم مبارك سعيد، امتلأ من الأنوار والاشراق حتى كأنه عيد، وقابله السلطان بمزيد الاعتناء والكرامة، والمراعاة البالغة التي هي على حسن الاعتقاد علامة، واجتمع به وشافهه وطلب منه الدعاء في خلوة بقعر داره، وأطلعه على الحقير والجليل من أخباره، وكمين أسراره، فدعا له وبشره، وسكن أهواله بما ألقاه له وقرره، وابتهج السلطان بمقدمه، وأجرى عليه وعلى أتباعه ومواريده كثيرا من نعمه، وأنزله بدار الفقيه الحاجب الأنجد، السيد أحمد بن الحاجب الوزير السيد موسى بن أحمد، وأباح له دخول من يأتي إليه بقصد التبرك والزيارة، وجاء إليه الناس في كثرة تكل عن إحصائها [17] العبارة، وتلمذوا له واقتدوا به، واهتدوا بهديه وتعلقوا بسببه، وقد* زرناه والحمد لله مرارا، وزاره أولادنا وأهلنا ودعا لنا ولهم دعاء مدرارا (70) وتلمذنا له والحمد لله ونحن

---

(64) بسق النخل بسوقا طال «ق».

(65) الفنن محركة الغصن، جمعه أفنان، وجمع الجمع أفانين.

(66) الغوث : علم على القطب الفرد الجامع، «ق».

(67) السنا ضوء البرق، وبالمد الرفعة... «ق».

(68) خجل كفرح استحيا ودهش وبقي ساكنا لا يتكلم ولا يتحرك «ق».

(69) البهاء الحسن، والفعل بَهُوَ كَسَرُوَ ورضي ودعا وسعى «ق».

(70) مدرارا أي كثيرا، «ق».

الآن نتقلب في ظل رضاه، ونحتمي بحماه، رضي الله عنه وأرضاه، وصدر الشيخ من الحضرة قافلا لمحله محفوف الجناب بالعناية. والمراعات التي ما لها من نهاية.

وودع الناس وودعوه وذهب في سلامة والقلوب تتحسر على فراقه، وتتلهف على بعده وانطلاقه، وسار يخترق الجبال والوهاد، بعد أن قرأوا لديه «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد»، فحقق الله الرجاء وعاد وعاد، وستاتي بقية أخباره، وجملة مختصرة من كراماته وأسراره، إن شاء الله تعالى، وقد اعرضت في هذا المسطور، عن التعرض لتاريخ كثير من الأمور، حيث لم يكن لدي كتاب نستمد منه ونعتمد عليه من كتب التاريخ، وما ذكرت فيه إلا ما أسندته لعلمي ودرايتي، وفهمي الركيك وغباوتي، لأن المدار عندي هو بث أخبار هذا الملك الجليل، ليعلم الفرق بينها وبين ما بعدها مما أتى به الزمان البخيل، والعصر الذي ماله في الشؤم مثيل، وحسبي الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم الكفيل، وقدوم الشيخ هذا كان أول عام أربعة أو آخر عام ثلاث قبله بلا شك ولا ريب.

[18] وتوجه السلطان — أيضا — لأقطار جبال العلم*وزار أولياءها وصلحاءها المقطوع لهم بالولاية ممن تأخر أو تقدم، خصوصا القطب العلي الشان، الواضح البرهان، المعظم في جميع الأقطار وسائر الأزمان، السائر صيته مسير المثل، ولي الله عز وجل، سيدي وسندي سيدي عبد السلام بن مشيش سليل النسب الطاهر، والحسب الباهر، الذي صدحت بعليائه أولياء المنابر، وشهدت ببركته وكرامته أكابر الأكابر، زاده الله تكرمة وتشريفا، وفخرا عظيما منيفا، وعرف الناس هنالك وعرفوه، وكرعوا (72) في بحر كرمه وارتشفوه (73) وأعطى عطاء أكابر الملوك، ومهد البلاد للسلوك، ونصب العمال، وأحيا رسوم المملكة في سائر تلك الأعمال، وجبى منها جبايات، كانت لسعادته آيات وأي آيات.

---

(71) صدح الرجل والطائر كمنع صدحا وصداحا رفع صوته بغناء، «ق».

(72) كرع في الماء أو في الاناء كمنع وسمع كرعا وكروعا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفية ولا بإناء، «ق».

(73) الرشيف كأمير تناول الماء بالشفتين، ورشفه يرشفه كنصره وضربه وسمعه رشفا مصه، كارتشفه وترشفه وأرشفه ورشفه، والاناء استقصى الشرب حتى لم يدع فيه شيئا، والرشف أنفع أي ترشف الماء قليلا قليلا [illegible]، «ق».

ودخل لمدينة تطوان، التي هي لكل خير برهان وعنوان، وفرح به أهلها فرحا ما عليه من مزيد، وتلقوه بالترحيب والتبجيل والتعظيم والتمجيد، وفعل معهم ما يليق بجلاله الشريف، وجانبه المنيف، ثم توجه لطنجة بعد احتفاله لدخولها الاحتفال العظيم، واستعداده الاستعداد العميم بالخيول المسومة [74] والسروج الجديدة المنعمة، والرجال العديدة المعظمة، والعدة الرائقة، والشارة [75] الفائقة، فحلها على حالة ما سمع بمثلها، وتلقاه جميع كبرائها وأهلها، حتى من استوطنها من الأجناس،* ونال حظوة [76] ورفعة لا تقاس بمقياس، وأتته الهدايا الكثيرة، والمواهب الفاخرة الغزيزة، وشهد له الناس بالفضل المتين، والعقل الرصين، ومكث بطنجة نحو الثمانية عشر يوما ثم نهض منها عن عز شامخ، ونصر باذخ [77] وقدم ثابت في السلطنة راسخ، ووصل إلى العرائش ودخلها وأمطرها فضله المعلوم، وكرمه المحتوم، ثم توجه للقصر الكبير، ذي الخير الكثير، والأمن الشهير، ومنه رجع لمدينة فاس، محل العلم وموطن الأكياس. [19]

ووصل السلطان — أيضا — لقطر تافيلالت موطن أسلافه الكرام، ومحل الأشراف الأجلة العظام، فجال بأقطارها، وتلاقى بأوليائها وخيارها، وحماتها وأنصارها، ومهدها بكل ما قدر عليه من تيسير أوطارها، وتفخيم آثارها، وأعطى الأموال الجزيلة، وبذل الكسا الرفيعة الجميلة، وطاف على زيارة مقامات أجداده الصالحين، الشرفاء المفلحين، وهو على غاية ما يكون من النشاط والابتهاج، والانشراح المتلألئ الوهاج، لوصوله لذلك المحل السعيد، وكان يوم وصوله إليه معمورا بالمحاسن كالعيد، ومكث هنالك أزيد من نصف الشهر إلى أن استوفى غرضه في زيارة إخوته وبني عمه وتلافاهم، وأكرمهم وأعطاهم، ووسع لهم دائرة كنفه وأغناهم، وكساهم وحلاهم، وبلغهم من كل خير مناهم،* ثم ارتحل والقلب منه متعلق بمعاهد السلف تعلق الفرزدق بالنوار، وله حنين إليها كحنين الناقة إلى [20]

(74) المسومة أي عليها أمثال الخواتيم، أو معلمة ببياض وحمرة، أو بعلامة، «ق».

(75) الشورة والشارة والشور والشيار والشوار الحسن والجمال، والهيئة، واللباس، والسمن، والزينة، «ق».

(76) الحظوة بالضم والكسر. والحظة كعدة المكانة، والحظ من الرزق، الجمع حظا وحظاء، «ق».

(77) شرف باذخ : عال، «ق».

الحوار (78) وعشيرته وأقاربه يتلهفون (79) على فراقه، وكل منهم يرسل الدموع الغزار عليه من آماقه (80) ويلهجون (81) بما أسداه (82) لهم من جلائل الكرم، وسدله عليهم من جلابيب النعم، ويدعون له بمزيد النصر والتأييد، والعز الكبير المديد، والفتح المبين الوحيد.

وصدر أمير المؤمنين من تلك البلاد موفور الطاعة من قبائلها، ومسموع الكلمة من رجالها وعوالمها، والنور يلمع من جبينه، ويتصبب من كل ذاته وجوارحه ويمينه، فقصد مراكش على طريق جبال الجلاوي التي صافحت النجوم علوا وارتفاعا، وزادت شدة ووعورة وامتناعا، والتحفت بالثلوج وتدرعت، واحتجبت بها وتسربلت وتسترت، فقاسى الناس فيها من الشدائد ما لم يكن لهم بالبال، وخاضوا بحار المشاق والأهوال، ونالوا من الأوحال ما يطول فيه المقال، وما استخلصوا مهجهم من تلك الجبال، إلا بعد أن ظنوا أن الخلاص محال، ولما أشرفوا على أنحاء مراكش ونظروها، وهبت عليهم رياح الرحمة منها واستنشقوها، وعاينوا ما لا يوصف من سعة أنحائها، وانبساط أرضها وامتداد عمرانها وأحيائها، وكثرة أوديتها العذبة وأنهارها،* رجع إليهم نافر أنسهم، وذهب عنهم خاطر بأسهم، واكتحلوا بعد بالمنام، وحمدوا على نجاتهم الله الملك العلام. [21]

وتوجه السلطان لما تخلص من ذلك الجبل لزيارة الولي الصالح، والقطب الشهير الواضح، أبي المكارم سيدي رحال، محل الرجاء وموئل الرجال، رضي الله عنه وأرضاه، وأعطانا كما أعطاه، ونفعنا به آمين، فزاره وذبح بمقامه، وتملق بين يديه ومكث بزاويته ثلاثة أيام، حتى اجتمع عليه من كان باقيا في ذلك الجبل من عساكره وجنوده، وصناديد رجاله وأسوده.

---

(78) الحوار بالضم وقد يكسر ولد الناقة ساعة تضعه، أو إلى أن يفصل عن أمه، جمعه أحورة وحيران وحوران، «ق».

(79) لهف كفرح حزن وتحسر، كتلهف عليه، «ق»

(80) مأق العين طرفها مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع من العين، أو مقدمها، أو مؤخرها، الجمع آماق وأمئاق ومواق ومئاق، «ق».

(81) لهج به كفرح أغري به فثابر عليه... «ق».

(82) أسدى بينهما : أصلح، وإليه : أحسن، «ق».

ثم نهض لمدينة مراكش فوصلها عن يومين لكثرة ما كان به من الشوق إليها، والاهتمام بها، وكان يوم وصوله لها من نوادر الزمان في الفرح والجود، والابتهاج الذي ما له من حدود، وانصبت عليه الناس انصباب الغيث الصيب، وتعلقوا بذيله المبارك الطيب، وقصدوا بابه بالتهاني، وقابلهم بغاية الأمن والأماني.

ولما اشتد سلكه، وتكامل ملكه، أتاه أمر الله لميقاته، على حين ما كان متأهبا لمماته، ومستشعرا انقضاء حياته، فلبى داعي الله موقنا موحدا، ومتكلا عليه ومعتمدا، فرحا مسرورا بلقاء ربه، مؤملا عفوه وغفرانه من صميم قلبه، رحمه [22] الله رحمة تلحقه بالأمراء الصالحين، وتؤهله لنيل مراتب الأبرار* المفلحين.

وذلك أنه لما وصل لمراكش من هذه السفرة الفيلالية لم يجلس بها إلا أقل من القليل وطمحت نفسه للتوجه لفاس، قاصدا قطع عرق الفساد في طريقه من بعض عصاة القبائل والأنفاس، فحشد (83) الحشود، ووفر الجنود، واستكثر من الخيل العتاق، واستعد الاستعداد الذي لا يطاق، ثم نهض من مراكش بجحفل (84) ملأ الفضاء، ونسف البحار والاضّاء، في منتصف قعدة الحرام عام أحد عشر وثلاثمائة وألف، ولما قرب من بلاد تادلا اتصل به مرض موته وتزايد به، إلى أن وصل لدار ولد زيدوح فعجز السلطان عن النهوض، وأقام هنالك ينتظر الفرج مما ألم به من السقم المبغوض، ولما كانت ليلة الخميس الثالث من الحجة الحرام من العام المذكور قرب نصف الليل مات رحمه الله وقدسه، عن واحد وعشرين عاما لمملكته وأربعة أشهر وخمسة عشر يوما.

وقد كان قدم أمامه قبل خروجه من مراكش ولده الأبر، الطالع السعيد الأغر، مولانا عبد العزيز، ووجهه لثغر الرباط في زي فخيم، وشأن عظيم، وأبهة ملوكية، وهمة عالية هاشمية، لتجتمع عليه جيوش الغرب هنالك برمتها، وقبائله الدانية والقاصية بأجمعها، ويقدم بتلك الجموع على أبيه في الموضع الذي يعينه له، وبمجرد ما وصل للرباط طرقه خبر الموت، ووقوع الفوت، وجاءته المكاتيب من [23] وزراء أبيه،* بالمكث إلى أن يقدموا عليه بشلو (85) أبيه، فبكى وتضرع، وتحسر وتوجع، وصبر الصبر الجميل، علما بأن البقاء لله الواحد الجليل.

(83) حشد يحشد ويحشد : جمع، «ق».
(84) الجحفل كجعفر الجيش الكثير، والرجل العظيم، والسيد الكريم، «ق».
(85) الشلو بالكسر : العضو والجسد من كل شيء «ق».

ولما مات السلطان في الوقت المذكور، لم يكن علم به عند ذلك الجمهور، المجتمع من سائر المعمور، وأول من اكتسب الخبر في الحين الحاجب الأجل، الفقيه الأديب الأحفل، الرجل المقدام، والشهم الأبي الضرغام (86) مبيد الظالمين، وقاطع دابر القوم المفسدين، صاحب السياسة الحميدة، والأثار الكثيرة العديدة، من ختمت به الوزارة، وكلت عن بلوغ وصفه العبارة، السيد أحمد بن الفقيه الحاجب الوزير السيد موسى بن أحمد، رحم الله الجميع، وجعلنا وإياهم في حماية النبي الشفيع، فقام إذ ذاك أحسن قيام، ومشى على نهج الخدام النصحاء الأعلام، وكتم الأمر عن الخاص والعام، وأصبح راحلا من الغد بالمحلة مظهرا أن الرحيل عن أمر السلطان، لخوفه من شيوع الخبر وهم في بحبوحة (87) تلك الأوطان، الخارجة عن الاستقامة من قديم الأزمان، وساروا النهار كله ليقطعوا مسافة الخوف إلى محل الأمان، وفي العشية من نفس ذلك اليوم نزلوا في محل يسمى «البروج»، فأمنوا فيه على أنفسهم من أهل تادلة الذين تناهوا في الصعود والعروج، إلى أن مالت بهم السروج.

ولما استقرت المحلة في محلها، وتكاملت باجتماع أهلها، أظهر الحاجب المذكور موت السلطان، بعد أن*أحضرالوزراء وأرباب الدولة والعمال والعسكر [24] وسائر الأعيان، وعقد البيعة لنجله مولانا عبد العزيز، وأمر بضرب البارود وإخراج المدافع، حتى أصطكت الأذان من كل قريب وشاسع، فأرهب بذلك الأعداء، ورماهم بعضال الداء، وجمع الكلمة بعد افتراقها، وقوي عضد المحلة ورجالها، وفكها من أوحالها، وأصبح راحلا أيضا من الغد بجثة السلطان على هيئة حسنة، وشارة مستحسنة، ووالى الرحيل ثمانية أيام، وفي اليوم التاسع وصلوا لثغر الرباط، فتلقاهم مولانا عبد العزيز بجيوشه وجميع أهل المدينة، وسلموا عليه وبايعوه وعزوه في أبيه، ثم اشتغلوا بتجهيز الجنازة وأمور الدفن، ودفنوها حذو قبر سيدي محمد بن عبد الله أمير المؤمنين قدس الله أرواحهم، ونعم أشباحهم، وقد سبق في صدر الكتاب الاشارة إلى ذلك، واعدنا ذكره هنا بأزيد وأبسط مما هنالك، والعود أحمد، ومما قبله أوسع وأفيد.

---

(86) الضرغم كجعفر وجريال وجريالة الأسد، «ق».

(87) بُحبُوحة المكان : وسطه، «ق».

وأخبار هذا السلطان الجليل رحمه الله كثيرة، ومناقبه جلية شهيرة، ولو تتبعتها لطال الحال، وكل لسان القلم وحال، والمقصود هو التعرض لها باختصار، ليعلم الواقف عليه أن زمانا مضى به لا يعود، ولا تماثل سعوده سعود، ومن اراد استيفاءها على الترتيب في التقديم والتأخير فعليه بالاستقصا فإنه شفى وكفى، [25] وكال ووفى، وها أنت سمعت ما تلوناه عليك من أخباره،*واهتباله برعيته واعتباره، ووصله لكثير من بلاده وأقطاره، ونيله لملك جديد بما فتحه من البلاد الشاسعة، والأقطار المتعددة الواسعة، التي لم تنكح لأبيه ولا لجده، فعند أواخر عمره وصلته البيعة من السودان، ورد عليه بها بعض أهل بلاد تينبكتوا، واجتمع بهم بمراكش ورأوه ورآهم، وكلموه وكلمهم، ورأيناه نحن كذلك، وقبل ذلك بايعه أهل قطر توات ، ودخلوا في حزبه بعد أن كانوا فوضى، وولى عليهم العمال والقضاة، وتراسل مع كثير من أعيانهم وخاطبهم وخاطبوه ودعوا له على منابرهم، ولم يبق — فيما علمت — موضع لم يصله إلا بلاد درعة، وقد كان في نيته أن يصلها فعاقه عنها الأمر المحتوم، والفرض المعلوم، وأما بلاد دكالة والشاوية وتادلة ودمنات وهنتيفة وبلاد زمور ومدينة مكناس فإنها عنده محل المرور، في كل ورود وصدور، وكانت أطوع من يده لفمه، فلذلك لم نذكرها فيما تقدم من أخبار البلاد التي فتحها، والأصقاع التي دوخها، حيث وصوله لها معلوم بالضرورة ولا غرابة فيها.

• وقد تأثل ملكه بكثرة الأموال والذخائر، والزروع والضروع والبارود والعدة والقرطاس وغير ذلك مما يطول بيانه، وكانت أبوابه غاصة — دائما — بالخلق.

وكان له عدد كبير من الوزراء والكتاب، وها أنا اذكر بعضهم لتعلم أنهم [26] كانوا زينا لذلك الباب، وفخرا كامل النصاب،*فمن وزرائه أبو عمران الفقيه الأجل السيد موسى بن أحمد المتقدم الذكر في صدر هذا الكتاب، وشهرته وضخامة منصبه غنية عن التعريف به، مات رحمه الله في الثالث عشر من المحرم الحرام عام ستة وتسعين ومائتين وألف، ودفن بداخل قبة مولانا علي الشريف بمراكش، وشيع السلطان جنازته، وحضر على الصلاة عليه ودفنه، واستقل ولده الفقيه السيد أحمد بوصف الحجابة دون الوزارة، والوزارة كانت أعظم في ذلك الوقت من جميع الخطط، فلا كلام لغير صاحبها.

ومن وزرائه بعد موت أبي عمران الفقيه الأجل السيد محمد بن الوزير الفقيه السيد العربي بن الوزير السيد المختار الجامعي، وبقي على وزارته مرفوع القدر، مسموع النهي والأمر، إلى أن اتصل به مرض صده عنها عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، ولا زال حيا ومصابا بذلك الداء الآن، وهو أواخر رمضان عام اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف، فأقام له السلطان من ينوب عنه في إدارة أمر الوزارة إلى أن يصح من مرضه، وهو الفقيه الكاتب العدل السيد محمد الصنهاجي الفاسي، ثم مات الصنهاجي رحمه الله بفاس، وقام مقامه في النيابة الفقيه السيد الحاج المعطي بن العربي بن المختار الجامعي أخو المنوب عنه وهو في صورة وزير، وبقي على وزارته إلى أن مات السلطان، وسياتي خبر عزله إن شاء الله في دولة مولانا [27] *عبد العزيز.

ومن وزراء السلطان على الشكايات الفقيه الوزير المسن السيد محمد الصفار التطواني، وكان وزيرا عند أبيه وجده كذلك، مات في حياة السلطان ودفن في قبة سيدي يوسف بن علي قبالة باب أغمات من مراكش، رحمه الله.

ومن الوزراء على الشكايات أيضا بعد الصفار الفقيه الوزير السيد علي المسفيوي، وبقي على خطته إلى أن مات السلطان وأقره مولانا عبد العزيز على مكانته، وقد مات في دولته كما سيأتي، وهو من أشياخ السلطان على ما قيل.

وكان قائد مشوره قائد مشور أبيه القائد الجيلاني بن حمو البخاري، ثم عزله وولاه على ثغر طنجة، وجعل في محله على المشور القائد محمد بن يعيش البخاري، وحيث مات جعل السلطان في محله القائد ادريس ابن العلام البخاري، وبقي إلى أن مات السلطان وأقره مولانا عبد العزيز على خطته حسبما يأتي.

وكان على الحجابة الفقيه السيد أحمد بن موسى بن أحمد بحسب النيابة عن أبيه، ولما مات أبوه استقل بها إلى أن مات السلطان وانتقل للوزارة عند نجله مولانا عبد العزيز.

وكان كبير عسكره — أولا — كبير عسكر أبيه، وهو الفقيه الأديب السيد عبد الله ابن أحمد، أخو الفقيه الوزير أبي عمران السيد موسى بن أحمد، ثم أخره وولاه على مدينة فاس بعد عزل عاملهم السراج، وجعل في محله كبيرا على العسكر : الفقيه*السيد محمد بن العربي الجامعي المتقدم الذكر، ولما انتقل للوزارة [28]

بعد موت أبي عمران جُعل أخوه السيد محمد الصغير أميرا على العسكر، وبقي إلى أن مات السلطان ونكبه مولانا عبد العزيز كما يأتي، وأولاد الجامعي هؤلاء هم أخوال للسلطان، وقد تأثل مجدهم، وارتفع في أيامه قدرهم، إلى أن أخنت عليهم الأيام بعده وردت منهم ما أعطتهم، وهكذا حال الدنيا، نسأل الله السلامة، آمين.

ومن وزرائه على البحر والكلام مع الأجناس الفقيه السيد فضول بن محمد غريط، وبقي إلى أن مات السلطان واقره ـــ أولا ـــ مولانا عبد العزيز، ثم كان من أمره ما نذكره في محله إن شاء الله.

ومن كبار أمناء حضرته أمين الأمناء السيد محمد التازي الرباطي، ولما مات جعل في محله أخوه السيد عبد السلام، وبقي إلى أن مات السلطان وأقره على خطته مولانا عبد العزيز، ثم أعفي بعد أن طلب الاعفاء كما يأتي.

ومنهم الأمين النقاد الحاج محمد الزبدي الرباطي، ولما مات جعل ولده السيد العربي في محله، وبقي إلى أن مات السلطان ونكبه مولانا عبد العزيز، إلى غير ذلك مما يطول جلبه.

وأما الكتاب فمنهم الفقيه العالم العلامة السيد عبد القادر بن عبد الرحمن الفاسي.

والفقيه السيد محمد بن عبد الله الرباطي.

والفقيه السيد الهادي الفاسي.

[29] والفقيه* السيد محمد بن سليمان الفاسي أصلا المراكشي دارا وموتا.

والفقيه السيد محمد بن عبد السلام أجبيلوا الفاسي.

والفقيه السيد أحمد الصويري.

والفقيه الأديب الشاعر الناثر السيد ادريس بن ادريس الفاسي.

والفقيه السيد محمد عمور الفاسي.

والفقيه العالم الأجل الأديب السيد عبد الرحمن الشرفي الفاسي، وقد كان وزيرا عند مولانا عثمان نائب السلطان بمراكش.

والفقيه السيد محمد بن داني الكبير التازي.

والفقيه السيد أحمد الكردودي.
والفقيه السيد الهاشمي أجانا.
وكل هؤلاء كانوا كتابا لأبيه، ومن كتابه الفقيه الصنهاجي المتقدم الذكر.
والفقيه مولاي أحمد البلغيثي الفاسي.
ثم ولده مولاي الطاهر.
ومنهم السيد محمد الكردودي.
وأخوه السيد علال.
والفقيه السيد الطاهر بن جلون المراكشي.
والفقيه الأديب اللبيب الشاعر الناثر السيد محمد بن داني الصغير.
والفقيه الأديب الشاعر الناثر حريري وقته السيد عبد الله الكنسوسي.
والفقيه السيد محمد البوعصامي.
والفقيه السيد محمد بن عزوز الرباطي.
والفقيه الأديب السيد أحمد بن فقيرة المكناسي.
والفقيه السيد الغالي السنتيسي المكناسي.
والفقيه المسن قاضي الحضرة السيد عبد الواحد ابن المواز الفاسي.
وولده الشاعر الناثر الفقيه السيد أحمد بن عبد الواحد ابن المواز.
والفقيه الحيي السيد عبد الكريم ابن سليمان الفاسي.
[30] والفقيه* الشاعر السيد التهامي إبن المزوار المكناسي.
والفقيه السيد محمد بن الفاضل السرغيني المراكشي.
والفقيه الشاعر السيد محمد المصدار المكناسي.

وكاتب الحروف العبد المذنب الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين الخزرجي المكناسي أصلا، والمراكشي دارا ومنشأ وولادة.

وإخوته السيد المهدي والسيد الحسين والسيد عبد السلام والسيد ادريس.

وإدريس هذا كان وزيرا من بعد والدنا في حياة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام أزيد من الأربعة أعوام، ولما مات سيدي محمد رحمه الله أقره على مكانته مولانا الحسن، ثم صارت أنواره تنطفى، وأزهاره تذبل وتختفي، إلى أن لم يبق اسم له ولا مسمى، فضاق ذرعه وتوجه للمشرق، واستوطن المدينة المشرفة

إلى أن مات بها ودفن في البقيع رحمه الله، وخلف بالمدينة أولادا ودارا، وسيأتي في الباب الثامن الكلام على والدنا وبعض من أحوالنا أن شاء الله.

ومن كتاب السلطان الفقيه الأود الأجل السيد عباس بن الفقيه الكاتب السيد عبد القادر بن عبد الرحمن الفاسي حفظه الله، وهو من نسل الولي الصالح سيدي عبد القادر الفاسي دفين حومة القلقليين من فاس، وسيأتي ذكره ان شاء الله.

ومن الكتاب الفقيه السيد الحسن الودغيري الفاسي.

[31] والفقيه السيد ادريس الوكيلي الصفريوي ثم الفاسي. وغيرهم ممن يطول*جلبهم، ويعيي تعدادهم، وكل هؤلاء الكتاب كانوا نجوما زواهر، وبدورا ظواهر، دلت حضرتهم وكثرتهم على ضخامة ملك السلطان وفخامته، وعلو همته وعنايته، وأن حضرته كانت شبيهة بحضرة المعتمد بن عباد ملك الأندلس في الاحتواء على الأدباء الأعلام، الراجحين الأحلام (88) أئمة الأقلام، ومصابيح الظلام، وفرسان الكلام، وكانت أيامه لهم أعيادا ومواسم، وروضا نضيرا (89) باسم.

وقد اخنى (90) الدهر اليوم على تلك الخطة الشريفة، وغازلها البوس والكآبة المخيفة، فتبا لدهر ما رعي حقوقها، ولا أبقي شروقها، فحضرة الكتاب حضرة البهاء والنور، والسمت المقبول المشكور، والأدب المحبوب المبرور، وخطتهم لا خطة فوقها بعد الوزارة، فهم لسان الدولة ويمينها، وبهم تتم نخوتها وشهرتها وتفخيمها، وكان الملوك يباهون بالكتاب في الزمن الأول، ويبالغون في إكرامهم وإعظامهم، وترعى لهم الحقوق عند سائر الدول، ولم يزالوا في كل ملة منظورا إليهم بعين الوقار، والاجلال والاكبار، وحالهم اليوم حال اليتامى، والنسوان الأيامى، جبر الله صدعهم، وتلافى أمرهم، بمنه آمين، وسيأتي خبرهم بأبسط من هذا إن شاء الله تعالى.

---

(88) الحلم بالكسر الأناة والعقل، جمعه أحلام وحلوم، «ق».

(89) النضرة النعمة والعيش والغنى والحسن، نضر الشجر والوجه واللون، كنصر وكرم وفرح فهو ناضر ونضير، «ق».

(90) أخنى عليهم أهلكهم، والدهر عليه طال، «ق».

وللسلطان جملة كبيرة من الأولاد وكلهم نجوم تتلألأ أنوارها، ورياض تتفتق
[32] أزهارها، وفيهم النجباء والعلماء،*والأدباء والحلماء، ولنذكر بعض ما بلغنا من أسمائهم، وعرفناه من أعيانهم، فنقول منهم واسطة عقدهم، وتميمة سعدهم، أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز نصره الله، ومولانا حفيد النائب عن السلطان الآن بمراكش، ومولاي عبد الرحمن المدعو مولاي الكبير، ومولاي عمر، ومولاي إسماعيل، ومولاي الحسن، ومولاي إدريس، ومولاي أحمد، وسمي سيدي، ومولاي بوبكر، ومولاي التهامي، وسيدي محمد المهدي، ومولاي الزين، ومولاي محمد (بفتح الميم الأولى)، ومولاي الطاهر، ومولاي علي، ومولاي عبد الله، ومولاي الطيب، ومولاي يوسف، ومولاي المامون، ومولاي جعفر، ومولاي عثمان، ومولاي عرفة، ومولاي الأمين، ومولاي موسى، ومولاي المصطفى، ومولاي بلغيث، وغيرهم ممن لم تبلغنا أسماؤهم، حفظ الله سربهم، ووفر جمعهم، وكثر نفعهم.

وللسلطان بناءات ابتكرها، وإشادات اخترعها وأظهرها، دلت على عظمة شأنه، ووضوح برهانه

همم الملــــوك إذا أرادوا ذكرهـــــا ... من بعدهـــم فبـــألسن البنيـــــان
إن البنــــاء إذا تعاظـــم شأنـــه ... أضحــــــى يدل على عظيم الشأن

وتتبعها والتعرض لبيانها ومواضعها بمراكش وفاس ومكناس والثغور وسائر بلاد المغرب يفضي إلى مجلدات، واستغراق جملة كبيرة من الأوقات، وفي الاشارة كفاية، تغني في كونها آية.

[33] وكان يحب الصالحين ويعتقدهم، وكان زوارا لهم ونحاشا*عنهم، فنال من بركاتهم ما لا يوصف من رفعة الشأن وعلو الجاه، وبلوغ الغاية القصوى من مناه، وأحسن الله عاقبته، وحفظ عليه ملكه وعافيته، فلم ير فيه شيئا لا يرضاه، إلى أن لقي الله.

وأما أهل الخطط الذين كانوا ملازمين لبابه فكثيرون وهم أصحاب الفراش، وأصحاب الأتاي، وأصحاب الماء، وأصحاب الوضوء، وأرباب السجادة، وأهل التوقيت، وأصحاب المزارك، وأصحاب المظل، وأصحاب الراوية، وأصحاب المكاحل، وأرباب الأروي، والأمشاورية، والأفرادة، وأصحاب المحفة، والأفرايجية، والمسخرون، وأرباب السكين، والشويردات، وغير ذلك مما يطول تتبعه وتفاصيله.

وكانت حضرته الشريفة معمورة بالمحاسن، وانهار من ماء غير آسن، وكان له أعمام فخام كبراء، وإخوة عظام نبلاء، وقد اقفرت اليوم من كثيرهم الدار، وذهبوا ذهاب الليل والنهار، رحم الله تلك النجوم الزواهر، والبدور السوافر، وفتح على هذه الدولة العظيمة بسعود غاشية، ورجال أحلامهم فاشية، وقلوبهم على الاسلام والمسلمين صافية.

وبالجملة فهذا السلطان ختمت به دواوين سلاطين المغرب، وانتهى به الملك الجليل المطرب.

حلـــف الزمـــان ليـــأتين بمثلـــه حنـثت يمينـك يا زمـان فكفـــر

[34] ولنا مرثية وتعزية في هذا السلطان الجليل تركتها بمراكش* من جملة كتبي، وإن يسر الله وظفرت بها فإني نلحقها بمحلها من هذا الكتاب إن شاء الله.

ومما رئي في أيامه من العجائب أن جاءه رجل من قبيلة آيت يمور المعروفة من ناحية غروب مراكش، بينها وبين المدينة مسيرة نحو أربع ساعات ومعه زوجته، وهما حاملان ولدين لهما إثنين ذكرين ملتصقين من أسفل فقرات الظهر إلى عجب الذنب، منفصلين فيما سوى ذلك، ولهما مخرج واحد من جهة الدبر، وأما القبل فلكل منهما آلته تامة الخلقة، ولكل منهما يدان ورجلان وعينان وفم وأنف وأذنان على نوع خلقة الانسان، ولهما صورتان جميلتان، ويتصرفان بجميع جوارحهما، ولهما عقل وفهم، ويتكلمان أيضا، وبحث في كيفية فصلهما ولم تمكن لاتصالهما من جهة المخرج في العظم واللحم وقضاء حاجة الانسان، فأعطاهما، وأعطاهما أيضا سائر من وصلا إليه، وقد رأيناهما نحن كذلك، ورآهما غالب أهل مراكش أوكلهم حتى النساء في الديار، فسبحان الخالق القادر على كل شيء، ثم رأيناهما بعد موت السلطان قدسه الله بكثير فالفيناهما مراهقين، ولم يبلغنا إلى الآن موتهما، بل سألت عنهما بعض من يعرفهما فأخبرني أنهما لا زالا حيين في قبيلتهما، والناس يعطونهما ويحسنون إليهما.

والشيء بالشيء يذكر، وقفت في تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي رحمه الله أن في ثاني عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة أيام المطيع لله أبي القاسم الفضل بن المقتدر العباسي، بعث بعض بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة ابن

حمدان رجلين ملتصقين عمرهما خمس وعشرون سنة، والالتصاق في الجنب، ولهما بطنان وسرتان ومعدتان، ويختلف أوقات جوعهما وعطشهما وبولهما، ولكل واحد كفان وذراعان ويدان وفخذان وساقان وإحليلان، وكان أحدهما يميل إلى النساء، والاخر يميل إلى المرد، ومات أحدهما وبقي أياما وأخوه حي، فانتن وجمع ناصر الدولة الأطباء على أن يقدروا على فصل الميت من الحي فلم يقدروا، ثم مرض الحي من رائحة الميت ومات، انتهى بحروفه.

ورأيت في ترجمة الناصر لدين الله أحمد أبي العباس بن المستضئ بأمر الله من التاريخ المذكور، أن في سنة إحدى وستمائة، ولدت إمرأة بقطيعاء ولدا برأسين ويدين وأربعة أرجل ولم يعش، انتهى.

وكنت وقفت قديما في باب الوضوء من حاشية الشيخ يوسف الصفتي على شرح العشماوية لابن تركي أن الامام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ رأى في بلاد اليمن إمرأة أسفلها متحد وأعلاها متعدد، ولها فرج واحد، ثم أنه غاب سنين ورجع فقيل له أحسن الله عزاءك في أحد الجسمين قد مات فربط بخيط وثيق فذبل وقطع.

وفي أيام هذا السلطان دخل الفيل للمغرب ورأيناه بمكناس وفاس، ثم مات عام احد عشر وثلاثمائة وألف قبيل موت السلطان.

ولنمسك العنان عن أخباره الطويلة الذيل، الوفية الكيل، ولنصرف الوجهة إلى دولة نجله أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز نصره الله نصرا مبينا، وفتح له فتحا مكينا، مستعينا بمن لا يزال كافيا معينا.

الباب الثاني

في دولة أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز ابن أمير المؤمنين مولانا الحسن

لما عقدوا البيعة لأمير المؤمنين مولانا عبد العزيز بتادلة حين موت أبيه، قام بتدبير المملكة والقيام بشؤون المحلة الحاجب الأصلح، الناصح الأفلح، السيد أحمد بن موسى بن أحمد، على حال لم يُظهر فيه شيئا من التقدم، ولا استبد بأمر من الأمور خوفا مما يعقب العجلة من التندم، بل جعل نفسه من جملة وزراء الدولة وأربابها، وأتى البيوت من أبوابها، وكان لا يبدي شيئا إلا على سبيل النظر فيه والأعلام، لا على سبيل التنفيذ والالزام، فتم له بذلك المقصود، ونال ما شاء من السعود، والحظ الوافر من الدهاء والعقل والرأي المحمود، حتى استمال القلوب ورمقته العيون، وأكبرته الظنون، وكل ذلك فعله فرارا من افتراق الكلمة، واستئصال تلك الأمة المسلمة.

[35] ولما وصلوا للرباط سالمين، ومن آفات*الزمان آمنين، ألقى رسن الملك لربه، وتقوى عضده بقربه، وصار لا يفارقه لتوقف الأمر عليه، وداعية الحاجة إليه، فسرى لأرباب الدولة عند ذلك بعض ما يسري بين الكبراء، والأمراء والوزراء، وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون، وعلموا عقم ما كانوا يستنتجون، وحصلت لهم النفرة والأنفة، وأظهر كل واحد ترفعه وصلفه [1]، ولا سيما أولاد الجامعي لأنهم وجوه الدولة وعيونها، وبيدهم أمورها وشؤونها، وأصبح الحال لهم بعكس ذلك، فانبهمت عنهم المسالك، وبقوا حيارى لا يدرون ما يفعلون، ولا ما يقدمون ولا ما يؤخرون، ولم تزل الضعائن تكثر وتسرى، والقلوب تمزقها الأخطار وتفرى، إلى أن ظهر لكل فريق أن يتربص بصاحبه الدوائر، ويتحين له حلول الزمن الجائر، ولكن الحاجب كان سعده

(1) الصلف : مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا، وهو صلف ككتف، «ق».

أقوى، والسلطان له أميل وأهوى، فحاز بذلك النصيب الأوفى، والقدر الوافر الأضفى، إلا أنه كان يتأنى في الظهور، ويتستر في كثير من الأمور، لتعذر الوقت وتباين الأحوال، وعدم تبين مطابقة الأفعال للأقوال، فارجأ الأمر وصار يسدد ويصانع، ويقوى أزره باستمالة القلوب ويقارب ويدافع، واتخذ الجواسيس للاطلاع على ما يحاوله أهل ذلك الفريق، فأتته أخبارهم وأسرارهم وما هم عليه من كل وجه ومن كل طريق، وكان في النباهة والتيقظ داهية، وفي قوة الحزم والعرفان واعية، فتم له ما أراد في اولئك الناس بعد حين، وحان عليهم يوم ما [36] ظنوه يحين، هذا وهم في غفلتهم ساهون، وعما يراد بهم* لاهون، لا تكالهم على ما مضى من رفعة أقدارهم، وشروق أنوارهم، وكونهم أخوالا للسلطان رحمه الله وقدسه، وسقى ثراه بوابل الألطاف وطيبه، فركنوا إلى الأمن والدعة، وهم منطوون على الايقاع بالحاجب ومن معه، وبثوا ذلك فيمن لم يراقب فيهم إلا ولا ذمة، ولا قرت فيهم أياديهم الهطالة ولا نعمة، فنقلوه عنهم برمته، وطرقوا به اذن الحاجب في أبوابه وسدته، ونقصوا فيه وزادوا، وبدلوا وغيروا وهدموا وأشادوا، وتجاوزوا ذلك إلى أن نسبوهم إلى الطعن في جلالة الملك، وعمارتهم فيه سوق التهاون والازدراء والضحك، وقصدهم الاحتيال عليه عند إمكان الفرصة، لتزول عنهم تلك الغصة، والله اعلم بصحة ذلك، وبما هو الحق هنالك، وحيث لم يمكن لكلا الجانبين مد اليد في صاحبه، واشاعة مثالبه، وقبضه من حنجرته بمخالبه، انتقلوا إلى المصانعة، فرارا من المسارعة للمقارعة، وركوب متن المنازعة، قبل تبين أحوال الممانعة أو المطاوعة، ونوى الحاجب الايقاع بهم بمكناس، ونوى الأخرون الايقاع به بفاس، فطووا على البت لبعضهم بعضا، وصيروه عليهم فرضا.

ثم أخذ السلطان في أسباب النهوض من الرباط قاصدا حضرة فاس أو مكناس، والناس لا يدرون ما هي عاقبة أولئك الأكياس، وما يظهر الليل [37] والنهار بينهم من البأس، فنهضوا من الرباط والقلوب* بالبغضاء مشحونة، وفي أغراض أصحابها مشغولة ومرهونة، ولما وصلوا لبني عمار أشير على السلطان بالتوجه من هنالك لزيارة الولي الأشهر، الشهم الهمام الغضنفر، مولانا إدريس الأكبر، على عادة أسلافه في التوجه لها من ذلك المكان، عند وصولهم لتلك الأوطان، وهو أمر دبر بليل، وشيء نادى على أولاد الجامعي بالهلك والويل،

فنفعت تلك الاشارة، وتوجه السلطان للزيارة، ولما علم به أهل مكناس وباشاهم، تعين عليهم الوصول إليه قبل أن يغشاهم، لقرب مكناس من مقام ذلك القطب الوحيد، والولي الجلي الشهيد، فخرجوا برمتهم، وجميع أمتهم، وسلموا على السلطان، وبذلوا له الطاعة جهد الامكان، وسألوه الدخول لمدينتهم، وتطارحوا عليه في إسعاف طلبتهم، وإجابة مسألتهم، فأجابهم لما طلبوا، وأسعفهم فيما فيه رغبوا، بعد أن أشار مريد فاس، بعدم الاسعاف حيث الحال يقتضي تقديم فاس على مكناس، فلم يسمع له كلام، ولم يستلذ بعد بمنام، وخشعت نفسه، وتحير رأسه، وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخرى، والهواجس تتوارد عليه وتترى، فدخل السلطان لمكناس، واحتل به على رغم أنف أبي ذر، ومن عصى وبر، وثابت للحاجب نفسه، وراجعه أنسه، وعلم أن الحيلة تمت له على عدوه، وأنه لا يكثرت به الآن على قربه من المملكة ودنوه، [38] وقد بلغنا* أن الحاجب هو المشير على الباشا المذكور باقتراح أهل مكناس على السلطان الوصول إلى أرضهم، والدخول إلى مدينتهم، ليتقوى عضده بعبيد البخاري ويتأتى له المراد، فتمم الله له ما أراد، « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما له وما لهم من دونه من وال »، سبحانه هو الكبير المتعال.

ثم إن الحاجب تصدى لأولئك القوم، وأقام الحجة عليهم فيما شاع عنهم في جانب السلطان، من كونهم نقضوا عهده وخرجوا من ربقة الأمان، فأمر السلطان بعزلهم ولزومهم لديارهم، ثم ولى الوزارة للحاجب، وولى إمارة العسكر لأخي الحاجب السيد سعيد بن موسى، وولى الحجابة للسيد ادريس إبن موسى أخي الحاجب أيضا، وأقر القائد إدريس بن العلام البخاري على قيادة المشور، وأقر الفقيه الوزير السيد علي المسفيوي على مكانته وهي أمور الشكايات والمظالم، وقد انحط عن درجته وصار الوزير واسطة بينه وبين السلطان، ولا يرى السلطان هو إلا في النادر، وإذا رآه فلا يزيد شيئا على السلام عليه، وبقي كذلك إلى أن مات بمراكش، ودفن بمقام سيدي أبي اسحاق بسوق الدقيق هنالك، فبقي ولده الفقيه الكاتب السيد محمد يخوض في أمور الشكايات نيابة عن الوزير، ولما مات الوزير عزل عن ذلك المحل [39] واعطي لغيره كما سيأتي، واقر السلطان أيضا وزير* البحر على مكانته، وعن قليل انطفأ ضوؤه ورجعت مكانته للوزير، واقر الأمين السيد عبد السلام

التازي الرباطي على مكانته وكان تحت اشارة الوزير، وله عناية بالاسلام، وفيه مصلحة للأيام، ولما مات الوزير طلب الاعفاء وأعفى، ولا زال حيا إلى الآن.

وغاية الأمر ومنتهاه أن الوزير احتوى على خطط جيمع الوزراء وكبراء الدولة، ولم يبق لأحد كلام معه، ولا يمضي أمر من الأمور إلا عن إذنه ومشورته، وباشر الأمور مباشرة الأكفاء، وأنزلها في محلها وساعدته الأقدار، وأتاه بكل ما يحب الليل والنهار، ومضت له في وزارته أيام ما تيسر مثلها لغيره، فكانت غرة في جبين الدهر، وزينا لأهل ذلك العصر، وانفرد بالنقض والإبرام، وترفع عن أن يكون له الكفء في أولئك الأعلام، وستسمع من أخباره، ويتلى عليك من آثاره، ما تعلم به قدره الرفيع، وسعده المنيع.

ولما مضى لعزل أولاد الجامعي نحو الثلاثة أيام ظهر للسلطان أن يقبض عليهم ويسجنهم، فقبضوا في ديارهم على حالة تنفطر لها الأكباد، وتشيب لفجعتها الأولاد، وأودعوا سجن مكناس، ثم نقلوا بعد أيام قليلة للسجن بثغر تطوان، فمات به الحاج المعطي رحمه الله وغفر له، وبقي أخوه السيد محمد [40] الصغير مسجونا إلى الآن* وحتى الآن يعالج الحسرات، ويتجرع غصص العثرات، بعد النخوة الشماء، والمكانة القعساء، والثروة الكثيرة، والكلمة المسموعة الشهيرة، والعز الشامخ، والجد الباذخ، وهكذا حال الدنيا لا تبقى على حال، ولا تكاد تسلم من الأهوال والأوحال، نسأل الله السلامة والعافية آمين.

وقبض معهم أيضا الأمين السيد العربي الزبدي الرباطي لكونه صهرا لهم، وكان من لفهم وشيعتهم، ونقل لسجن اسفي، وبقي به مدة طويلة إلى أن تشفع فيه الشيخ الكبير، والغوث الشهير سيدي ماء الغينين رضي الله عنه، فقبلت شفاعته وسرح بعد وفاة الوزير، وهو الآن بفاس مقتصرا على نفسه، ورأسه ملتوي تحت طي إبطه.

ثم إن السلطان انتقل من مكناس إلى فاس بعد القبض على أولئك القوم بقريب، وقعد على كرسي مملكته، وسرير سلطنته، على اقتبال سنه، وفتوة شبابه، وجدة عمره، وقام الوزير بواجب خدمته، وأعباء خلافته، ونهض بأثقالها، وخلصها من أوحالها وأهوالها، ووردت على بابه الوفود، واعتبرته

العساكر والجنود، وسار صيته مسيرة الصبا، وهب على الجبال والوهاد والربى، ومشى على المنهج الذي بقيت به المملكة جارية على حالها المعهود، وعزها الممدود، ونفذت الكلمة في جميع أقطار البلاد، وما مال أحد عن الطاعة ولا حاد، إلا ما كان من قبيلة الرحامنة بحوز مراكش، ولكنه رجع عن* قريب، [41] واعقبه النصر الغريب، والظفر العجيب.

ولنتكلم على ذلك باختصار فنقول لما مات السلطان مولانا الحسن رحمه الله، وبويع نجله مولانا عبد العزيز وذهب لفاس، قامت قبيلة مسفيوة على عاملها، وكسرت سوق الثلاثاء المعتمر في وسط أحيائها ومداشرها، فهرب العامل لمراكش واستقر بها خوفا على نفسه من افتراسها له بأنيابها وأظفارها، بعد أن كان الناس يظنونه قادرا عليها، ومفوقا سهام الحتوف إليها، لما كان يظهر عليه من الجرءة عليها، وشدة بطشه بها، فإذا به لم يزد شيئا على الهروب، وسوق الحتوف لأهل مراكش والكروب، فوقعته هذه هي التي فتحت أعين الصعاليك لما كان، ولو صبر ودافع لربح الذكر الجميل وحاز خاطر السلطان، وأحواله في التهتكات لا تخفى، ولولا الأخبار التي ساقته لما استحق أن يذكر، ويعرج على شأنه وينشر.

وبعد ذلك بقريب قام الرحامنة وكسروا سوق الأحد برأس العين من بلادهم، وخرجوا عن الطاعة وتتابع ذلك فيهم، إلى أن عمهم الفساد والطغيان، وقفاهم غالب أهل تلك الأوطان، وقبيلة الرحامنة هذه هي قبيلة كبيرة، وافرة شهيرة، لم يكن بنواحي مراكش أكبر ولا أوفر جموعا منها، وصلاح الحوز منوط بصلاحها، وفساده بفسادها، ثم إنهم لما فعلوا فعلتهم، وحددوا شوكتهم، اجتمعوا على أخيهم مبارك بن سليمان*، وجعلوه كبيرا [42] عليهم لينتظم سلكهم، ويلتئم جمعهم، ويتقوى بأسهم، ومبارك بن سليمان هذا كان معروفا بالشجاعة، ومذكورا بالشهامة والاقدام والبراعة، وكان من عمال السلطان مولانا الحسن على فرقة من إخوانه الرحامنة، ثم عزله السلطان لأمر أوجب ذلك، وولاه في ناحية الأقصابي من بلاد الريف، ثم عزله لفتنة قامت على يده، وولاه على قبائل درعة، ولما مات مولانا الحسن رحمه الله قام من بلاد درعة وجاء يهرول إلى مراكش، فدخل لمحله منها وبقي ينتظر ما يكون، في

كل حركة وسكون، ثم بدا له أن يخرج لقبيلته خوفا على نفسه من المؤاخذة لأجل المجيء من بلاد درعة افتياتا، ولما خرج زاد في اشتعال النيران، وإغراء الجيران، ولم يزل يسدي ويلحم في الخوض إلى أن صار كبيرا على القبيلة، وضرب خباءه في وسطها وأصبح يأمر وينهي، ويقدم ويؤخر، ووردت على بابه الذبائح والعارات، من جل قبائل الحوز يطلبون الأمان خوفا على أنفسهم، من تطاولهم ومضرتهم، ثم اجتمع الرحامنة برمتهم، واستمالوا كل من والاهم للدخول في زمرتهم، والكون في جملتهم، ولما اشتدت وطأتهم، وقرب أن تنهض حجتهم، أشار عليهم كبيرهم بعقد البيعة لأخي السلطان مولاي محمد (بفتح الميم [43] الأولى) فعقدوها، واعلنوها وشهروها، ومولاي محمد بريء من بيعتهم، وبعيد *من فعلتهم، ما اهتز لذلك ولا نهض، ولا حاجة له فيه ولا غرض، فظهر للدولة جعله في حكم الثقاف، خوفا على المملكة من الإتلاف، فكان ذلك وهو مظلوم، وأمره شائع معلوم، وعند الله تجتمع الخصوم.

ثم جاءوا لمدينة مراكش وقاتلوها، وضيقوا بها وحاصروها، ليدخلوا في زمرتهم، وينتظموا في سلك فيئتهم، ثم إن أهل مراكش لما رأوا ذلك، وخافوا أن تنسد عليهم المسالك، قاموا وعمروا الأسوار والأبراج، علما بأن ذلك الداء لابد له من علاج، وأن من مات منهم مات شهيدا، ومن عاش عاش سعيدا، فقاتلوا أولئك القوم قتالا شديدا، وصبروا صبرا كبيرا مديدا، ولما تمرنوا على القتال، وصاروا لا يكترثون بالرجال، ولا بما يلاقونه من كثرة الأهوال، بدالهم في الخروج من المدينة لمصادمة الأبطال، والمقارعة والنزال، ففعلوا وأذاقوهم مرارة الوبال، وجرعوهم من كؤوس الحتوف ما لم يكن لهم بالبال، وكسروهم كسرا شنيعا، واشبعوهم قتلا ذريعا، وجرحا وجيعا، فولوا الأدبار، وأفرجوا عن المدينة رغما على أنوفهم التي شمخت وقعدت على صهوة الاستكبار، وعادوا للقتال مرارا، بقلوب صارمة تتلهب جمارا، وألسنة أواهة تتوعد جهارا، فقابلهم أهل المدينة مقابلة كسرت شوكتهم، وفلت حدتهم، وردوهم على أعقابهم ناكصين، [44] وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، ولما* يئسوا من جهة المدينة، ورأوا أهلها أسدا حل عرينه، رجعوا القهقرى، وانقلبوا إلى وراء، وتبين لهم أمر لم يكونوا يعلمونه، وبدا لهم خلاف ما كانوا يؤملونه، ولما كان يبلغ ذلك الخبر لحضرة السلطان بفاس يقوم أولياء الحضرة له ويقعدون، ويتحسرون ويتوجعون، ويتألمون ولكنهم

كانوا يتجلدون، ويظهرون السياسات العجيبة، والاختراعات الغربية، التي ردت الأمور إلى حدها المحدود، وشأنها المعهود، ما رأى الناس في وجه الدولة خللا، ولا تحدثوا إلا بأنها بلغت في الضخامة والعز غاية وأملا.

ثم أن هذه الأخبار اعجلت الدولة عن مرادها بالغرب، ورأت رتق هذا الفتق قبل أن يتسع خرقه بالكرب، فانهضت عزائمها، وانفقت كرائمها، ونهض السلطان من فاس، نهوض عز ما له من قياس، ودخل لمكناس ومكث فيه ما شاء الله.

ثم نهض منه ومر على بلاد قبيلة زمور، محل الرجال الوافرة، والخيول الكثيرة الطائرة، والأسلحة الزاخرة الباترة، فتلقته بالطاعة والاذعان، والهدايا المنوعة الحسان، على عادة ما كانوا عليه مع السلطان مولانا الحسن رحمه الله، وخرج من بلادهم على الأمن والأمان، وغاية المبرة والاحسان، وهذه القبيلة هي أعتى قبائل الغرب طغيانا، وأكثرها رجالا وفرسانا، وأقواها شوكة وعدوانا، [45] وأشدها تنمرا وأباية* وديوانا، وأحوالهم في ذلك شهيرة، وعوائدهم المؤكدة كثيرة، وكان من عوائد الملوك المرور بهذه القبيلة قصدا، وقدّ أرضها بحوافر خيولهم ونعال جيوشهم قدا، لتنكسر شوكة من عداهم، ممن يبلغ في القساوة مداهم، فجرى أمير المؤمنين على نهج أسلافه في ذلك، وملأ أرضها رجالا وفرسانا غصت منهم المسالك.

ثم دخل السلطان للرباط على عادة الملوك أبهة ونخوة وسلطانا، وجلالة وعزا لا يحتاج برهانا، فمكث ما شاء الله، والمقصود أمام.

ثم نهض في جيوش ضخام، وعساكر وافرة ورجال أعلام، وتبصر لا يحتاج إلى تبصر، وتنمر ما فوقه من تنمر، وحالة تشهد بشدة البأس وقوة الصرامة، وهمة على النصر والظفر علامة، واجتمعت عليه قبائل تلك الأقطار، وأمم هاتيك البوادي والأمصار، وذهب يجر وراءه جيشا جرارا، ومددا مدرارا، ورجالا وافرة كبارا، وأصبحت حضرته كحضرة أبيه في قوة البهاء والنور، والرونق الذي لا يفي بشرحه هذا المسطور، وتلقته تلك القبائل على كثرتها، والأمم البالغة مبلغ التواتر في قوتها، بمزيد السمع والطاعة، والاذعان الذي ما فوقه من طاعة، والهدايا الوافرة، والعطايا الماطرة.

ولم يزل في عز وارتقاء، ونصر قدمه فوق ذروة السماء، إلى أن طلعت

[46] شمسه على الرحامنة في يوم كان عليه وبيلا*، وعلى نكبتهم واستئصال شافتهم (2) دليلا، ولما أظلتهم سحائب الجيوش من كل مكان، وسالت أعناق الجياد من المسارب والمنافذ تجر الأرسان، ورفرفت الرايات بالفتح المبين والاشراق، والظفر المتين في الأفاق، سقط في أيدي الرحامنة وكبيرهم ورأوا أنهم قد ضلوا، وتحققوا أنهم في قبضة الأسار قلوا أو جلّوا، وعاينوا ما لا قبل لهم به من السطوة التي سلموها، والقهرية التي أكبروها وعظموها، وعلموا أنه لا طاقة لهم بمحاولة ذلك الحرب، والمساورة (3) بالطعن والضرب، وسلموا الأمر وانقادوا، وما ضربوا ولا كادوا، واحدقت بهم الجيوش والأبطال، وحالت عليهم الأحوال، وعوملوا بالهوان، ووقعوا في بحر البوار والخسران، وحلت بهم من الحوادث ما لا يصفه لسان، ولا يستقصيه بنان، وقبضت منهم مساجين وأسارى، وتراهم سكارى وما هم بسكارى، وعذبوا العذاب الشديد، ورأوا من المحن فوق الوعيد، وشفت الدولة منهم نفسها، وأودعتهم أصرها وكَلها، وبلغت عقوبتها فيهم حدها، وانتصرت عليهم انتصارا سارت بأخباره الركبان، وتباهت به الأعصار والأمصار والبلدان، وحين بلغوا هذا المبلغ العظيم، وتجرعوا العذاب الأليم، كفت الدولة عنهم يد العدوان، وبذلت لهم بعض الأمان.

[47] وأما كبيرهم فإنه فر هاربا يكبوا لزاوية* معظمة، ومحلة محترمة، بأطراف تادلة المتمردين عن الأحكام واستجار بها، فوجه عليه السلطان وارسلوه، وما راجعوا فيه ولا ثبطوه، ووصل للمحلة في قيده وأسره، وحال تمسكه بعسره، وجعل على جمل وطيف به عليها، ليراه جميع أهلها، ثم جعل في قفص صنع لأجله، ما رأيت كيف وصفي لشكله، فحل به حلول بؤس وانتقام، ونزله نزول عذاب وإيلام، وأصبح نجي هموم وأنكاد، وزفرات مالها أعداد، وتعجب الناس من هذه المثلة (4) التي ما ريء مثلها، ولا سمع شكلها، وكان يحمل على جمل في السفر، ويبقى نصب الأعين ومحلا للعبر، وبقي بسجن مراكش إلى أن مات، واستراح من تلك الأزمات.

---

(2) الشافة الأصل، واستأصل الله شافته أزاله من أصله، «ق».

(3) المساورة المواثبة، ساوره واثبه، سوارا ومساورة، «ق».

(4) مثل به : نكل به، وبابه نصر، والاسم المثلة [illegible]. والمثله بفتح فضم : العقوبة، «ق».

ولا تسئل عما حصل من العز بتيسير هذا المرام، وانجلاء ذلك الظلام، الذي كان باكورة الفتح المبين، والظفر المتين، والسعد المعين، وتوجه مكاتيب السلطان إلى حواضر المغرب بخبر هذا الفتح، الذي ملأ البسيطة بالأمن والاشراق والنجح، وكتبت من انشائي على لسانه ما نصه بعد الافتتاح

وبعد، فإننا ـــ بحول الله القوي القهار، ذي السطوة الغالبة لكل مارد غوي جبار ـــ قد تممنا العمل ولله الحمد في الفيئة الباغية، والفرقة الطاغية في [48] هذه الناحية، قبيلة الرحامنة العاتية، المخذولة ممن لا تخفى عليه خافية، *الذي يمهل الظالم حتى إذا أخذه أخذة رابية، وعامله معاملة وافية، وأوطأنا جيوش الله المنصورة، وجنوده المحشودة المحشورة، جميع بلادهم على امتناعها، وملأناها بهم على امتدادها واتساعها، وأسلنا عليهم الخيول كالسيل الهطال، وأطلقنا عليهم ليوث العرين وصناديد الأبطال، فافترستهم تلك الأسود في الصياصي، وقادت عتاتهم بالنواصي، واستخرجت ذئابهم من الأوكار، والمعاقل الحصينة والأوعار، فأصبحوا في قيد الأسر والهوان يصطرخون، ومن هذا الصنع الذي من به المولى يعجبون ويعتبرون، ويعضون على أناملهم ندامة، ويودون أن لو هلكوا قبل ذلك وقامت عليهم القيامة، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، وتلك سنة الله تعالى في كل من طغى، وتجاوز الحدود وبغى، وما ارعوى عن غيه ولا ابتغى.

ولما اقتضينا منهم من الموظف عليهم ما اقتضينا، واقمنا أودهم كما أملنا ونوينا، خاطبنا كل من كان على شاكلتهم من القبائل، وظاهرهم وقت تلبسهم بتلك الرذائل، والفعل الشنيع الهائل، ووظفنا عليهم ما وظفنا، واثقلنا كاهلهم بمثل ما قدمنا لكم عن اولئك الطغام وقررنا، غير أنا قد فاوتناهم في الفرض لتفاوتهم في الجريمة، والفعال الدنيئة الدميمة، فقبلوا كلهم ذلك الوظيف، [49] وامتثلوا فيه أمرنا الشريف، ورجعوا إلى الله تعالى وأنابوا، واستغفروه جل* وعلا وتابوا، واعترفوا بذنوبهم، وأقروا بما فرط من عيوبهم، ولاذوا بأعتابنا الشريفة خاضعين، وألقوا بها يد الانقياد سامعين وطائعين، فعاملناهم بالإغضاء، وفسحنا لهم في جانب العفو بعد أن ضاق عليهم الفضاء، ولم نعالجهم بالعقوبة، وقد كانت بين أعينهم منصوبة.

ثم لما تقرر بيننا وبينهم ما تقرر، وما تلكأ منهم أحد ولا تضرر، ولم يبق في تلك الناحية كبير عمل، وخاب مسعى أهلها والأمل، نهضنا قاصدين المدينة المراكشية الحمراء، ذات المشاهد البهية الغراء، والبساتين الشهية الخضراء، والنخيل الباسق الأفنان، والبهجة الواضحة البرهان، واليمن يقدمنا، والسعادة تخدمنا، والنصر العزيز يغادينا ويراوحنا، والفتح المبين يناجينا ويساورنا، والبنود والرايات تخفق نشاطا وارتياحا، وتلتاح في سماء المسرة ملاحا، والسلاح زاخر عبابه، وممتدة أطنابه، ورعود المدافع تسبح بحمد مولاها، وتعظمه وهو العظيم الذي لا يتناها، فحللناها يوم تاريخه حلول عز وأمان، ومبرة تامة وإحسان، بعد أن برز لمشاهدة طلعتنا السنية من أهلها خلق كثير، وجم غفير، في أحسن زي وأكمل شارة، وأبهى منظر لم تستوعبه عبارة، وفرحوا بنا فرحا ما عليه من مزيد، وانشرحوا انشراحا شأوه وافر مديد، وانزاحت الأكدار، وانتفت الأهوال والأغيار، وبسط الله تعالى ــ وله الحمد ــ أمنه في النجود والأغوار، وكان ذلك اليوم* عندنا وعندهم عيدا، وموسما [50] عظيما فريدا، افرغ الله فيه أنواره، وأظهر أنصاره، وأضاء شموسه وأقماره.

واعلمناكم لتكونوا مستبصرين بما كان، وتحمدوا الله تعالى في الاسرار والاعلان، على ما جلل به عباده من الأمن والأمان، وتأخذوا حظكم من الفرح والسرور، والانشراح والحبور.

نسئل الله تعالى جلت قدرته، وعظمت منته، أن يؤلف بين قلوب المؤمنين، ويؤمنا في سربنا وسرب المسلمين، ويجعل سعينا في ذاته، ومستوجبا لمرضاته، أنه سميع مجيب، ومن داعيه وسائله قريب، عليه توكلت وإليه أنيب، والسلام.

في 21 رمضان عام 1313، قلت وهو يوم السبت وقد كشف الغيب أنه الثاني والعشرون، انتهى.

وانشأ مولاي الطاهر البلغيثي على لسان السلطان أيضا في القضية ما نصه وبعد فإنا ــ بحول الله مانح المواهب الجزيلة، ومبلغ من اعتصم به قصده ومامولـه ــ، لما فرغنا مما من به سبحانه من قضاء الوطر في قبيلة الرحامنة، وصارت المارة بسبلها مطمئنة منة، صرفنا وجه العناية لتمحيص ما

اقترفه بعض القبائل جوارهم، مما يقرب من فعلهم، فوظفنا على قبيلة زمران وتكانة ومسفيوة ما يناسبهم من المال والخيل والعدة والعسكر، ولم نعمل فيهم حساما حيث كانت جريمتهم بالنسبة لجريمة المذكورين أصغر، لأن الحوز كله كان خاض في الفساد والافساد، ولم يسلم أحد منه من الدخول في زمرة [51] الفساد، ولولا ان الله* تعالى تداركه بألطافه الخفية لا تسع على الراقع خرقه، وعسر رفئه ورتقه.

إلا أن ذلك منهم من خاض فيه خوضا عموميا، ومنهم من خاض فيه خوضا خصوصيا، ولكل فريق منهم عندنا ممن سلك هاتيك المسالك، حكم يخصه لأجل ذلك، فأما الذين خاضوا الخوض الخصوصي فحكمهم حكم الرحامنة في التربية، من توظيف الذعيرة عليهم بالمال والخيل والعدة والمراهين، وغير ذلك مما يستحقون أن يعاملوا به من الأنواع الزجرية، وأما الذين خاضوا الخوض العمومي فحكمهم هو ارتكاب الأمر الوسط، من زجرهم بالذعيرة بالمال والخيل والعدة والعسكر فقط، ومن هذا القبيل هؤلاء القبائل، فإنهم لم يصدر منهم ما يوجب معاملتهم بمثل ما عومل به الأوائل، ولذلك لم يرتكب في جانبهم شطط، لأن خير الأمور الوسط.

ولما تم ذلك بعناية الله طبق القصد والمراد، وعاينا ما منحنا به — جل علاه — من بوارق اليمن والاسعاد، نهضنا بحول الله وقوته، وطوله وعزته، قاصدين حضرتنا السامية، السنية المراكشية، فحللناها يوم تاريخه حلول يمن وظفر، في يوم كان بين الأيام أبهى واغر، وعناية الله تكنفنا، وعين رعايته سبحانه تحرسنا، ورياح النصر والظفر تخفق منا الرايات والبنود، بين منزلة [52] المقدم وأخبية السعود، فقابلنا ما أولانا به سبحانه من المواهب* الجسيمة بالشكر، وحمدناه جل علاه لا أحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، وما نسبة قل من كثر.

وأعلمناكم لتاخذوا حظكم من الفرح والسرور، وتعمروا أندية الحبور،وتعلموا أن الله نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فهو نعم المولى ونعم الكفيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والسلام، في 21 رمضان عام 1313.

ولما استوفى السلطان غرضه، وقضى نفله من الرحامنة وفرضه، نهض يؤم مراكش الحمراء العلية، ذات البساتين البهية، والمتنزهات البهجة الشهية، والخيرات الكثيرة الجلية، والنعم المتعددة القوية، فحلها في يوم كان من الأيام الكبار، والأوقات الساطعة الأنوار، والبهجة التي فاقت المقدار، وعد ذلك من سعادة السلطان، وسكنت سائر البلاد والأوطان، واذعن الناس غاية الاذعان، وجرت الأحكام في الجبال والوهاد، وفي سائر أقطار البلاد، وجبيت أموال تجل عن الحصر وتستغرق الأعداد، وأصبح الملك في عز فسيح الدارة، وشأن يجر على الذيول إزاره، وحالة عالية مختارة، وتتبعت الدولة شياطين الفتن، وأشبعتهم المكائد والاحن، والتقطتهم التقاطا، وقطعت عرق الفساد من سائر تلك الأقطار قطعا كان لغاية السعد والتيسير مناطا، وصار الناس في أمن قليل مثله، واطمئنان يعز شكله، وجرت الأحكام في جميع أقطار الرعية كلها، [53] صحرائها وتلها، ووعرها وسهلها، وصار *الذئب في ذلك الوقت يرعى مع الغنم ولا يضرها، والدنيا هنية سالمة من كل غم ومن كل هم كلها.

ولما بلغت الدولة إلى هذا المبلغ العظيم، والقدر الرفيع الجسيم، ظهر لها أن تتوجه لتدويخ بعض الأقطار النائية، التي كانت جائرة آبية، ورائحة في التهور وغادية، لاستخراج حقوق بها تعلقت، وأمور بذممها ترتبت، فرأت تقديم الجهة الباغية، التي طالما ما مضى لها دهر من الزمان وهي عاتية طاغية قبائل الأعشاش من الشاوية، وهي ما هي رجالا وفرسانا، كهولا وشبانا، وكثرة خيرات وزروع، وأموال طائلة وضروع، وبلادا متأخمة في التراب الذي لا تناله الأحكام، ولا يتقيد في الحقيقة بإمام، فقصدهم السلطان بقلب فعال، وهم حريص جوال، وعزم عريض هطال، وجمع عليهم من الجموع ما حاصر به تلك البلاد على اتساعها، وكثرة أوديتها وأوعارها، وجبالها وجميع أرضها وقفارها وعمرانها، وبلغ في الفتك بهم المبلغ القوي، وقومهم التقويم السوي، وصيرهم على الاستقامة التامة التي لا يتطرق لها احتمال، ولا يخالطها إشكال.

وقصتها لا زالت في الألسن مذكورة، وعند الكبير والصغير مشهورة، ومضمنها أن السلطان خرج من مراكش بقصد الأعشاش، بعد أن سوى [54] جناحه وراش، في جيش منصور. وعسكر موفور*، وحال تتزين به العصور،

وتتباهى بجماله وحسن سنائه الأقمار والبدور، فتلقته رعيته بما ينبغي من الطاعة والإذعان، والوقوف مع الكلمة بغاية الامكان، وسار في طريقه مسير البدر في برجه السعيد، كل يوم يحل موضعا وكل يوم عنده عيد.

ثم خرج قصدا في تادلا، محل كل هول وكل بلا، فأوطأ جيوشه أرضهم، وأسال عليهم منهم ما طمهم وعمهم، وفضهم وغمهم، فادهش بذلك أهل الوطن، وذهلوا حتى عن الأولاد وعن العطن، وبذلوا له الطاعة رغما، وقلوبهم تتوقد جمرا وتتمزق هما، فعامل كلا بما يليق به، مما لا يخل بمنصبه. ثم خيم بقبيلة بني عمير وإن لم تكن مقصودة، ولا في الأعشاش معدودة، ولكنه لما تكامل سعده، وتقوى زنده، وتوفر رفده، رأى تقويم أود هذه القبيلة من الأمر المعين، والالتفات إليها عليه هين لين، فخيم عليها في يوم طلع عليهم بالنحوس، وسلب الأموال والنفوس، بعد أن خوفوه أرضهم، وحذروه عطشهم وطولهم وعرضهم، فلم يكترث بذلك القول، ولا أعبأ بذلك الهول، فبينما هم في أخذ وترك في هذا المقام إذ طلع عليهم طلوع البدر ليلة التمام، وملأ عليهم أرضهم من خلف ومن أمام، وفتك بهم فتك الملوك، وأراهم طريق السلوك للسلوك، ونشب فيهم مخالب السباع★، وألان حدتهم التي شملت جميع تلك البقاع. [55]

فكانت هذه بشارة للفتح القريب، والنصر الغريب، وتوجهت مكاتيب السلطان إلى الانحاء والآفاق بخبر هذه الوقعة، وهذا نص ما كتبته أنا من إنشائي على لسانه نصره الله بعد الافتتاح

وبعد فإننا ـــ بحول الله الذي يمنح الجزيل، ويصنع لعبده الصنع الجميل، قد نهضنا من حضرتنا السنية المراكشية الحمراء، ذات البهجة البهية والمشاهد الغراء، وأيادي الله ـــ تعالى وله الحمد ـــ لدينا متواكبة، ونعمه الجليلة في كل أوان علينا مترادفة، بقصد تدويخ هذه الأقطار الحوزية، لازاحة ما تخللها بسبب تلك الهوائع الدنية، فافتتحنا ذلك بقبائل مسفيوة البربرية، التي هي أقرب للحضرة المذكورة من أهل هذه البرية، فألفينا أهلها خاضعين، وللأوامر سامعين طائعين، وتلقوا ركابنا الشريف بأحسن زي وأكمل شارة، بعد أن كانوا على خوف لم يستوفه طرس ولم تستوعبه عبارة، فأبقينا عليهم رفقا

بالمستضعفين، ورحمة بالأرامل والبنين، مع وقوفهم مع النهي والأمر، وعدم التخلف من زيدهم ولا عمرو

ثم تخللنا قبيلة تكّانة ثم زمران، فبذلوا الطاعة بحسب الامكان، وقاموا باللوازم فوق المظنون، ونالوا من خاطرنا الشريف ما يرجون

[56] ثم نهضنا* لقبائل السراغنة الوافرة العدد والعدد، الغزيرة الرجال والمدد، فتلقونا بفرح ما عليه من مزيد، في يوم يحسبه الرائي موسما أو يوم عيد، وأهدوا فاخر الهدايا، وأعز المطايا، وقاموا بأسنى الضيافات، واسترضوا جانبنا العالي بالله بأقصى الغايات وأعلا النهايات.

ثم مررنا بقبيلة هنتيفة، فتراكموا بقضهم وقضيضهم على أذيالنا الشريفة، مستظلين بظلالها الظليلة الوريفة، وقاموا بالواجب من الطاعة، وأبدأوا فيها وأعادوا جهد الاستطاعة، غير أننا وظفنا عليهم ثلاثين ألف ريال تطهيرا لهم مما اقترفوا، ومحوا لما خاضو فيه من تلك الفتن واعترفوا، بعد أن توخينا الرفق بهم غاية، لما عايناه من انقيادهم إلى النهاية، فامتثلوا الأمر في الحين، وحان لهم يوم من رضانا ما ظنوه يحين.

ثم دخلنا لبلاد تادلة الزاخرة، ذات الأصقاع الواسعة والأمم الوافرة، فحللنا ببلاد بني موسى وهم أول قبيلة من قبائل ذلك القطر المديد، والصقع البعيد، فوجدنا ذممهم فارغة من الوظائف والواجب، لدفعهم ذلك لاخينا مولاي حفيد الذي كنا وجهناه مقدمة لجباية تلك المطالب، فمكثنا لديهم أياما ننظر في الأمور، معتمدين على الله تعالى الذي له الخلق والأمر وإليه [57] النشور، فظهر لنا منهم خلال تلك المدة من السكينة* والاطمئنان، وإتيانهم لحلتنا السعيدة بسائر أنواع المبيعات مالا يصفه الواصف ولا يستقصيه لسان، غير أن فرقة منهم تسمى أولاد عياد، تشكى عاملهم بانحرافهم عنه وأبدأ في ذلك وأعاد، فرأينا نصرته من الواجب، وإزاحة ضيمه لديهم من أرفع المراتب، واستشهد بخلو البلاد، وفرارهم لرؤوس الشواهق تقصيا في البعاد، وطلب هدم دورهم التي إليها يحنون، وبها عند الشدائد يعتصمون، وعليها يعولون، فساعدناه على مطلبه، ووجهنا من تولى ذلك من زعماء الجيش تنويها بمنصبه، ولما كاد الهدم أن يستأصلها، ويستوعبها كلها، بلغهم ذلك وتحققوا بما هنالك،

فوردوا لحرم سيدي علي بن ابراهيم مستحرمين، ثم أتوا في ذمة بعض أهله مذعنين، ووجهوا طائفة من شيوخهم وصبيانهم بالذبائح لجانبنا الشريف، ومرغوا خدودهم بسدة (5) حرمه المنيف، طالبين التجاوز عن سيئاتهم التي أوقعتهم في المهالك، وسلوك أصعب المسالك، فأشفقنا من ردهم خائبين، بعد إتيانهم إلينا تائبين، وتجاوزنا عنهم طعما في رحمة من يغفر الزلات، ويعفو عن السيئات.

ثم وجهنا وجهة العقوبة للفيئة التي تمردت عن أداء الواجب واستعصت، وقد طالما مدت اليد بالقتل والنهب في الطرق وإتيان كل رذيلة استقصت، مع كونها جنت على المدد الذي كان عندها حين وفاه سيدنا الوالد★ قدسه الله ورحمه، وروح روحه في الجنان ونعمه قبيلة بني عمير، [58] الذين سووا بين المأمور والأمير، فوجهنا لهم سرايا قلائل من جيوشنا المنصورة، التي هي بعزة الله ونصرته على الكفاح والنطاح مشمورة، فأحاطت بهم من كل مكان في الحال، وأذاقتهم شديد العقاب وأليم النكال، وقطعت منهم رؤوس، وحصل من بعض عتاتهم من يهون عليهم دونه بذل نفائس الأموال وكرائم النفوس، وهدت الديار والمداشر، وصارت بلادهم أنقى من الراحة وأخلى من المقابر، وبعد أن كنا ندبر لهم في إعادة الضرب، ليعالجوا شدائد الكرب، ويتجرعوا مرائر الحرب، وردت جماعات من لدنهم على جانبنا الشريف واستجارت بالمدافع، حيث لم يكن لهم ناصر من الله ولا دافع، وتطارحوا بالعارات، وتباروا في أنهاء التوبة أبلغ المبارات، وطلبوا العفو عما فعلوا، وقرروا ندمهم عليه ومنه تنصلوا وعنه انفصلوا، وتشفعوا بمن ننفعل لشفاعته، لكبرته (6) ومحبته وديانته، فشفعناه بعد أن شرطنا عليهم من القيام بواجب الطاعة ورد الحقوق ما شرطنا، ووسعنا المادة في ذلك كما أردنا، فقبلوا الجميع، سواء في ذلك العلي منهم والوضيع، والتزموه قهرا، وتجاذبوا العمل به نهيا وأمرا.

على أنهم ليسوا من المقصودين بالذات، ولا ممن إليهم أعملت هذه الخطوات، وإنما ساق لهم ذلك ما اقتضته السياسة وأوجبته الحقوق★، زجرا لما [59]

(5) السدة بالضم باب الدار، «ق».

(6) كبر كفرح كبرا كعنب طعى في السن، وعلته كبوة كتمرة، وهو كبرهم بالضم وكبرتهم بالكسر : أكبرهم، أو أقعدهم بالنسب، «ق».

ارتكبوه من الجفاء وتسنموه من العقوق، وكفّاهم عن العود للتلبس بتلك الجرائم والفسوق، والوجهة ــ إن شاء الله ــ هي لقبيلة الأعشاش من أطراف الشاوية، الفرقة الباغية في هذه الناحية، فبعد الفراغ من عمل من قبلهم إذ أبرزته القدرة وحسم المادة وإقامة أودهم للجادة، نطلع (7) بحول الله على أولئك الطغاة بقوة قوية، وهمة هاشمية علوية، ونمحوا ــ بعون الله ــ منهم عرق الفساد، ونستقصي أهل الجحد والالحاد، والبغي والعناد، ونوالي عليهم الفجائع، ونرميهم بما لا قبل لهم به من تتابع السرايا وبث الطلائع، حتى يرجعوا ــ إن شاء الله ــ للطاعة قهرا، ويسلكوا فيها طريق الاستقامة جهرا، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة، ويؤدوا كل حق لديهم وتباعة، والله على ذلك قدير، وبالاجابة حقيق جدير.

واعلمناكم بما هيأ الله تعالى لنا من النصر الذي لا كفاء له، والفتح الذي أزره السعد وأضاء له، لتعلموا الشيء على الحقيقة، وتبنوا الأعمال على القواعد الوثيقة، والمصانع الأنيقة، انتهى.

ثم نهض السلطان عنهم عن عز دونه الثريا، وفخر حدث عنه ولا حرج ولا ثنيا، ولم يزل في سعود تراوحه وتغاديه، وفتوح تخاطبه وتناديه، إلى أن نزل بأطراف الأعشاش، وغيرهم من القبائل الطنانة (8) المعمورة بكل من زاغ وطاش (9) في يوم كان النصر يلمع فيه، والفتح كاد أن يخاطب الناس بفيه★، [60] فحل في محل لا يمكنهم التخلص إلا منه قبل نزول المحلة فيه بقوتها، وتعمره بهيبتها وعزتها، فضاقت عليهم الأرض برمتها، ونزلت عليهم المذلة بجملتها، وبقوا حيارى مبهوتين، وأسارى مضنوكين، فحلت بهم الجيوش من كل مكان، وأخذت عليهم منافذ تلك الفيافي والأوطان، وأحدقت بهم إحداق الهالة (10) بالقمر، وسحقتهم حتى لا خبر ولا أثر، وفعلت بهم الفعل الذي بقي أثره،

(7) طلع فلان علينا كمنع ونصر أتانا، «ق».

(8) الطنين صوت الذباب والطست، وطن صوت، كطنطن وطنن، «ق».

(9) الطيش النزق والخفة، طاش يطيش فهو طائش وطياش، والطياش من لا يقصد وجها واحدا. «ق».

(10) الهالة : دارة القمر، الجمع هالات، «ق»

ودام خبو، وهو محل يسمى صخرة الدجاجة، ما أوسع أرضه وأكثر فجاجه، جاء في الحدود بين قبائل ذلك المعمور، ومجمع ذلك الجمهور المشهور، أهل الطعن والضرب، وعدم المبالات بالحرب، فحل به حلول السبع في أجمه (11) والسيد في خدمه، وطول المقام به، وعاملهم في الشهامة وشدة البأس على حسبه العالي ونسبه، وصير أرض الأعشاش قاعا صفصفا، لا ترى فيها إلا الوحش وما سواه عفا، وحسبنا الله وكفى، ووقع الفتح الذي لم يكن في الظنون، ولا رأى أحد بأنه يكون، إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وما النصر إلا من عنده.

ثم إنه نصب عليهم العمال، وقبض منهم الأموال، وأخرج الحقوق، وقوم أودهم (12) عن ارتكاب كل العقوق، وقبض على الشيوخ والكهول والأطفال، وطوقهم السلاسل والأغلال*، وشرد بهم من خلفهم تشريدا، أيما [61] توجهوا أخذوا وقتلوا تقتيلا شديدا، فعاينوا من المحن ما لم يكن لهم في حساب، قد ملأوا منها الأجياب والوطاب، وانغلق عنهم من الله كل باب.

ولما أشبعوا فتكا، وتضلعوا ضنكا، أقلع السلطان عنهم بعد أن لم تبق فيهم باقية، لا ثاغية ولا راغية، عن عز راسخ رسوخ الأطواد، ونصر مبشر بكل مراد، وأبهة ملوكية تثبت الهناء وتعز الأجناد، وتعطي أنها نور الأعين وحياة العباد، وأمن الأموال والنساء والأولاد والبلاد، ولي قطعة من الشعر في هذا الفتح الصميم، والنصر العميم، فلا بأس بالاتيان بها، ولو كانت لا يوبه لها، ونصها

هذا زمـــان السعـــــد والاسعـــــاد   **أبشر بما تهوى ونيـــــــــــــل مراد**
هذا أوان الـــــــــــنصر جاء مبشرا   **بمسرة تأتي كما الأعيـــــــــــــــاد**
هذا بريـــد (13) الفتـــح حل ببابكـــم   **رغمـــــــــا على ذي الصد والالحاد**
وطلائع (14) الظفر العـــظيم تتابـــعت   **وتسامـــــعت في حواضر وبـــــــواد**

(11) الأجمة الشجر الملتف، والجمع أجم، مثل قصبة وقصب، انتهى «مصباح».
(12) الأود الأعوجاج، وفعله من باب فرح، «ق».
(13) البريد المرتب، والرسول، وفرسخان أو اثنا عشر ميلا، أو ما بين المنزلين، والفرانق، لانه ينذر قدام الأسد، والرسل على دواب البريد، «ق».
(14) طليعة الجيش من يبعث ليطلع طلع العدو للواحد والجميع، الجمع طلائع، «ق».

والعز أقبل والميامن ساعدت ... وتناسقت في شواهق ووهاد
والنور أشرق والمنا أيامه ... طابت بسعدك يا سليل الهاد
سيد الملوك وضئضىء (15) الأشراف من ... قرت به عيني وراق فؤادي
عبد العزيز القوم فاق ثناؤه ... سر الخلافة بغيتي وعمادي
الله آثر ملكك السامي الذي ... ثبتت مآثره كما الأطواد
وحباك طاعة خلقه ووداده ... أضحت بذا آي الكتاب (16) تنادي
[62] *فعداكم الأعشاش يا ملك الورى ... حل التبار بهم وبالأولاد
وطما بأرضهم الهوان وأظلمت ... وشفا الاله حرارة الأكباد
ماذا عليهم لو أنابوا قبل أن ؟ ... تغشاهم بمرارة الأنكاد
لكنهم عدموا الرشاد فأصبحوا ... في قيد ما اقترفوا من الافساد
دامت لك العلياء (18) يا أسد الوغى (19) ... وسبحت بحر هداية ورشاد
وأقر عينك بالوزير الذ به ... قرت مفاخركم بكل بلاد
وأتاح (20) منصبه رضاك وخلدت ... في بيته أنواركم وأيادي
أخذ الوزارة كابرا عن كابر ... برجاحة ومهابة وسداد

وكان ذلك عام خمسة عشر وثلاثمائة وألف.

ثم رجع السلطان لمراكش، ومر على قبائل الشاوية ودكالة فألفاها على حالة كبيرة من الطاعة، انقياد لا تستقصيه يراعة، وبذلت له كرائم الأموال، ونفائس الأفعال والأقوال، ثم دخل لمراكش بنصر جديد، وملك وحيد فريد، واهتزت له الدنيا وتمهدت، وصفت مشاربها وتقعدت، وتمكنت عزتها وتوطدت (21) وأصبحت المملكة تجر ذيولها على الذيول فخرا وارتياحا، وتزداد في كل حين نورا وانشراحا، بشواهد قاطعة وبراهين صحاحا.

(15) الضئضىء كجرجر وحرجير، والضُّؤْضُؤ كهدهد وسرسور الأصل والمعدن، «ق».
(16) وهي قوله تعالى «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى»، وقوله عز من قائل «يا أيـ الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم».
(17) التبار كسحاب الهلاك، «ق».
(18) العلياء السماء، ورأس الجبل، والمكان العالي، وكل ما علا من شيء، «ق».
(19) الوغى مقصورا الجلبة والأصوات، ومنه وغى الحرب، وقال ابن جني الوعى بالمهملة الصوت والجلبة، وبالمعجمة الحرب نفسها، انتهى، «مصباح».
(20) تاح له الشيء يتوح تهيأ، كتاح يتيح، وأتاحه الله تعالى فأتيح، «ق».
(21) وطد الشيء أثبته وثقله، وبابه وعد، ووطده أيضا توطيدا، انتهى «مختار».

ثم اقتعد السلطان على أريكة سلطنته الفخيمة، ومملكته العظيمة، ومشت أوامره في سائر الأقطار، وامتثلت كلمته عند الكبار والصغار، وعمت هيبته كل قلب متكبر جبار.

[63] وفتح *سوس الأقصا بكلمته وصلحاء عماله الفتح الثاني، وما وراءه من كل قاص وداني، وارتاعت منه العدا وراقت به المعاني وعلت المباني.

وتناول وهو بمراكش قبائل الريف وبقيوة وسباها، ورماها بالداهية (22) الدهياء وجد ثمارها وجناها، وسكّن روعتها وما والاها، وأجرى الأحكام في صقعها وأرضها، وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها.

ثم تناول قبائل ذوي منيع في قفر شط المزار، بعيد القطر والدار، وفعل بهم الفعل العجيب، وقهرهم القهر الغريب، وجاءت مساجينهم ومساجين بقيوة تجر أرسان الأغلال والقيود، من غير اعمال سيف ولا رمح ولا احتياج للكثير من الجنود، وإنما ذلك بحسن التدبير، وحصول التيسير، من الرب العلي الكبير.

ووجه الجيوش لجبالة قبيلة مسفيوة الذين هم أمنع من عقاب، وأحذر من غراب، وأبعد من الهضيمة والامتهان، لتمنعهم بذلك الجبل الذي ما حل به أحد وهان، فجبلهم الجبل المنيع، ومسكنهم المسكن الرفيع، الذي لا يذل قاطنه ولا يضيع، فاحدقت بهم الجيوش المنصورة، والعساكر الكثيرة الموفورة، وسدت عليهم الأنقاب، وكل الشقوق والمسارب والأبواب، ثم تناولوهم بالقتال في قعر ديارهم، ووسط حللهم ومداشرهم وأوعارهم، وعركوهم عركا، [64] وأشبعوهم* قتلا وفتكا، وألانوا منهم العريكة، والشدة التي كانت في التيه غريقة، ووصل منهم لحضرته الشريفة بمراكش عدد من المساجين كبير، عاينه الكبير والصغير، وعد الناس ذلك من الكرامات التي لا يأتي بها زمان، ولا يحتوي عليها مكان، وارتعدت بذلك فرائص أهل الجبال، الذين كانت عزتهم لا تنال، فأصبحوا في هذا الصنع ينظرون، ويتألمون ويتحسرون، لعلمهم أن

(22) الداهية النائبة والنازلة، والجمع الدواهي، وهي إسم فاعل من دهاه الأمر يدهاه إذا نزل به، وداهية، دهياء ودهواء، انتهى «مصباح

السبع ربض بالباب، ورفع عنهم الحجاب، وأن الأرض صارت لا تحميهم، ولا تجيرهم من سطوة السلطان أو تؤويهم.

وغاية الأمر ومنتهاه أن سعود السلطان كانت فاشية، وفتوحه رائحة وغادية، وفي كل حين غاشية، فقد مكث في مراكش نحو الست سنين، وناول فيها بالحوز والغرب والريف والصحراء وغير ذلك أمورا طويل شرحها، وبعيد تبيينها وتوضيحها، وما انهزمت له راية، ولا انكسرت فيه عناية، وما أعمل قدما في شيء منها إلا في قضية الأعشاش التي علمتها، وتلاها عليك لسان القلم ورأيتها، وما عداها إنما حاوله بكلمته العلية، وشهامته الجبلية.

ولما أراد الله لهذه الأحوال أن تتبدل، وتنحرف عن مركزها القويم وتتحول، استأثر سبحانه بمهجة الوزير، الذي هو بوجوه السياسة وإدارة الأمور خبير، مات رحمه الله* على حين ما كانت عليه الدولة من المتانة والقوة، [65] والهيبة الوقادة المجلوة، والأموال الكثيرة، والجيوش الغزيرة، والذخائر العزيزة الموفورة، والكلمة المسموعة المبرورة، والبهجة العميمة المنشورة، والهدنة الجلية المشهورة.

كانت وفاته بداره بمراكش فوق فراشه مشمولا بالعناية، والعز الكبير والرعاية، عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف، في الثالث عشر من المحرم الحرام وهو يوم الأحد، ودفن بجانب قبر أبيه داخل قبة مولانا علي الشريف من باب أيلان على يمين الداخل إليها، وحضر السلطان للصلاة عليه ودفنه، وتردد إلى قبره ثلاثة أيام، قدس الله تربته، وأنس غربته، وسكن روعته، وعوض السلطان منه خيرا وخلفا.

فقد كان ــ رحمه الله ــ على ما ينبغي من الحزم والتيقظ والنباهة، والمهابة الكثيرة والوجاهة، والأوصاف الفخيمة التي لو تتبعتها لما وسعها ديوان، ولا جمعها إيوان، ويكفي أن المملكة في أيامه ازدادت ضخامة ورفعة جاه، وبيوت الأموال عمرت عمارة كادت أن لا يكون لها حد ولا تناه، وكثرت ذخائر السلطنة حيث أبهة السلطان ذخراه، وما مات حتى ترك الناس على المحجة البيضاء، والطريق التي طلع فجرها وضاء.

ومات قبله ثلاثة من إخوته، كانوا نجوما في سماء مكانته، وزينا لدارته [66] وهالته*، فسقاهم الحمام بكأسه المحتوم، ورماهم بنبله المعلوم، فدرجوا في آن واحد كأنما كانوا على ميعاد، ومضت أيامهم التي كانت معمورة بكل إصدار وبكل إيراد، فأولهم موتا السيد البشير، مات بالشاوية وحمل إلى أن وصل لمراكش، ودفن بمقام سيدي يوسف بن علي أحد أولياء سبعة رجال — رضي الله عنهم — قبالة باب أغمات.

ثم مات بعده — بنحو شهرين ونصف — السيد سعيد، كبير العسكر السعيد، ودفن بمقبرة مولانا علي الشريف بباب أيلان في أواخر رمضان عام سبعة عشر وثلاثمائة وألف.

وفي أواخر حجة الحرام يليه مات السيد إدريس الحاجب ودفن بالمقبرة المذكورة.

ثم مات الوزير أخوهم في ثالث عشر محرم الحرام، عام ثمانية عشر كما تقدم، رحمهم الله أجمعين وألحقنا بهم مسلمين آمنين مطمئنين، لا مبدلين ولا مغيرين، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

ولما مات هؤلاء الأعلام، نجوم الدولة ومصابيح الظلام، لم يبق في فريقهم من يصلح للوزارة، سوى ولد عمهم الرجل الحيي الفقيه السيد الحاج المختار بن عبد الله بن أحمد، فكلفه السلطان بها وولاه إياها، ثم عزل كما سيأتي عن عام واحد من وزارته.

وولي في محل السيد سعيد على العسكر خديمه القائد المهدي بن [67] العربي المنبهي، من منابهة* حوز مراكش، وهو رجل أمي بدوي لا مسيس له بالسياسة ولا بأمور المملكة، وبسببه انحطت المملكة عن قدرها الرفيع، وأنهار سدها المنيع، ولحقها من الضيم والهضم ما لا تفي بشرحه الأقلام، ولا ينسى بطول الدهور وتكرر الأيام، وسلبها من أمواها، وسعى في إيقاد نار فتنتها وأهوالها، وفعل في ديار الوزير السيد أحمد رحمه الله فعل الأعداء، ورماها بعضال الداء، وتركها خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وأهون مما فعل بها ضرب الرقبة وإزهاق النفس، مع كونه ربي نعمته، ووصيف خدمته لأنه

هو الذي أظهره، وأعلاه وكبره، فجازاه مجازاة سنمار [23] وأخلى من متاعه وأهله وأولاده الأمصار والديار، وعرف الناس بقدره الخسيس، وشؤمه المكتسب من ابليس، وجر شؤمه حتى على المملكة الشريفة، بعد المكانة العالية المنيفة، وستسمع من أخباره السيئة ما تعلم به أن الخير في مثله لا ينفع، وأنه إنما فيه الضر والمنع.

وبعد موت الوزير ـــ رحمه الله ـــ بنحو خمسة أيام مات قائد المشور القائد ادريس بن العلام البخاري، ودفن بمقام سيدي ميمون بناحية عرصة المأمونية بمراكش قرب باب الرب، وولي السلطان ولده القائد محمد بن ادريس في محله.

ثم إن المنبهي المذكورصار ملازما للسلطان، وامتطى بسبب ذلك ذروة عز ما كان له ببال، *ولا كان يظن أن الجد [24] يصل به إلى ذلك المكان، [68] فعلا قدره على الوزراء، وأكابر الأمراء، وصار يقدم ويؤخر، ويصغر ويكبر، ويتصرف بكل ما ظهر له، على نحو ما أراده وأمله، ولما وصل إلى هذا القدر العظيم، والفخر الجسيم، طمحت [25] نفسه إلى أموال الوزير، وإخلاء دياره من الكبير والصغير، ورأى أن ذلك لا يتم له إلا بفراغ الجو [26] من الكبراء، والتقديم والتأخير في الأمراء، فعزل باشا قصبة مراكش لكونه بصيرا بالأمور، وولى غيره خامل الذكر منتوف الريش.

ثم امتطى [27] إلى عزل الوزير الحاج المختار، الذي هو بقية تلك الدار، والمنظور إليه في ذلك الفريق بعين الاعتبار، فعزل من غير ذنب ظاهر، وأزعج من يومه ذلك للسفر على حالة تبكي، وتهيج الكروب وتنكي [28] عن عام

(23) السنمار بكسر السين والنون وشد الميم القمر، ورجل لا ينام بالليل، واللص، وإسكاف بنى قصرا للنعمان بن إمرىء القيس، فلما فرغ ألقاه من أعلاه، ليلا يبني لغيره مثله، «ق».

(24) الجد أبو الأب وأبو الأم، جمعه أجداد وجدود وجدودة، والبخت والحظ والحظوة والرزق والعظمة، وشاطىء النهر، كالجد والجدة بكسرهما والجدة بالضم، ووجه الأرض، كالجدة بالكسر والجديد والجدد، والرجل العظيم الحظ، كالجد والجدى بضمهما والجديد والمجدود... «ق».

(25) طمح بصره إليه كمنع ارتفع، واطمح بصره رفعه... «ق».

(26) الجو الهواء، وما انخفض من الأرض، «ق».

(27) مطا جد في السير وأسرع...«ق».

(28) نكى العدو وفيه نكاية : قتل وجرح

واحد من وزارته، ولما انفصل عن المدينة بيومين تبعه الأمناء لحيازة جميع ما بيده، فزاد كربا على كرب، وذهب له جيمع ما خلفه بداره بمراكش لاستعجالهم إياه في السفر عن استقصائه المتاع، ولما وصل للرباط حيز منه ما بقي بيده وجميع بهائمه، وصار اعرى من مخيط، ثم حمل من الرباط ووجه لتطوان لتغريبه، وإبعاده عن الوطن وتعذيبه، وما رجع لمكناس إلا بعد أن نفذ الوعيد في ديار الوزير وأملاكه بمكناس وفاس ومراكش وبددت تبديدا، وذلك بعد التطارح العريض على المنبهي.

[69] ثم عزل أيضا* بإثر ذلك قائد المشور القائد محمد بن العلام وأكله اكلا لما، ووقع به ما ترك الألباب حائرة.

ومكر بالفقيه السيد العباس ولد الوزير السيد محمد بن العربي الجامعي، وازعج للخروج من مراكش من يومه والتوجه لفاس على حالة لا شيء فوقها من الاهانة.

ثم عزل عامل مراكش وغربه في تيزنيت بقعر سوس الأقصا.

وعزل محتسب مراكش، ومكر بالوصيف العياشي ولد مصباح المقرب عند السلطان مولاي الحسن، وأخرجه كرها من حرم الشيخ الجزولي — رضي الله عنه — وعذبه وغربه في تزنيت، ولم يزل في نقض ما أبرمه من قبله إلى أن صار أمة وحده في الدولة وانفرد بالكلام فيها.

وعزل القائد محمد بن قاسم الشركي الحمياني لحرارته وتلهفه على ما وقع بالدولة ومكر به، وعزل أناسا كثيرين.

ثم عزل القائد عيسى بن عمر العبدي وهو من العمال الكبراء، ودارهم دار خدمة، وذهب متاعه شذر مذر، وما علم أحد ذنوبا لهؤلاء الأعلام استوجبوا بها ذلك، وإنما هو إفراغ الدولة من رجالها، ليتيسر له المراد من الاستيلاء على كنوزها وذخائرها وأموالها.

ولما خلا له الجو مد يده في مال الوزير المرحوم وحليه وجوهره وذهبه ويواقيته وامائه وبهائمه وخيله وأثاثه وماله الناض الذي يقوم بثلاثة من الملوك،

[70] واحتوى على الجميع وبلعه، ورضخ [29] بطَشّةٍ* [30] منه لبعض الزعانفة [31] الذين هونوا عليه الأمر وأعانوه، وقد كانوا على مائدة الوزير وتحت حياطته، فصار ملكا بالنسبة للمال، وزاد على ذلك جميع جبايات الرعية فكان يتعرض لها ويغيبها كأن لم تكن أصلا، وغاية الأمر أنه حصل على أموال في مدة قليلة ما علمت أحدا حصلها في وقتنا ولا فيما قبله بكثير، فهو بحر لا ساحل له في المال، فلا تشبه به اليوم في المغرب أحدا، ولو تتبعت تفاصيل جمله وشروح عمله لطال الحال بكثير.

وأما الزروع فكان عنده منها ما لا يجمعه ديوان، لأنه كان مكلفا بزروع المخزن بالحوز وسواقيه ومياهه أينما كانت وتعينت، فازداد بذلك ملكا على ملك، وحاز الجميع لنفسه حتى افتقرت المملكة للكيل، وهذا أمر ما سمعنا بوقوعه منذ كنا في الدنيا، والعياذ بالله من النحوس، التي تأتي على الأموال والنفوس.

ولما علم أنه امتلأ بالمال الذي لا يحصى، والذخائر التي لا تستقصى، دبر في حيلة مشاها على الدولة، ومشى سفيرا من جانب الدولة إلى الانجليز والألمان وأودع ماله عندهم، وفعل الأفاعيل العجيبة هناك، وارتكب الخرق الفادح، وأوهن الدولة وكشف عن عوراتها، ثم احتمى بالانجليز ليوم ما، وقد [71] كاد المريب* أن يقول خذوني، وإلا فأي شيء أحوجه إلى الاحتماء بالنصارى مع المكانة التي هو فيها، ولاكنه لما أكل الأكلة التي لا تسلم له سبق إلى موالات النصارى واتخذ عندهم اليد، ليناضلوا عنه إذا حدث به حادث المطالبة، وكذلك كان عامله الله بما يستحقه، وسيأتي الايماء لعاقبة أمره مع جانب الدولة ان شاء الله، ويكفي في قيام الحجة عليه ما صارت إليه الدولة وهو ماسك لرسنها، وقائد بزمامها، من النقصان، الذي لا يحتاج إلى برهان، بعد المكانة القعساء، [32] والضخامة الشماء، فكم بين وقته ووقت الوزير

(29) رضخ الحصى كمنع وضرب كسرها، وله أعطاه عطاء غير كثير، «ق».

(30) الطش والطشيش المطر الضعيف، وهو فوق الرّذاذ، «ق».

(31) الزعانفة جمع لزعنفة بالكسر والفتح، وهي القصير والقصيرة، وطائفة من كل شيء، وطرف الأديم كاليدين والرجلين، والرُّذّل، «ق».

(32) الأقعس من الخيل : المطمئن الصهوة، المرتفع القطاة... والرجل المنيع والثابت من العز، والقعساء تأنيث الأقعس... «ق».

السيد أحمد رحمه الله من البون، الذي يعلمه كل المسكون، وغايته فلا نطيل في أمره.

ولما غاب في هذه السفارة عزله السلطان عن إمارة العسكر وولي غيره إياها، وهو الحاج عبد السلام الزمراني، وحيث بلغه الخبر جاء في أسرع من طرفة العين، وما علم به أحد حتى كان في داره بالقصبة بجوار دار السلطان، ثم أصبح من الغد في محل إمارته، وتلاقى بالسلطان وباشر الأمور واقبل عليه الناس، وسرح في ذلك اليوم من السجن القائد عيسي بن عمر العبدي، ورده لمكانته قائدا على قبيلة عبدة، وبعد حين زاده عمالة آسفي، ورده السلطان في [72] الحين للامارة على العسكر، وعزل الزمراني الذي كان* عين لها وذهب إلى أمه الهاوية، وازدادت مكانته بعد ذلك إلى أن وصل السها (33) وتناولها بيده ومسها.

ووقع الانحلال في الأمور، وجرت على غير مهيعها (34) في كل ورود وصدور، وصارت الفتوق تظهر في سماء المملكة، والأحوال تتعاصى بسبب المسلك الذي سلكه، والكلام يتوارد على الحضرة بالحض على النهوض من مراكش والقدوم لفاس، لما هجست (35) به الصدور ونطقت به الألسن من الناس، فلم يجد بدا من إجابة الداعي، والسعي في تلك المساعي، ثم أخذ في التأهب وتيسير أسباب السفر على حالة ظاهرة الوهن، وطول في ذلك طولا غير معتاد حتى سرى الفشل، وبردت العزائم وصار الأمر في قبيل المسخرة.

ثم قدم أمام المحلة عم السلطان مولاي الأمين بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمان بن هشام بعسكر غير مضبوط، ووجهه لتادلا بقصد جبايتها وعمارة أرضها، ريثما يقدم السلطان عليه لتتميم ما بقي عليه من أمرها على عادة الملوك في ذلك، ثم صد عنه وعن محلته وجهه، وتركهم هنالك ذبالة

(33) السها كوكب خفي من بنات نعش الصغرى، «ق».
(34) المهيع الطريق الواسع الواضح «ق».
(35) هجس الشيء في صدره يهجس خطر بباله، أو هو أن يحدث به نفسه في صدره مثل الوسواس، والمهجس النبأة تسمعها ولا تفهمها، وكل ما وقع في خلدك. «ق».
(36) جبى الخراج كرمى وسعى، جباية وجباوة بكسرهما جمعه، «ق».
(37) الذبالة، كثمامة ورمانة : الفتيلة، «ق».

من غير زاد ولا رواتب، وسرى لهم الفشل بسبب ذلك وخشعت نفوسهم، واطلع على وهنهم* أهل تلك البلاد الصائلة، ونقصوا في أعينهم وقلبوا لهم ظهر [73] المجن (38) وعزموا على مد اليد فيهم، فخافوا ودخلوا للقصبة الزيدانية ومكثوا فيها، إلى أن تبددوا شيئا فشيئا ولم يبق إلا عم السلطان وبعض من خاصته داخل السور، في صورة مسجون لا يأتي ولا يذر في شيء من الأمور، وطالما استغاث ولم يكن من يغيثه، هذا والأمور تتناقض في سائر الأقطار، وأخبار السوء تتوارد بالليل والنهار، وهو مثبط (39) للدولة ومشتغل في جلب المنفعة لنفسه غير ملتفت لما يقال، وانهمك (40) في اللذات وساعده الوقت وأطاعه الهوى.

ثم إن أرباب الدولة لما رأوا ما وقع من التهورات (41) التي آلت إلى الأفات، والأسباب التي هدت من المملكة ركنها، وأطمعت فيها عدوها، قاموا واتفقوا على أن يتخذوا جمعا في كل يوم بقصد المشورة في أمور المملكة ليلا يأتي عليها الخراب، وتنغلق عنها وعنهم الأبواب.

وبعد مجيئه من السفارة من بلاد الانجليز والألمان، ومجيء وزير البحر الفقيه السيد عبد الكريم بن سليمان الفاسي من السفارة أيضا لبلاد الفرنسيس والموسكو، تغير الأسلوب* في كيفية أخذ الجباية من الرعية، وتبعوا [74] فيها عمل الأجانب وسموه الترتيب، وهو تقرير شيء معلوم من الدراهم على الضأن والمعز والبقر والابل والخيل والبغال والحمير والأرض والأشجار، واعطاء ذلك كل عام، عن كل رأس وعن كل شجرة وعن كل زوجة من أزواج الحرث، وبدأوا بقبائل الحوز والدير وسوس ثم الغرب كما سيأتي، وفي ضمن ذلك تعطيل الزكاة التي هي أحد أركان الاسلام، وابرزوه دفعة واحدة من غير تدريج ولا سياسة، وصار ذلك في أذهان الناس كالعجب واستحالته العقول وبنوا عليه أمورا.

---

(38) المجن والمجنة بكسرهما، والجنان والجنانة بضمهما الترس، وقلب مجنة أسقط الحياء وفعل ما شاء، أو ملك أمره واستبد به، «ق».

(39) تبطه عن الأمر :عوقه وبطأ به عنه، كتبطه فيهما، وعلى الأمر وقفه عليه، «ق».

(40) همكه في الأمر فانهمك وتهمك لججه فلج، «ق».

(41) تهور الرجل وقع في الأمر بقلة مبالات، «ق».

فما خوفك من هذه اليمين، فحلف بها، فما خرج من المجلس حتى ضرب برجله ومات، وقيل ما انقضى النهار حتى مات فحملوه إلى القبر، وكلما أرادوا أن يواروه يذهب التراب وينكشف، فعلموا أنها آية سماوية، فسقفوا القبر وراحوا، وفيه قال الشاعر

ذاق الزبيري غب الحنث وانكشفت عن ابن فاطمة الأقوال والتهم

انتهى، وانظر مآل هذه اليمين التي حلف بها هؤلاء ونكثوها عياذا بالله.

ثم ظهر الكلام بعزم الدولة على إنشاء بابور البر بين فاس ومكناس وهي مسافة يوم، وتوجه لتمهيد الطريق وعمارتها بعض العمال والمهندسين، ووضعوا بعض العلامات لطريق البابور قرب مكناس، فجاء إليها البرابر وهدموها ومحوا أثرها، فقامت الدولة لذلك وقعدت وصارت تبحث عن الفعال، وانجرّ الكلام إلى باشا مكناس وأمر بالقدوم علي حضرة السلطان، فظن أنه اتهم بالاغراء على ما وقع وتثاقل وتلوّم أياما، ثم سعى فيما ثبطه عن القدوم ودس إلى جروان بكسر سوق أربعاء مكناس وأكله ونهبه، ففعلوا وقامت القيامة هنالك، واظلم الجو وقامت الفتن على ساق، وقطعت السبل وكثر اللصوص، وتفاقمت الأمور وانحل الظلام، وكثر الكلام وتنوعت الأقوال، وتناقلت الناس ذلك بكل لسان، وكل احتج لمقاله بكل ذليل وبرهان، إلى أن آل الأمر إلى خروج القائم كما ترى.

وبطل العمل الذي كانت عليه المملكة في الملاقات مع سفراء الروم، وملك الفرنصيص بلاد تينبكتوا وبلاد قطر توات، وملك الصحراء كلها إلى أن جاور تافيلالت، وقامت القيامة في الدنيا لأجل ذلك وكثر الكلام، واغتاظت القلوب وانحل النظام، وانهدت رسوم المملكة من خلف ومن أمام، ولاحول ولا قوة إلا بالله، وانطلقت الألسن بثلب [42] الدولة وتنقيصها، ونسبة القصور إليها، وتفتقت الفتوق، وشب عمرو عن الطوق، ولم يزل ذلك يكثر ويسري، [75] *ويعبث [43] بأعباء [44] المملكة ويفري [45]، إلى أن عم البلاد، وطم [46] بحره الجبال والوهاد، ووقعت الغفلة عن الجيوش القديمة والحادثة وتلاشا أمرها، وتفرق جمعها، وأخلوا للمنابهة الجو يتصرفون فيه كيف يشاؤون بعد أن كانوا نسيا منسيا.

وبعد هذه الشدائد قامت الدولة لتجديد أسباب السفر لفاس، ونهضت من مراكش في اليوم الثامن من شعبان عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف، ومرت على السراغنة والقلعة، ولما جاءت للمحل الذي تفترق فيه الطرق ومنه يتوجه السلطان لبلاد تادلة على العادة، ولأجل الميعاد المجعول مع عمه مولاي الأمين، ظهر لهم الاعراض عن تادلة، والتوجه على طريق بني مسكين وسطاط وابن رشيد طلبا للسلامة والاختصار، وفرارا إلى النجاة من أولئك الأشرار، ولما سمعها مولاي الأمين سقط في يده، وذهب الأمر إليه بالمجيء للمحلة لكونها قريبة منه، فنهض في الحين ليلا يسمع ذلك أهل تادلة ويصله منهم ضرر أو مكروه، ولما وصل للمحلة اقترح المشي لصلة رحمه بمراكش لأنه طال بتادلة وتوجه واستراح، ثم إن المحلة توجهت على الطريق التي قلنا وعلى فضالة والمنصورية ودخلت للرباط عن نحو عشرين يوما من مراكش قبل رمضان بنحو يومين، ولم تتكلم مع أحد من قبائل الطريق في شيء من

(42) ثلبه يثلبه لامه وعابه، وهي المثلبة وتضم اللام، وطرده وقلبه، وثلمه، «ق».
(43) عبث كفرح لعب، وكضرب خلط، «ق».
(44) العبء بالكسر الحمل والثقل من أي شيء كان، «ق».
(45) فراه يفريه شقه فاسدا أو صالحا، كفراه وأفراه، «ق».
(46) طم الماء طما وطموما عمر، والاناء ملأه، والركية يطمها ويطُمها : دفنها وسواها، والشيء كثر حتى علا وغلب، «ق».

الأمور، فازداد الناس بذلك بصيرة، وعلموا فراغ المحل من أهله، وصاروا ينتظرون ماذا ينشأ عن هذه الخوارق، التي لابد أن يتبعها من الله طارق، ووردت على السلطان طوائف من النصارى في الرباط، واهتزت لهم الدنيا وكثر القيل والقال، ثم نهض السلطان من الرباط بعد مكثه فيه نحو ثلاثة أشهر، [76] وقصد فاسا على طريق بني حسن، ولم* يتوجه على طريق زمور جنوحا للسلامة، ووصل لفاس عن عشرة أيام، وعيد فيه عيد الأضحى عام تسعة عشر المذكور سابقا.

وبعد ذلك بقريب وقع الترتيب في بعض قبائل الغرب، وفي قبائل الجيش أيضا كالشراردة والأوداية وشراقة ومن في معناهم، فزاد الناس تشويشا ونفارا، وتخوفوا من ذلك لعلمهم أنه من عمل الأجانب، وظنهم أنه مقدمة لشيء آخر.

وقبل ذلك بقريب صدر الأمر بأخذ العهد على أهل الدولة وأرباب الولايات والأمناء وكل من كلف بشيء أيا كان، على أنهم لا يقبضون الرشوة ولا يقبلون الهدية ولا يحوزون من أحد شيئا كيفما كان ولا يخونون، وحلفوا على ذلك بجميع أيمان المسمين وتبرؤوا من حول الله وقوته، ودخلوا في حولهم وقوتهم، ثم نكثوا العهد ولم يجر به عمل، وحنثوا في اليمين.

قلت «وقفت في كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد» أن رجلا من آل الزبير بن العوام رضي الله عنه حضر عند هارون الرشيد، وسعى بيحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقال إنه بعد أن أعطيه الأمان فعل وصنع ودعا الناس إلى نفسه، فأحضره الرشيد وسأله عن ذلك فأنكر، فباهته الزبيري، فقال له يحيى إن كنت صادقا فاحلف، فقال الزبيرى والله الطالب الغالب وأراد أن يتمم اليمين، فقال له يحيى دع هذه اليمين فإن الله تعالى إذا مجده العبد لم يعجل عقوبته، ولكن احلف له بيمين البراءة، وهي يمين عظمى صورتها أن يقول عن نفسه بريئ من حول الله وقوته ودخل في حول نفسه وقوتها إن كان كذا وكذا، فلما سمع الزبيري هذه اليمين ارتاع لها وقال ما هذه اليمين الغريبة ؟ وامتنع من الحلف بها، فقال له الرشيد ما معنى امتناعك إن كنت صادقا فيما تقول ؟

[77]

*البـــاب الثالـــث

في أحوال الوقت وأخبار الثائر الفتان، الذي ملأ الدنيا بالأكاذيب والبهتان، وأوقع الناس بذلك في الهوس الكبير والأشطان

لما وقع ما وقع في الوقت من تبدل الأحوال، وكثرة الأهوال، وتغيير عوائد المملكة وسياستها وانهدت الرسوم، وأتت الأيام الحسوم، ظهر الكلام بخروج رجل بنواحي غياثة والتسول والبرانيص وادعى المملكة، وزعم أنه مولاي آمحمد بن أمير المؤمنين مولانا الحسن، وسفسط على أولئك الأغمار، وأعطاهم الأمارات التي صدقوه بها واعتقدوه أنه ولد السلطان حقا، وألقى إليهم كلاما نجع [1] فيهم، ونقّص لهم المملكة ونسبها إلى ما لا ينبغي ذكره، ورمى الدائرة بالكفر والميل إلى النصارى.

ولم يزل يسدي ويلحم إلى أن استمالهم وحملهم على الخروج على المملكة ونقض عهدها، ففعلوا واعطوه البيعة وقاموا معه بقصد الجهاد، ونفي الظلم عن العباد، واخذ تازا واستولى عليها وكانت باكورة عمله، وفيها بلوغ أمله، وخطبوا له بالسلطنة على منابرها، وبينما الناس في أخذ وترك في أمره، ومنهم من حقق خبره ومنهم من لازال شاكا فيه، إذ وقعت وقعة كانت حجة له على ما يقول فاتخذها سلما لغرضه، ونال بها المراد وانتعش من مرضه، وذلك أنهم قالوا إنه لما قرر لأهل الجبال ما قرر في جانب المملكة وثلبها وميلها إلى النصارى، قال لهم وجهوا لفاس من يقتل نصرانيا به لتنظروا ما [78] يقع ويتحقق لكم ما قلته، وإذا مات ذلك القاتل* فيكون قد اشترى نفسه من الله بقتل ذلك النصراني، فوجهوا شريفا غبيا معتوها قليل العقل، فقتل

(1) نجع الطعام كمنع نجوعا : هنأ أكله، والعلف في الدابة والوعط والخطاب فيه : دخل فأثر، كأنجع ونجّع، «ق»

نصرانيا نجليزيا بمكحلة أو خنجر كان معه، ثم هرب لحرم مولانا إدريس رضي الله عنه واستجار به، فبلغ الخبر للدولة وأمرت باخراجه من الحرم في الحين، فأخرج كرها وجلدوه جلدا مبرحا، ثم قتل بالبارود على عين بعض من النصارى، فطار خبر هذه الوقعة في الأفاق، وزادوا فيه ونقصوا، وتحقق لغياثة ومن معهم ما ألقاه إليهم ذلك القائم، وزادوا بصيرة فيه واعتقدوه وصمموا على متابعته وشد عضده، وبايعوه على الموت والجهاد في سبيل الله وتغيير المنكر، فصار يبث فيهم دعواه ويؤلف بين القلوب بترهاته (2) ويلقي إليهم حزعبلاته (3) إلى أن تمكن منهم ناموسه وشاع أمره في تلك الجبال كلها وفي جميع رعية السلطان.

هذا والخوض بنواحي مكناس في الازدياد، واشتد الخطب وأظلم الجو ووقع النهب بداخل المدينة وخارجها، واستغاث الناس، فظهر للدولة أن تجمع الحركة وتتوجه لمكناس لتمهيد أوطانه وتربية الذين هدموا علامة بابور البر والذين كسروا السوق ونهبوه، ومنه تتوجه على طريق زمور لثغر الرباط، وتجلس به أياما ثم تتوجه لمراكش، هكذا كان يقال، وفي قول إنها ترجع من الرباط لفاس وهو قول مرجوح، فجاءت الحركة من الحوز ومن بعض أهل الغرب، وخرج [79] السلطان من فاس في شعبان عام عشرين وثلاثمائة وألف*، ووصل لمكناس عن نحو ثمانية أيام، ثم خرج منه وربط على جروان، وكانت قبائل بني مطير وجروان وزمور في غاية الخوف والدهش، ظنا منهم أن السياسة لازالت على حالها المعهود، وحدها المحدود، وحيث علموا أمرها وسبروا (4) غورها ظهر لهم التجلد والتصريح بالطغيان، وربما تكلم معهم البعض بذلك وشجعهم وهون لهم الأحوال، إلى أن تضارب جروان مع المحلة وقتلوا منها، وصمموا على المقابلة وتعاهدوا مع زمور على ضرب المحلة والقيام على المملكة، ثم انحلت العزائم وسرى الفشل ووقع الخوف في المحلة، وبينما الناس في دهمة دهماء من هذه الأمور، إذ بلغ خبر القائم للمحلة بأنه شاع خبره، وتقوى أمره وأثره، وأنه وصل للحياينة

(2) التُّرَّهة كقبرة الباطل، الجمع ترهات، «ق».
(3) الحزعبل كقذعمل الباطل، «ق».
(4) السبر إمتحان غور الجرح وغيره، كالاستبار «ق».

وطمع في الوصول لفاس، والحكم عليه لخلوه من السلطان، وأن أهل فاس عازمون على الانقياد إليه إذا حاصرهم لعجزهم عن مقابلته.

ولما تحقق ذلك ظهر للدولة النهوض من بلاد كُروان والرجوع إلى فاس لتدارك الأمر قبل الفوات، فنهضت ورجعت إلى فاس في حالة لا ينبغي إفشاؤها والتعرض لشرحها، وبقي كُروان ومن في حزبهم على طغيانهم وعتوهم وعنايتهم، وانحلت عرى الأحكام بتلك الأصقاع، وكذلك باشا مكناس لم يسمع ما يضره ولم يكلم ببنت شفة على ما فعل، ولا تسئل عما نشأ عن ذلك مما لا تسعه الأذهان، ولا رئ فيما تقدم من الازمان.

ثم إن الدولة وجهت جيشا للحصار على القائم ومقابلته ونفيه من أرض الحياينة والقبض* عليه، وكتبت لأولئك القبائل بطرده وترصده، وبذلت مالا كبيرا لمن يأتي به، وأعلمتهم بأنه كاذب في نسبه، وأنه الجيلاني الزرهوني بلا شك ولا ريب، وأن مولاي محمدا لا زال قائم العين بفاس، وألف العلماء في ذلك تأليفا بصروا الناس فيه وبينوا لهم ما يجب شرعا وطبعوه وفرقوه في الأفاق، فلم يغن ذلك من الله شيئا، وكلهم من علماء فاس وقضاتها. [80]

وهم القاضي الفقيه العلامة الأجل المبجل العدل السيد عبد الله إبن خضراء السلاوي.

والقاضي السيد حميد بناني.
والقاضي السيد محمد العراقي.
والقاضي بمكناس السيد أحمد بن الطالب إبن سودة.
والشريف العلوي الفقيه مولاي ادريس بن عبد الهادي.
والشريف سيدي جعفر بن ادريس الكتاني.
والسيد خليل بن صالح الخالدي.
وأبو بكر بن العربي بناني.
والشريف العلوي مولاي الكامل الأمراني.
والشريف الأجل سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني.
والفقيه العلامة سيدي أحمد بن الخياط.
والسيد أحمد بن الجيلالي الأمغاري.

والشريف سيدي عبد الكبير الكتاني.
والسيد علي إبن سودة.
والسيد العابد بن أحمد ابن سودة.
والسيد عبد السلام الهواري.
والسيد محمد بن محمد العلوي المدغري، وغيرهم.

ثم إن القائم ضرب يوما في العشية قرب المغرب على الجيش المذكور وفرق جمعه واستأصله، وبقي في يده جميع ما في المحلة من الخيل والاماء والأخبية والمال والبارود والقرطاس والسلاح والمدافع والمكاحل والكسوة وغير [81] ذلك مما يطول بيانه، وتقوى بذلك، وظهر* للذين تبعوه بركته ويمنه وصلاحه، لأنه كان يعدهم بهزيمة المحلة ووقوع النصر لهم عليها فكان الأمر كذلك، وازدادوا رغبة وبصيرة فيه ومحبة واعتقدوه، وجاء الذين تفلتوا من مخالب المنية من أهل المحلة عراة مبهوتين إلى فاس، ومات كثير منهم بالطريق جوعا وعطشا وقتلا ونهبا من الحياينة، فقابلتهم الدولة بالجميل، ووسعت لهم دائرة كنفها كأنهم لم يقترفوا ذنبا، مع أنهم لو وقفوا ونصحوا الله ورسوله والسلطان لما وقعت لهم تلك الهزيمة الشنعاء التي كانت سببا لجر الجسارة على المملكة، ولكن حيث كان من كبرائهم عباس أخو المنبهي لم ينفع إلا غض الطرف عنهم ومقابلتهم بالجميل.

وفي ذلك الوقت ارتفع الحياء من الجيش، وزالت من القلوب هيبة المخزن ووقعه وهان عندهم أمره، وصاروا أينما توجهوا لا يأتون بخير، وقد كانت وقعت للجيش فيما سمعنا وقعة قريبة من هذه أيام أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمٰن بن هشام قدسه الله، وفتك بالكبراء من ذلك الجيش، ومنهم من اقتضى منه المال، ومنهم من سجنه، ومنهم من عذبه وغربه، ومنهم من حلق له لحيته، إلى آخره، وفي ذلك سياسة لا يعقلها إلا العالمون.

ثم إن الدولة اضطرت إلى إخراج مولاي محمد ليراه الناس، ويعلموا أن القائم المتسمى به كاذب في اسمه ونسبه، فخرج وزار بعض أولياء فاس وذبح [82] *عليهم وطاف بالمدينة وتبرك الناس به، ورجع لمحله واقتصر على خويصة نفسه، وتحقق الناس أن القائم خلافه، وبقي الكلام فيه هل هو الجيلالي

والزرهوني أولا ؟ فمن قائل إنه هو، ومن قائل لا، لما رأوا من صبو وثباته ووفور عقله وشجاعته وفروسيته وإقدامه وخوضه غمرات الموت وقت القتال، ومصادمة الأبطال، من غير مبالات بمن قل أو كثر من الرجال، وحسن سياسته وتدبيو، وسهولة الأمر عليه وتيسيو، فاستحالوا كونه الجيلالي الزرهوني، ولا زال هذا الاشكال واقعا في نفوس الناس، والتحقيق أنه الجيلاني الزرهوني بلا شك ولا ريب.

وأولية هذا الزرهوني أنه كان من أعوان مولاي عمر ولد السلطان مولاي الحسن أيام كونه خليفة عن أبيه بفاس لما ذهب أبوه لتافيلالت، وكان من أهل حنطة الفراش أو من حنطة السجادة، ومن قدر الله أن كان المهدي المنبهي من أعوانه في ذلك الوقت أيضا، وكانت له خلطة بهذا الزرهوني ومعرفة وصداقة، وكانا معا في غاية الفاقة والاحتياج، غير أن الزرهوني كان لبيقا حاذقا ذا تؤدة وإنسانية، بخلاف المنبهي، هكذا قيل، ولما مات مولاي الحسن رحمه الله ووصل الخبر لفاس بموته وبعقد البيعة لمولانا عبد العزيز، اقتضت السياسة تزيين الأسواق وإظهار الفرح وإخراج المدافع على العادة في ذلك، وجاء أهل الطبل والغيطة* لباب دار السلطان بقصد التهنية، فخرج لهم المنبهي [83] والزرهوني وبعض من أصحاب الوضوء وطردوهم، ومزقوا لهم الطبل ونهروهم، قائلين إن ذلك عن أمر مولاي عمر غيظا على موت أبيه، وبلغ خبر ذلك لأهل دولة مولانا عبد العزيز بالرباط، فأمر الوزير بسجنهم وسجنوا، وفي رواية بعد أن أكلوا العصى، ومضى عليهم زمان وهم في السجن إلى أن وقعت الشفاعة فيهم بعد مجيء السلطان لفاس وسرحوا، ثم إن المنبهي تعلق بأهداب عبد الحميد عامل الرحامنة لوجوده وقتئذ بفاس، وصار من أصحابه يأكل الفضلة من الطعام، ويشرب سؤور الرجال، ولم يزل معه إلى أن توسط له عند الوزير في جعله عاملا على المنابهة إخوانه، لقيامهم في الوقت على عاملهم القائد عياد ولد أخيه القائد حميدة بن العربي وخروجهم عنه، فولاه وتوجه إليهم وأبدأ وأعاد في التودد إلى الوزير والتقرب منه والتملق لديه بكل ما قدر عليه إلى أن صار من الخواص عنده، ثم زادت حظوته ومكانته حتى كاد أن يستولي على عقل الوزير، وزاده ولايات متعددات وكبو ورفع بقدره، ولم يزل في زيادة من علو الجاه عنده إلى أن مات الوزير في التاريخ المتقدم، فمال إلى السلطان

في الحين ووصل يده بيده، وكان من أمره ما ذكرناه سابقا ونذكره بعد، وافترس ديار الوزير وفتك بأهله وذويه، وسمعنا أن بعض العقلاء من الناس
[84] *كانوا ينهون الوزير عن مخالطته ويحذرونه عاقبة أمره،وما تحققوه من شؤمه وطيشه ورقة دينه، فلم يسمع ذلك ولم يكن إلا ما أراده الله، والأمر لله كيف شاء فعل، ولما وصل المنبهي لهذا المبلغ العظيم، وصارت أمور المملكة تدور على يده يصرفها كيف يشاء، وسمع بذلك رفيقه الجيلاني الزرهوني وتحققه، قال لهم إذا كان حال المنبهي وصل إلى هذا وهو البارحة صعلوك لا شيء له، ومعتوه لا عقل عنده، فلا يبعد أن أكون أنا سلطانا، وسمعنا أنه وصل إلى بابه مذكرا في الصحبة ولم يعبأ به، ثم قام يطلب الملك الذي لم يكن لأبيه ولا لجده ووصل فيه إلى ما لا يخفى، وما ذاك إلا من شؤم ذلك الرجل وتهوره وكونه ليس من بيت كبير يقف له العار، ويحفظ وجهه مع الله والرسول والمسلمين، ولكن ذلك مبلغه من العلم، ونصيبه من الفهم.

وقد أذكرتني هذه القضية قضية مثلها وقعت في دولة الموحدين والشيء بالشيء يذكر، وهي أن عبد المومن بن علي الموحدي السلطان الأول لتلك الدولة كان قبل أن يتصل بالمملكة خامل الذكر واهي الركن ساقط الفخر، وكان له رفيق وكانا معا فقيرين لا يملكان درهما ولا دينارا، وكان هذا الرفيق يعلم الصبيان كتاب الله، فكان عبد المومن يأتيه إلى المكتب ويجتمع معه فيه،
[85] وكانت بينهما صحبة واتصال، ثم إن الأيام ذهبت وجاءت ورفعت قدر* الرفيق إلى أن صار واليا للسلطان في بعض الجهات، ومر على بعض المواضع وفيها عبد المومن، فقامت عليه القيامة هنالك واهتزت له الدنيا وماجت فرحا وابتهاجا به، فقال لهم عبد المومن ما هذا ؟ فقالوا هذا فلان الفلاني ولاه السلطان، فقال لهم إذا كان هذا حال فلان اليوم فلا يبعد أن أكون أنا أمير المؤمنين غدا، فكان الأمر كذلك فصار أمير المؤمنين، وكان من أمره ما هو معلوم، هذا مضمنها، فقد طال عني عهدها، ولعلني رأيتها في كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب».

ومن جملة المسموع عن الجيلاني الزرهوني أنه صاحب الأربعة آلاف ريال التي انخدع فيها أمناء مرسى الجديدة أيام الوزير السيد أحمد رحمه الله، وذلك أن رجلا أتاهم بكتاب السلطان يأمرهم فيه بأن يدفعوا له أربعة آلاف

ريال بقصد البنيان في بعض الأقطار، فدفعوها وأعلموا الوزير بأنهم نفذوا، فتعجب وبالغ في البحث عن صاحب الفعلة ولم يقف له على خبر، فعاتب الأمناء على الغفلة وألزمهم الغرم، وأمرهم بأن يوجهوا له كتاب السلطان الذي به دفعوا ذلك المال، فوجهوه وذكروا له أوصاف الرجل الذي جاءهم به، ولما رآه وجد الطابع الذي به مماثلا لطابع السلطان، غير أن العبارة فيها بعض اللحن وهو عيب في مكاتيب السلطان، ولما ظهر هذا القائم وسمع وصفه أولئك الأمناء، قالوا إنه هو الذي حاز منهم ذلك المال، وقيل إن صاحب
[86] هذه الفعلة رجل من* السراغنة سكان مراكش يقال له عبد الرحمن، والله أعلم.

ثم إن القائم لما هزم ذلك الجيش وحصل على أموال وسلاح وغير ذلك مما لم يكن له بالبال، انتعش حاله واشتد ساعده وتوسع منكبه وجاءه الناس من كل مكان، متبركين به ومصممين على متابعته في السر والاعلان، وصار يجول في تلك الأنحاء يستميل الناس ويقاتل من عصاه، وطمع في الوصول إلى فاس لقرب بلاد الحياينة منها.

ثم إن الدولة قامت على ساق في تجديد جيش آخر لقتال القائم ومن في حزبه، واستعدت الاستعداد التام، وبلغت المجهود في كل ما قدرت عليه من الخيل والرجال والأسلحة والمدافع الكبار والبارود والقرطاس والأخبية وغير ذلك مما يطول بيانه، واعطت أموالا كثيرة لا حصر لها، واضطرت إلى حشد القبائل وحشرها، والمصانعة معها، ومكارمتها بالأموال الطائلة، والعطايا الوافرة، لأجل الضعف (5) الواقع في الجيوش القديمة التي هي أنياب الدولة وأظفارها، ودربها المنيع وأسوارها، واجتمع لأجل الطمع الفاضح خلق كثير لا ناقة له في المملكة ولا جمل وسواء عنده رفعها وخفضها، وطيها ونشرها، وهم أعوان — بعد — على إحدى الجهتين إن عثرت بها الأيام وخانها الدهر وأوبقها العمل، وخرجت في ذلك أموال كثيرة بلا عدد ولا ترتيب، ولا قانون ولا تهذيب، كأنما الناس يغرفونها (6) من بحر لا ينقضي، وكنز لا ينفذ (7) ولا يمضي،
[87] وتجاوزوا ذلك إلى التبذير، الذي* أعقبه الاقلال والتقتير، وغاية الأمر أن هذا

(5) الضعف من باب قرب قربا لغة تميم، ومن باب قتل قتلا لغة قريش : هو خلاف القوة والصحة، انتهى «مصباح».

(6) غرف الماء يغرفه ويغرفه أخذه بيده، كاغترفه، والغرفة للمرة، وبالكسر هيئة الغرف «ق».

(7) نفذ ينفد من باب تعب نفادا : فني وانقطع، انتهى «مصباح».

الجيش المعقود في هذه المرة لا فرق بينه وبين الجيش الذي يجتمع لسفر السلطان بنفسه، بل هذا أكثر بكثير، وحكم أهل العقول بأنه جيش لا يغلبه غيره إن حضر له حسن التدبير، وأعانه الله العلي القدير، ثم خيموا بقنطرة وادي سبو قرب فاس بنحو نصف ساعة من جهة شروق الشمس خارج باب الفتوح، وأقاموا هنالك مدة مديدة، وعينت الدولة المنبهي كبيرا عليهم، فاجمع رأيه على حفر خندق [8] للمحلة يكون محيطا بها من جميع جهاتها لتتحصن به من العدو، مع أن موضع نزولها هذا ليس بدار إقامتها، وإنما هو محل اجتماعها وتلومها [9] لتمام استعدادها، فأشغل الناس في ذلك ومضى لهم فيه أيام كثيرة ولم يكمل ولم يحصل فيه طائل، وكان العقلاء يرونه من قبيل المحال، ومن باب اللعب وتطويل الأيام وتبذير الأموال، وتكثير سواد الأهوال.

وفي خلال هذه الأمور تركب بفاس الغلاء المفرط الذي لم يتقدم مثله، وقاسى الناس فيه من الشدائد والمحن مالا يمكن شرحه، وقلت الأقوات وارتفعت الأسعار ارتفاعا غير معتاد، واشتد الخطب وكثرت الفتن في كل النواحي، وصار الناس كمن لا وازع لهم، واشرأب [10] النفاق، وكثرت الآراء وبقي الناس حيارى لا يدرون ما يفعلون، وسرى الفساد في الرعية على الاطلاق، حتى الجيوش.

[88] فكم قطع الشراردة من طريق، وكم نهبوا وفتكوا من فريق، وأيبسوا من* ريق، ثم تطاعموا مع زمور وتواددوا، واتفقوا على أن تكون كلمتهم واحدة على جانب الدولة إذا قصدتهم بسوء.

وقبل ذلك بقليل قام جيش الفحص بطنجة وخلعوا الطاعة وأكلوا ونهبوا، وقبضوا على قائد مشور عاملهم بركاش، وفقئوا عينيه بالنار وجلدوه وعذبوه بأنواع العذاب، فافتكه منهم بعض الناس بعد أن فداه بما أحبوا من المال، وبلغ الخبر للدولة ولم تزد شيئا على عزل عامل بركاش عنهم وتولية غيره، فازدادوا يقينا في الأحوال، وبقوا على عتوهم وطغيانهم، وفشى ذلك الخبر المكدر

(8) الخندق كجعفر حفير حول أسوار المدن، معرب كنده، «ق».

(9) تلوم تلوما تمكث، انتهى «مصباح»

(10) اشرأب إليه : مد عنقه لينظر أو ارتفع «ق».

للخواطر والألباب في تلك الجبال والنواحي، وأشاعه الأجانب في أقطارهم وزادوا فيه ونقصوا، وتحققوا به الوهن الحاصل في الوقت، ولا تسئل عما نشأ عن ذلك من الاضطراب والنهب وقطع الطرقات، ولا سيما بذلك الصقع الذي بعد عهده بالأحكام السلطانية.

ثم قام الريسوني بتلك الناحية ووصل يده بيد القائم، وشغب [11] على الدولة وجمع الجموع، وأبدأ وأعاد في الفساد والتخريب والنهب والقتل، وتجنى على جانب الدولة بكل ما قدر عليه من الأمور الفظيعة، وسار صيته مسير المثل، وتملك على تلك الجهة كرها، وكاد أن يستأصلها ويستولي عليها كلها، لولا أن الدولة أطفأت جمره بأموال كثيرة سربتها له، بعد اشتطاطه فيها غاية الاشتطاط، وتولية السلطان إياه على قبائل تلك الناحية وفاء بشرطه، وهو — الآن — كبير قومه، ريان من استراحته ونومه، آمن مطمئن في نفسه وأهله وسربه،* وقد كان هذا الريسوني من شياطين الانس في أوله، فاحتال عليه [89] السلطان مولاي الحسن رحمه الله وقبض عليه وخلده في سجن جزيرة مرسى الصويرة وأراح منه البلاد والعباد، ولما جاءت دولة مولانا عبد العزيز نصره الله تسبب في تسريحه بعض من غش السلطان والمسلمين، فبرز منه هذا المنكر العظيم الذي لم يتقدم مثله لغيره في ذلك القطر، وأعيا الدولة أمره، وارتكبت سياسة كبيرة على كل وجه، وأعطت أموالا جليلة في تحصيله ولم يقدره الله، ولو تتبعت أمره وشرحت حاله لاحتجت إلى مجلدات، وغاية القول فيه أنه تجاسر على المملكة جسارة كبيرة، وأساء عليها الأدب وأهانها، وكشف جلباب الحياء عن وجهه معها، وما أبقى للصلح موضعا، والله اعلم بما تؤول إليه عاقبته، وتقتنصه عائلته.

ثم إن المنبهي تحرك بالمحلة من موضعها بعد اللتي واللتيا، والأوامر التي لا خيار فيها ولا ثنيا، وسمع به القائم وصوب وجهته إليه إلى أن تلاقيا في محل ضل عني اسمه من بلاد الحياينة، ولعله يسمى نخيلات الثلاثاء، فقام الحرب بينهما على ساق، وصبر الفريقان صبر الكرام، واحتسى الناس كؤوس الحمام، وفي اخر الأمر انكسر القائم ووقعت عليه الهزيمة، والغلب الذي لم تنفع فيه

(11) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح هيج الشر عليهم «ق».

تميمة، لوقوع الغش ممن معه بما حازوه من المال، وكاد أن يقع القبض عليه
[90] باليد لولا أنه رجل شجاع مقدام، وشهم ذكي ضرغام، وقد أظهر في ذلك*
اليوم من الشجاعة ما شهدت به أعداؤه، بعد أن أسلمه أنصاره وأولياؤه،
وأصيب فرسه وترجل، وبقي السيف في يده يضرب به وما نكل ولا تنصل،
إلى أن تفلت من مخالب المنية، وأظفارها البطاشة القوية، وذهب لترميم جمعه،
ورتق فتقه وصقعه، وبقيت مضاربه وفساطيطه بيد المحلة، وكانت السياسة
تقتضي أن تتبعه الخيول، قبل أن ينجلي عنه غمام الروع ويزول، لأنه بقي
راجلا منفردا ليس معه إلا نحو العشرة من الرجال، والناس يرونه ماشيا على
مهلته غير مكترث بمن قل أو كثر من الأبطال، ولكنهم قنعوا [12] من الغنيمة
بفراره، وبعد مزاره، ظنا منهم أن عاديته انقطعت، وجموعه تمزقت واندثرت، مع
أنه ذهب لما هو أفظع، وأدهى وأقذع، وأمر وألذع، وحيث لم يحصل في ذلك
اليوم ولا فل من غربه ذلك الهول علم الناس أنه أمر له ما بعده، وأنه صقر لا
يناله البوم ولو أفرغ جهده، وأفنى موجوده ورفده، وهب أنهم أفلتوه، في ذلك
الوقت الذي كان عليه أضيق من ثقب إبرة وأحرج من أفحوص [13]
قطاة [14] وأغفلوه، فلما ذا رجعت المحلة بعده القهقرا، وتأخرت إلى ورا، إلى
أن آل بها الأمر إلى التخييم بمحلها من قنطرة سبو ونفست عن الأعداء
ضنكهم وكربهم، ووضعت عنهم إصرهم، وأفرجت غمهم وهمهم، وأبلعتهم
ريقهم، حتى راجعوا بصيرتهم، وراشوا عزيمتهم، وصاروا يدا واحدة في
الانحراف، وركوب متن الاباية والخلاف، ولكنها لا تعمى الأبصار، وليس بيد
الانسان اختيار.

[91] *ثم إن القائم بعد وقوع الهزيمة عليه توجه لتازا ومنها نهض للريف
ونواحي وجدة، فتملك ذلك القطر في أقل من طرفة العين، ودخل وجدة
وخطب له على منابرها، واستبد بأموالها وذخائرها، وتناول أعسار ديوانة مليلية

(12) قنع يقنع بفتحتين سأل، وكفرح رضي «ق».
(13) الأفحوص مجثم القطا، جثم الطائر يجثم ويجثم بكسر المثلثة وضمها ــ جثما وجثوما لزم مكانه فلم يبرح، وفي «المصباح» فحصت القطاة فحصا من باب نفع حفرت في الأرض موضعا تبيض فيه، واسم ذلك الموضع مفحص بفتح الميم والحاء.
(14) القطاة : ضرب من الحمام، الواحد قطاة، انتهى «مصباح» .

وحازها، ووطد أكنافها وأحوازها، وصار في يده حلها وربطها، واقتضى أموالا كثيرة من أولئك القبائل وجاسها، وحكم عليها وساسها، واتخذ الخيول المسومة، والجيوش الكثيفة المقومة، وبرقت له بارقة في تلك الأوطان، وتشبَّه في زيه وحليته بالسلطان، وطارت بأخباره ومآثره الركبان، وحاول في أقرب مدة ملكا لم يتيسر إلا لمن ومن في الكثير من الأزمان، وأصبح ذلك القطر العريض في قبضته، واحتوى عليه برمته، ثم صار يكتب من هنالك لأعياض (15) قبائل رعية السلطان، ويستميلهم للدخول في حزب الشيطان، وحصل في الرعية بذلك هوس كبير، وشر أثير، وكادت أن تنجع دعوته، وتتيسر رغبته، لولا أن الله سلم.

ولما تملك قطر وجدة واهتزت أرجاؤها لصولته وهي مجاورة لقطر تلمسان والجزائر، اقتضى نظر الدولة الفرنسوية أن يأتي كبيرها للجزائر وغيرها لاختبار أحوالها، ومنها يتوجه إلى تونس ثم يرجع لباريز، ولما علم السلطان بذلك تعين عليه أن يُتوجه من قبله للجزائر من يلقاه هنالك بقصد تهنئته، [92] أداء لحقوق الجار، كغيره من الملوك المجاورين لهم بتلك الأقطار*، فوجهني لذلك مع المحب الأجل الأمين الأحفل السيد بناصر غنام الرباطي، وسيأتي الكلام على ذلك في الباب الرابع إن شاء الله تعالى.

ثم إن الدولة لما رأت ما آلت إليه الأحوال، من كثرة الأوحال والأهوال، اقتضى نظرها توجيه المحلة المخيمة بنهر سبو لأخذ تازة ونواحيها، وترميم أمرها وتلافيها، ليحصل التعويق للقائم عن مراده، ويكون فتا (16) في عضده وعضد أجناده، ويتيسر الوصول إلى وجدة والريف، وتسكن أدواح ذلك القطر من ريح ذلك الأجدل الوزيف (17) ويضيق عليه المجال، ويحصل في القبضة وينال، وقد يمكن ذلك لو كان السائق لتلك المحلة من بيت كبير، وأخواله مصحوبة بالفتوح والتيسير، والرأي المحمود الشهير، فأفرغت الدولة في هذه المرة جهدها، ونفضت خزائنها فيها كلها، وأعطت للمنبهي زمامها

(15) الأعياص أي الأصول والخيار، «ق».
(16) الفث الدق والكسر بالأصابع، والشق في الصخرة، وفت في ساعده أضعفه، «ق».
(17) الوزيف أي السريع كما يوخذ من القاموس، والأجدل الصقر، وكل شيء يصيد من البزاة والشواهين، والشاهين طائر معروف «ق».

ورسنها، وعززته بابن يعيش قائد مشورها، وذهب يجر المحشر في كثرة الخلق من ورائه، وكلمته نافذة فيهم بكل ما يبدي من سيرته وآرائه، فمضى والحتف يغازل [18] أولئك الأمم بمقلة عشواء [19]، وينعيهم بجحفلة [20] شوهاء، وتبكيهم الأطلال والربوع، وتهطل عليهم مواطر الأحزان والدموع، ثم اعتكف على لذاته، وتنعطاته وتهوراته، والغرائب المعلومة من تهتكاته، وسماع الغناء والعود، واللحون التي تسلي الحزين عن كل مفقود، وتوزيع الأموال على الصادر والوارد بغير حق ولا قانون،وإعطاء السلاح للاعداء والقرطاس★والبارود، وغير [93] ذلك من الأمور الخارجة عن أفعال العقلاء، وأذهان النبلاء، في جميع المسكون، فتساهل إذ ذاك معه أولئك الأعداء في المرور بأرضهم، بعد أن ملأوا بطونهم وأيديهم من الذخائر والقوة التي أورثت لهم الفخر ولأولادهم من بعدهم، وهم مع ذلك متحققون بأن تلك الجيوش أكلة جاءت إليهم، وطعمة وضعت بين أيديهم، ولسان حالهم يقول لم آمر بها ولم تسؤني، فدخل تازة وطار بها فرحا، ومشى في الأرض مرحا [21]، وظن أن جمرة ذلك الصقر انطفأت، وسورته [22] ولت ورجعت، وأنه إلى ذلك القطر لا يعود، ولا توفى له في تملكه والحكم عليه وعود.

ثم كتب للدولة واستحثها على قدوم السلطان بنفسه لتازة ليراه الناس، ويرتفع بمحياه الاشكال ويزول الالتباس، فتثاقلت لعلمها بالأحوال، وبقاء وجود الأهوال، ولأن وصول المحلة لتازة لم يكن على الحال المعهود، من أحوال الجيوش والجنود، ولم تظهر لأهل ذلك القطر طاعة، ولا دخلوا فيما دخلت فيه الجماعة، فكيف يتأتى للسلطان الوصول إليهم وهم باقون على انحرافهم، وعتوهم وطغيانهم، وإيقاد نيرانهم، ولما استبطأ الأمر وجه قائد المشور ابن يعيش لاستنهاض السلطان، وحضه على المجيء إليه في تلك الأوطان، وملأ

(18) المغازلة المحادثة «ق».

(19) العشا مقصورة سوء البصر بالليل والنهار، عشي كرضي ودعا عشى، وهو عش وأعشى، وهي عشواء «ق».

(20) الجحفلة بمنزله الشفة للخيل والبغال والحمير، «ق».

(21) مرح كفرح أشر وبطر واختال ونشط وتبختر «ق».

(22) سورة الخمر وغيرها حدتها، كسوارها بالضم، ومن المجد أثره وعلامته وارتفاعه، ومن البرد : شدته، ومن السلطان : سطوته واعتداؤه، «ق».

الفضاء بأكاذيب وبهتان، وخرافات [23] واهية المسانيد والأركان، فنهض السلطان والقلوب تتحسر على ذلك، *وتتوقع شيئا عسيرا هنالك، في [94] الخامس والعشرين من ربيع الثاني عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف.

ولما بلغ خبر أخذ تازة للقائم بأقطار وجدة وخروج السلطان أمر قومه بقطع الطريق، ومنع المرور بها عن كل رائح وغاد وعن كل فريق، لتنقطع المحلة بتازة عما يصلها من المدد والمرافق، وتتلاشى جوعا وإهمالا بين تلك الأوعار والجبال الشواهق، وشجعهم وقواهم، وبشرهم بأنهم سيبلغون من المحلة مناهم، ووعدهم بالمجيء إليهم، والتخييم في وسطهم، وكتب لأولئك الجوار بالتعاضد والتناصر، وترك الخلاف والتنافر، ليلا تناالهم الأيدي وتحل بهم الدواهي وبصرهم في الأمور، وأوقر [24] منهم بالغل [25] والوحر [26] القلوب والصدور، فامتثلوا أمره، وتدرعوا والتحفوا فخره، وأبدأوا وأعادوا، وما تثبطوا ولا كادوا، وفعلوا الأفاعيل التي بقيت في صفحات الدهر مسطورة، وعند الأصاغر والأكابر منشورة، وحصلوا على أموال وذخائر وأسلحة لم تسمح بها النفوس، ولا تجمعها الصحائف والطروس.

ثم إن السلطان لما خرج من فاس في التاريخ المتقدم خيم بقنطرة وادي سبو أياما قلائل، ونهض يؤم تازة بعد أن استدعى الناس من كل مكان، ووعدهم بالعطاء وغاية الاحسان، وبذل المجهود على حسب المقدور والامكان، واستعد الاستعداد التام، وذهب يجر الذر والرمل من الأنام، إلى أن وصل للحدود بين الحياينة* والتسول، الذين لم تزل جرائمهم تعظم وتهول، وخيم في [95] محل يسمى طبوعبان، حيث تحقق أنهم باقون على الطغيان، والتمادي على العصيان، وخاطب أولئك البغاة بالرجوع للطاعة، والدخول فيما دخلت فيه

(23) خرافة كثمامه رجل من عذرة إستهوته الجن فكان يحدث بمارءا، فكذبوه وقالوا حديث خرافة، أو هي حديث مستملح كذب، «ق».

(24) الوق بالكسر حمل البغل أو الحمار، ويستعمل في البعير، وأوفر بعيو بالألف، وانتهى «مصباح».

(25) الغل بالكسر الحقد، انتهى مصباح

(26) وحر كفرح صدره علي يحر ويوحر ويَيْحر فهو وحر استضمر الوحر، وهو الحقد والغبظ. والغش، «ق».

الجماعة، وخوف وأنذر، وأوعد وحذر، وفسح الدائرة لمن تاب، ورجع إلى الله وأناب، فقامت قيامتهم، واستحيلت سلامتهم، وعلموا أنهم صاروا بين جيشين الجيش الذي بتازا والجيش الذي بطبوعبان وكلاهما جيش جرار، وبحر زخار، وسلاح وأموال كأنما فاضت بهما الأنهار، آناء الليل وأطراف النهار، فمالوا إلى المصانعة مع الامام، ووعدوا بالانقياد لأجل عينوه من الأيام، وهم كاذبون وإنما الوقت اقتضى مجاراتهم في الكلام، ولما امتد الأمر وطال، وظهرت أمارات المحال، بدا للدولة مناوشتهم بالقتال، ليذوقوا وبال أمرهم، ويتجرعوا نكال شرهم، ويرجعوا للطاعة قهرا، ويتمسكوا بها نهيا وأمرا.

وبينما الدولة تحاول هذه الأمور، وتروجها في الورود والصدور، إذ تسلل المنبهي من محلة تازا وجاء يهرول إلى محلة السلطان، وترك محلته واقعة في أشطان، ومتسربلة في هموم وأنكاد وأحزان، بسبب بقائها بيد من ليس له ولوع إلا في احتجان (27) أموال رواتب المحلة واختلاسها، والاستبداد بسائر أنواعها وأجناسها، وسرى لها التفريط والضياع، وتفرق جلها في البقاع والأصقاع، وحل [96] بها من الدمار والهلاك* ما لا تفي به العبارة، وماتت الخيل والبغال والجمال جوعا وتفريطا لتعسر المرافق وتعذر الرواتب ووقوع الحصار على تازا من جميع جهاتها.

ثم إن الدولة قاتلت أولئك البغاة أولا وثانيا وثالثا وما لانت حدتهم، ولا انكسرت شوكتهم، وفي أثناء ذلك ورد عليهم القائم محمولا لمرض ألم به، كاد أن يحل (28) رمسه بسببه، فمن قائل إنه مضروب بالبارود في قتال كان بينه وبين أهل قصبة أمسون، ومن قائل إن الرصاص لا يؤثر فيه وإنما ضربه قربوس سرجه، وعلى كلا الروايتين فقد سقط من على ظهر فرسه حين القتال، وبقي منبوذا بمحل المعركة لا حراك به حتى إنهم قطعوا بموته، وذهابه وفوته، فأتاه قومه وحملوه وذهبوا به آيسين من حياته، وحيث حل بالتسول ما حل بهم من جهة السلطان استحثوه (29) على القدوم إليهم على أي حالة كان، فجاءوا به

(27) احتجن المال ضمه واحتواه، «ق».
(28) حل المكان وبه يحل ويحل حلا وحلولا نزل به، كاحتله وبه فهو حال، الجمع حلول، «ق».
(29) حثه عليه واستحثه وأحثه : حضه فاحتث، «ق».

• بيس مه أكثر من الطمع فيه، وأنزلوه في وسطهم وبين حللهم ومداشرهم في محل بين تازة وطبوعبان بينه وبين محلة السلطان نحو أربع ساعات، وزادوا به شدة ومكرا، وتفجروا نارا وجمرا، وقابلوا محلة السلطان في نيف وعشرين معركة، وحضر السلطان بنفسه في بعضها، وزاد بهم الأمر إلى أن طمعوا في الضرب على محلة السلطان واغتيالها، وجاءوا إليها ليلا مرات متتعددات ولم ينالوا شيئا منها.

هذا وأخبار محلة تازة غائبة عن محلة السلطان، لتعسر الطريق [97] وانقطاعها، وحراسة الأعداء* لها وترصدهم للمارين بها، ومسافة ما بين المحلتين نحو ست ساعات، وحيث طال الحال، وتكاثرت الأهوال، وانبهمت الأحوال، ظهر للدولة أن تقتحم ذلك الجبل على القائم عنوة وقهرا، وتشبعه ومن معه ضنكا وعسرا، فكتبت لمحلة تازة بالقدوم لموضع عينوه لها، في يوم عزمت الدولة على النهوض فيه والنزول بذلك الموضع، لتجتمع المحلتان على أولئك المارقين، وتطحنهم طحنا يصيرهم في دمائهم غارقين، ولما وصل اليوم الموعود، وحل الأجل المحدود، نهض جل الأعيان والفرسان الصحاح من محلة تازا قاصدين المحل المعين لهم، وحيث وصلوه لم يجدوا به محلة السلطان، فسقط في أيديهم ووقفوا وقفة ينتظرونها، ثم ظهر لهم مجاوزة ذلك المحل لعلهم يتلقونها آتية لذلك الميعاد، ولما لم يظهر لهم أثرها ولا خبرها ولم يمكنهم الرجوع لتازة زادوا قاصدين محلة السلطان أينما كانت، وحيث توسطوا الطريق تناثل (30) إليهم الأعداء كالجراد المنتشر وسدوا عليهم الأبواب، وكل المسارب والأنقاب، ورموهم بالرصاص من كل مكان وقتلوهم قتلا ذريعا، وتركوا جثثهم هنالك مأذبة للذياب، ومأكلة للكلاب، وما تفلت من تلك الوقعة الهائلة، إلا من كان له العمر الطويل، وسلبوا ذلك الجيش اللهام (31) من أمواله وملابسه وأسلحته وكثير من خيله، وأذاقوه الفتك الذي لم يكن في البال، ووصلت بقيته لمحلة السلطان على حالة تبكي الأحباء، وتسر الأعداء، ووجدوها في [98] محلها المعهود،* كأن لم يكن منها لهم عهود ولا وعود، وبقي الناس حيارى

(30) نثل الركية ينثلها استخرج ترابها وهو النثيلة والنثالة، والكنانة:استخرج نبلها فنثرها، وتناثلوا إليه انصبوا«ق»،وهي من باب قتل.
(31) اللهام كغراب : الجيش العظيم،

ينظرون، وعلى هذا الخطب يتاسفون ويتحسرون، ولم يعلموا السبب الذي تخلف به الوعد بين المحلتين، واغتاظت القلوب وسرى النفاق ووقع الفشل ماء اليدين، وأخذ الناس في تخفيف الأثقال وتوجيهها لفاس، خوفا مما عسى أن يصبح أو يمسي من الأهوال والباس، وزادوا يقينا وبصيرة في الأمور، وعلموا أن ما يحاولونه إنما هو ضرب في حديد بارد، وانحطت الهمم عن مقاومة ذلك الشيطان المارد، وفي خلال ذلك أمرت الدولة بحفر خندق يكون محيطا بالمحلة صيانة لها من هجوم الأعداء، ثم أمرت بعد ذلك بإدارة سور من البنيان عليها، فوقع الشروع فيه وفي الخندق ولم يكملا، وكان ذلك عند الناس من باب المستحيل البعيد، والأمر الغريب الوحيد.

وبينما الناس يتأملون في عواقب هذه الأمور، إذ جاء الخبر بأن رجلا من آيت شغروشن ثار بنواحي آيت يوسي وزعم أنه شريف، ورام الانتزاء (32) على الملك وشوش وفتن الناس، فوجهت الدولة لحسم مادته، وإبطال عاديته، القائد عمر عامل آيت يوسي بعد أن هون أمره لهم وسهله، فتوجه وكانت عاقبة أمر القائد المذكور أن قتل وذهب كأمس الدابر، لسكنى المقابر، وصار حال الوقت كقول القائل

تكاثـــرت الظبــــاء على خداش فمــــا يدرى خداش ما يصيــــد

[99] ثم ظهر للدولة أن ترجع لفاس، وترجىء أمر هؤلاء الأنجاس* لوقت آخر، فكتبت لمن بقي بتازا من المحلة بالاحتيال على الخروج منها والمشي إلى وجدة، حيث لم يمكن إتيانهم للمحلة عند السلطان، وذلك بعد أن يفسدوا الأثقال الباقية عندهم ويحرقوها، حتى لا يجد الأعداء بعدهم شيئا ينتفعون به من متاعهم، حيث ضاعت البهائم كلها ولم يكن ما يحملون عليه، فكم حرقوا من خزائن وأفسدوا من مدافع وقتلوا من خيل ضعيفة ومن بغال، ثم خرجوا قاصدين قصبة العيون، ومنها إلى وجدة.

وأما محلة السلطان فإنها نهضت أيضا من طبوعبان راجعة لفاس في اليوم المعين لنهوض محلة تازا، ليكون نهوض المحلتين معا في يوم واحد ليلا يجد الأعداء سبيلا وفراغا لأحدى المحلتين عند فقد الأخرى، ودخلت لفاس في

(32) الانتزاء : الوتوب.

أواسط شعبان عام واحد وعشرين المتقدم، فكانت مدة غيبتها في هذه الوجهة نحو الثلاثة أشهر، ولما وقع الافراج عن أولئك الثوار نهضوا بمتبوعهم وأدخلوه لتازا، فاستقر بها مدة إلى أن صح من مرضه، وكان من أمره ما نذكره بعد أن شاء الله تعالى.

وهذه الخطوب التي وقعت، والخوارق التي ظهرت وانتشرت، إنما هي من سوء التدبير، وعدم التثبت من المباشر والمشير، ولا يخلوا ذلك من غش ومن نفاق، وعدم الائتلاف والوفاق، ولا سيما من جهة الرسل الذين كانت الدولة تعتقدهم وتوجههم لرتق الفتوق، ورفء الشقوق، مع أهل الشقاق والفسوق، فقد ثبت من خارج أنهم أعدى الأعادي على جانب الدولة، وأنهم [100] إنما كانوا جواسيس وعيونا *عليها يبلغون عنها كل قبيح ويكشفون عن عوراتها، ويدلون الأعداء على مواضع عثراتها، والوجه الذي يتوصل به إلى نكباتها، وكانت الدولة تعاملهم بالجميل، وتبالغ في إكرامهم بكل خير جزيل، إلى أن ظهر عليهم من الأموال والذخائر ما صاروا به من أكابر الأغنياء، بعد أن كانوا فقراء أغبياء، والدولة تظنهم بررة أتقياء، وأحبة أولياء، وفي الحقيقة إنما هم مردة أشقياء، وكيف يرجى خيرهم في مثل هذا الموطن، وهم من أهل ذلك المعطن، وأولادهم وديارهم وأموالهم في وسط أولئك البغاة، وهم أصهارهم أيضا وحلفاؤهم، فكان من حق الدولة أن لا تحرك ساكنا لمن هذا وصفهم، ولكن الواسطة معتوه، ولا يخلو مع ذلك من غش للدولة كما قلنا ووهن يامله لها ويرجوه، وإلا فمن البعيد الغريب أن تغلب قبيلة التسول تلك الجيوش وتصدها عن مرادها، وإصدارها وإيرادها، وقبيلة الحياينة، التي هي من القبائل المهينة عند الدولة كانت تغلب التسول وتقاتلهم في قعر ديارهم، وتشغلهم عن معائشهم وأوطارهم، وتخرجهم من عششهم وأوكارهم، وتضيق عليهم المجال، وتفوق إليهم سهام الأنكاد والأوجال، والأمر لله كيف شاء فعل.

وإذا تصدر للرئـــاسة خامـــــل   جرت الأمور على الطريــق الأعــوج

ولما حلت الدولة بفاس فرقت تلك الجموع، واستراحت من وعثاء السفر المفجوع، وذهب كل فريق لحاله، وشيعوا في أقطارهم كلاما لا تحمله القراطيس ولا تسعه العقول، وآل الأمر إلى قيام القبائل قاطبة على العمال، [101] وإخراجهم من ديارهم واستيصال أموالهم، ومنهم من مات قتلا* كالعـ

الجيلاني الدمناتي بدمنات، والقائد عمر اليوسي المتقدم الذكر، والقائد الخلخالي بأصيلا، وغيرهم ممن لم تحضرني الآن أسماؤهم، وما سلم منهم من الاذاية إلا من تواطأ مع قبيلته على ما أجبت من الاعراض عن جانب الدولة وتنفيذ أوامرها، فادركت الرعايا بذلك مرادها، وأبدت لددها وعنادها، وتوسعت في الطغيان، وملأت منه الزمان والمكان، والزوايا والأركان.

وتوالت على الدولة في خلال هذه الأمور الدواهي والخطوب، والهزاهز والكروب، يشيب لها الغراب، واضطرت الدولة وافتقرت، وحجت في كعبة النحوس واعتمرت، ولحقها الوهن الفضاح، وكادت أن تلقي السلاح، وتعترف بالعجز الصراح، وتحملت ديونا كثيرة أولا وثانيا وثالثا من الأفرنج والروم، وظهر عليها من الكآبة وسوء الأحوال ما هو شهير معلوم، وذهب ذلك المال شذر مذر، حتى لا خبر له ولا أثر، ومع ذلك فكانت تمد الجيش الذي أفرغ تازة وذهب للعيون وترضخ له بما يبقي عليه رمقه مرة بعد أخرى.

إلى أن استراح القائم من مرضه، وهب من سقمه، فأمر بحصار العيون وقطع المرافق عنها، فعاين أهلها الموت الأحمر، وقاسوا من الشدائد صنوفا، ومن المكائد ألوفا، ولما أعيتهم الأحوال، ولم يكن من ينجدهم من تلك الأهوال، خرجوا من العيون وأفرغوها، وتوجهوا إلى وجدة ويمموها، ومن ثم صارت دائرة القائم في اتساع، وملأ صيته تلك الأصقاع والبقاع، وجبى أموالا وذخائر من [102] أولئك الأغمار رغما، وقاموا بطاعته* نهيا وأمرا، وظهر لهم أنه لم يكن من يقاومه وشهدوا له بالشجاعة، والسياسة البالغة والبراعة، ثم خرج من تازة لتدويخ تلك الأقطار، وقضاء ما له فيها من الأوطار، فقابلوه بالسمع والطاعة وطأطأوا له رؤوسهم وأذعنوا، وأذاعوا مناقبه وأعلنوا.

فأدته خاتمة المطاف إلى الحصار على قبيلة بني بوزكُوا لبقاء عاملها البوزكَاوي على طاعة السلطان فخاطبهم بالذخول في عهده وأوعد وحذر، وخوف وأنذر، وطلب من العامل البوزكَاوي مصاهرته بإحدى بناته ليتم له المراد، ويتأتى له في تلك الناحية ما أراد، فلم يجد العامل بدا من إظهار طاعته، وإضمار مخادعته، فأجابه بالقبول، وبلوغ المنى وغاية السول، وطلب منه أن يرسل إليه في هذا الغرض وجوه القبائل التي معه تنويها بقدره، واعتناء

بأمره، فوصله منهم جم غفير، وجمع كبير، ولما عسعس الليل الداج، فرى منهم الأوداج، ورماهم بالداء الذي لم ينفع فيه علاج، وأبادهم قتلا وذبحا، وصدح بنعيهم غراب البين صدحا، ولفحتهم نار تلك الفتكة الوخيمة لفحا، وتركوا في النجيع مدرجين، ولا حراك بهم ولا أنين، وهم ستون رجلا وقيل سبعون وقيل تسعون، ثم هرب في ذلك الوقت تحت الليل مع بعض أهله وذويه، وشمى إلى وجدة لعلمه أنها البلد الذي يكنه ويؤيه، وفي الصباح بلغ الخبر للقائم بما وقع بأصحابه، فتحسر وتأسف وذهب إلى دار البوزكاوي وهدمها، واستأصل موجودها وأثاثها*، ونهب زروعها وذخائرها، وتقبض على [103] بعض أولاد البوزكاوي فيما بلغنا واسرهم، ثم حكم على قبيلة بني بوزكوا قهرا، وولى عليها العمال، وجبى منها أموالا كثيرة تجل عن الحصر.

ثم سار إلى جبل بني يزناسن وهو ما هو في كثرة الناس، وقوة الباس، فدخلوا في جماعته، وتمسكوا بطاعته، وبذلوا له أموالا طائلة، وجال في تلك الأقطار وطول المقام بها، وأعانه في هذه المرة على ذلك أبو عمامة الشيخي وشد أزره، ووصل يده بيده، وأصله من رعية الجزائر، فهرب لأمر حل به من جهة الحكام وجاء يهرول إلى رعية السلطان بناحية الصحراء، فاعتقدوه واجتمع عليه منهم جم غفير، وأخذ يستميل الناس ويغريهم على الانتقاض على المملكة، واستدعاه السلطان إليه وعصى ولم يمتثل، ولم يزل على ذلك إلى أن اتصل بالقائم وصار معه يدا واحدة على المملكة والتشغيب عليها، وتفويق سهام المكائد إليها، ثم إن بني يزناسن انتقضوا على القائم، وقيل إنما انتقض عليه بعضهم ورجعوا إلى طاعة السلطان، وسرى له بعض الفشل بسبب ذلك وقارب أن تنحل عراه، ووقعت له مع محلة السلطان التي بوجدة معارك عديدة يشيب لها الوليد، ووقعت عليه الهزيمة في غالبها على ما بلغنا، ولازالت الحرب قائمة بينهما على ساق، تارة لهذه الناحية وتارة للأخرى إلى الآن، وحتى الآن، وهو أوسط محرم الحرام* فاتح عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف. [104]

وأما ما يرجع لأخبار المنبهي فإنه لما حل بالمملكة ما حل بها بسببه، وتبين سوء صنيعه وتدبيره، نقص في أعين الناس والسلطان، واستثقلته الدولة ومجته القلوب، ورماه الله تعالى بمن حال بينه وبين السلطان ومنعه من الدخول عليه في المجلس الخاص السري الذي كان له معه، وهو من غرسه وعمل يده،

وكما يدين الفتى يدان، فضاق ذرعه وقل صبرو، ثم اختبر حاله من جهة السلطان ليرى كيف هو عنده، فطلبه المشي للمشرق بقصد الحج وساعده وأذن له فيه، حيث صارت شمسه على أطراف النخيل عنده، فذهب يابس الريق، وفي بحر الحيرة والتحسر غريق، وذلك عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، بعد أن أبقى من ورائه نائبا عنه على مكانته التي هي الرياسة على سائر العسكر، ظنا منه أنه يرجع إليها إذا أتى من المشرق، ولسان الحال يناديه هيهات هيهات، فليس الماضي كالآت، فذهب في هيئة وثروة حدث عنهما ولا حرج، وحج من العام المذكور، ورجع بهدايا وافرة كثيرة الأنواع بقصد السلطان، وحيث حل بثغر طنجة وجه مكتوبه إعلاما للسلطان بوروده من الحج، وبأنه أتى بهدايا لجانبه عز نظيرها، وبعث نعوتها وتصاويرها ليرغبه فيها، [105] ويشوقه إليها، وفيها بعض الوحوش★ والنساء العجميات، اللاتي هن في الحسن متناهيات، وأقام بطنجة منتظرا للجواب، وعند نزوله من البحر أقام له العامل وكبراء البلد مهرجانا كبيرا، وضربت المدافع بالمرسى لأجله، وتلقاه الناس بالإجلال والترحيب، والبرور العريض الرحيب، ولم يكن عنده شك في ورود جواب السلطان عليه بزيادة التنويه به والتكريم، والخطاب الجليل الفخيم، ولما وصل أصحابه لباب دار السلطان بفاس دفعوا ما عندهم من مكاتيبه لجناب الامام وأرباب الدولة، فأعرضوا عنه وقلبوا له ظهر المجن، وكان جوابه أن صدر أمر السلطان بعزل العامل الذي بطنجة لأجل المهرجان الذي أقام له، وبتوبيخ بعض كبراء طنجة على ذلك، وبعزل بعضهم من الخطط التي كانت بيدهم، كولد بنيس الذي كان من أعيان أهل المجلس الذي يعقد للنظر في الأمور الأجنبية بدار نيابة السلطان بطنجة، لأنه مال إليه بكليته، ووقع أمر عظيم في أهل طنجة بسبب ذلك، وتعجب الناس من هذا الحادث الذي لم يكن مظنونا، ثم أمر السلطان بإثر ذلك بعقل أملاكه ودياره بمراكش وفاس والرباط وطنجة والقصر وغير ذلك أينما كانت وتعينت، وصدر الأمر لخليفة السلطان بمراكش بالقبض على أخيه عباس صاحب الهزيمة الأولى عن الفتان وعلى بعض من حاشيته، ففعل وامتثل وحيز عليهم جميع أمتعتهم وموجودهم وأصبحوا في [106] قيد الأسر★، ولم تكنهم أرض ولم تبكهم سماء، نعوذ بالله من النحوس، التي تأتي على الأموال والأصحاب والأحبة والنفوس.

ولا شك في كون هذا الرجل مشؤوم المحيا والجبين، فهو بالترك وإبعاده من حضرات الملوك قمين، فإنه لما ركن إلى الوزير المعتبر الذي ختمت به الوزارة بالمغرب الفقيه السيد أحمد بن موسى بن أحمد عاد عليه شؤمه، فأخليت دياره وبددت أمواله وأولاده وأهله، وذهبوا دفعة واحدة كأن لم يكونوا في زي الملوك أكثر من الخمسين عاما، ثم ركن من بعده إلى السلطان فحل بالمملكة بسببه ما رأيته في هذا المختصر والعياذ بالله، ثم جر شؤمه على نفسه وأهله وذويه والناس الأجانب الذين لم يأت بهم إليه إلا الاعتداء به والتمسك بذيله، فمنهم من عزل، ومنهم من وقع الانتقام منه كالأمين أحمد الجابي الذي انقطع إليه ومضى معه إلى الحج، فإنه لما ورد معه لطنجة صدر أمر السلطان بالقبض عليه وتوجيهه إلى حضرته مسجونا، وأودع السجن بفاس وما سرح إلا بعد اللتي واللتيا، إلى آخر أخباره التي لو تتبعتها لما وسعها ديوان.

ولما حل بالظالم ما حل به من هذه الفجائع التي لم تكن له بالبال، قام يتكلم عليه سلطان النجليز حيث إنه في حمايته كما تقدم، ووقعت المراجعة بينه وبين السلطان في شأنه، وطال الكلام بينهما إلى أن آل الأمر★ إلى [107] الاتفاق على ترحيله من المغرب، وعلى حيازة السلطان لجميع أملاكه أينما كانت، إلا أملاك طنجة فتبقى له، بعد أن يعطيه السلطان عشرة آلاف إبرة ذهبا عوضا عنها، ثم أمر بالتوجه إلى مصر وأقام له النجليز من ناب عنه في بيع إمائه وأثاثه بفاس ومراكش وتنضيد أثمانها والتوجه بها إليه، وكان في ذلك من البشاعة ما لا يفي به القرطاس، ووقع له من التكشف على حريمه والاطلاع عليه مثل ما أوقع هو فيه حريم ولي نعمته الوزير السيد أحمد رحمه الله، مثلا بمثل وسواء بسواء، وهذه عادة الله في خلقه، والمرء مقتول بما قتل به.

وما أصيب السيد أحمد رحمه الله بذلك في حريمه ومتاعه، إلا بما فعل هو أيضا بحريم أولاد الجامعي الفقيه الوزير الحاج المعطي بن العربي بن المختار رحمه الله، وشقيقه محمد الصغير الذي كان رئيسا على العسكر، وكثيرا ما كنت نتأسف على ذلك لعلمي أن الانسان كما يدين يدان، ومن سن سنة حسنة أو سيئة فله أجرها أو وزرها.

وقد سمعت في مثل هذا الموطن من الفقيه العلامة المشارك الكاتب السيد عبد الرحمن بن محمد الشرفي الفاسي رحمه الله، الوزير عند خليفة السلطان مولاي الحسن بمراكش مولانا عثمان بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام، أن الفقيه الوزير السيد العربي بن الوزير السيد المختار الجامعي، لما ولاه السلطان مولانا عبد الرحمن بن هشام الوزارة بعد موت صاحبها الوزير ابن [108] ادريس، صار الوشاة يأتون إليه بالوشاية في جانب إبن ادريس والكشف* عن عوراته وإظهار مثالبه، وكان يميل إليهم ويعمل على قولهم، والناس مع الدنيا وأهلها فكلما انقلبت انقلبوا، وحيثما ذهبت ذهبوا.

ما النــــاس إلا مع الدنيـــا وصاحبها فكلمـــا انقلـــبت يومـــا به انقلبـــوا

قال الفقيه الشرفي ولما رأيت ذلك وكان الورير ابن ادريس حبيبا لي والوزير السيد العربي حبيبا لي كذلك، وخفت عليه سوء العاقبة خاطبته فقلت له يا سيدي هؤلاء الناس الذين رأيت منهم ما رأيت في حق ابن إدريس، إنهم بالأمس كانوا من خدمته وأهل عبوديته حيث كان على سرير وزارته، وفي دست إمارته، ولما مات، وذهب وفات، انقلبوا عليه بالعداوة، وصاروا يسعون فيما يعود بالضرر على أهله وأولاده، كأنه لم يكن إلا عدوا لهم ولم يكونوا يقبلون يديه ورجليه، ويتملقون بين يديه، ويطأطئون رؤوسهم إليه، وإنك إن تبعتهم وعملت بأقوالهم فإنه لا يبعد أن ينقلبوا عليك، ويعاملوك بمثل ذلك إذا غاب وجهك، ويجدوا أذنا صاغية لهم، ويكون ذلك سنة في الوزراء، لأن ابن إدريس مضى وفات، وفعلهم معه إنما هو لمكانته التي أنت الآن فيها، قال فتنبه من غفلته، واستيقظ من نومته، وأجابني بقوله الله يجازيك عني خيرا يا فلان فقد وعظت، ونبهت وما قصرت، قال فانكف من ذلك الوقت، ولم يعد لسماع شيء في جانب إبن إدريس.

وهكذا تكون الهمم، التي تعرف الحقوق وترعى الذمم، فرحم الله [109] أهلها* ورزقهم السعادة كلها، وظني بالوزير السيد أحمد رحمه الله أنه لو سمع مثل هذا الكلام البالغ في الموعظة مبلغه عند محاولته الفتك بأولاد الجامعي ما عاملهم بتلك المعاملة، لعلمي أنه رجل عاقل دين ذو دهاء ونظر في العواقب، ولكنه لم يجد إلا من حرضه وحمله على المكر بهم فعومل بمثل ذلك، والجزاء

من جنس العمل، نسأل الله أن يوفقنا لما فيه صلاحنا، وأن يسبل علينا رداء ستره الجميل، فإنه بذلك كفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ثم عومل المنبهي بمثل ما عامل به الوزير السيد أحمد، وربما يبقى ذلك في سرب الوزراء ولا ينتهي عنده، وقد بلغنا أن المنبهي وقع فيه أمر عظيم، وهم عريض مليم، على فراقه الوطن، وهجرانه العشيرة والعطن، وسمعنا أنه يؤمل من يشفع له عند السلطان في بقائه بطنجة والله اعلم، وانظر ما يفعل الله، وهل يتيسر له ذلك أولا.

وفي خلال هذه الأمور قام رجل من أهل فاس يسمى عبد القادر بن زاكور وقتل هو وأخوه أحمد شريفا علويا من أبناء عم السلطان، وقام أهل القتيل وقعدوا لذلك، وطلبوا من السلطان قتل القاتلين وصمموا على ذلك وألحوا فيه وإلا فيأخذوا حقهم بأيديهم على أي وجه كان، فأسند السلطان القضية للعلماء وطال أمرها، وفي آخر الأمر حكموا بقتل القاتلين بعد ثبوت مواجب القتل، فقتل عبد القادر الأول منهما بباب المحروق من فاس يوم الاثنين السادس والعشرين من حجة الحرام ختام عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف بمحضر الجم* الغفير من الناس، وحضرنا نحن كذلك لقتله، وأما أخوه [110] أحمد فسلم من القتل وسجن أياما قلائل ثم سرح، مع كون الحكم وقع عليهما بوصف الحرابة ولا عفو فيها، وقد تعلق بهذه القضية أمور وغرائب ونكث أضربت عنها لأني لست بصددها.

وأما ما يرجع لجانب الدولة الشريفة وأهلها فإن هذه الحوادث التي نشأت على يد المنبهي أوهنتها وأضعفتها وأعقبها الاقلال والتقتير، وظهر أثر ذلك على الجيوش والكتاب وأهل الدائرة وأحوالهم ورواتبهم، فنقصوها لهم وصار ما يقبضونه لا كفاية فيه، فسرى لهم الضياع الفادح، وخشعت نفوسهم، واضمحلت بهجتهم ونخوتهم، وهم إلى الآن كذلك، جبر الله الأحوال، وحكم على كل ظالم بذلك الباب الشريف بسرعة الزوال، وإصابته في نفسه وأهله وأولاده بكثرة الأوحال والأهوال، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال».

وقد كنت التزمت سابقا عند ذكري للكتّاب في دولة مولانا الحسن رحمه الله بأني نعيد ذكرهم بأبسط مما هنالك ونتكلم عليهم وعلى أحوالهم، ثم ظهر لي الآن الرجوع عن ذلك، وجعل الكفاية فيما تقدم لأمور طويل شرحها، ومستبشع إبرازها ونشرها، والأمر بيد الله كيف شاء فعل.

وأما الرعية فإنها على قسمين قسم يسمى أهل الحوز، وقسم يسمى أهل الغرب، أما أهل الحوز* فإنهم القبائل التي من الرباط إلى مراكش [111] وسوس، وهم الشاوية وأعراب الرباط وزعير وتادلة ودكالة والسراغنة وزمران والرحامنة، وقبائل الدير وهي شتى وسوس وهو قطر كبير جدا، وعبدة وحمير والشياظمة وأولاد أبي السباع ومجاط، وثغر الرباط والدار البيضاء وأزمور والجديدة وآسفي والصويرة وأكدير وغير ذلك مما يطول تتبعه، وإما أهل الغرب فإنهم قبيلة بني حسن والشراردة وزمور وجروان وبنو مطير والحياينة وأعراب سايس وقبائل الغرب الأيسر وأهل الجبال والتسول وغياثة والبرانص وآيت يوسي وبنو وراين وقبائل فازاز، ومكناس وفاس وتطوان وطنجة وأصيلا والعرائش ومهدية ومدينة سلا ووجدة ونواحيها وتازا، وغير ذلك مما يطول بيانه كذلك.

وغالب أهل الغرب متمردون عن الأحكام، ومتمنعون عن الانقياد لأوامر الامام، بخلاف أهل الحوز فإن دأبهم الطاعة والانقياد للاحكام وللعمال وإعطاء الوظائف والقيام بالتكاليف على ما ينبغي، حسبما ذلك مشهور ومعروف عند الخاص والعام ولا ينكره إلا جاحد، والدليل على ما قلته هو أن أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن أمير المؤمنين مولانا إسماعيل بن الشريف جد الملوك العلويين من هذه الدولة الشريفة كان قد تعب في دولته تعبا كبيرا مع أهل الغرب لكثرة قيامهم عليه، وكان ذلك قد شغله* عن الالتفات إلى [112] الحوز، فوجه إليه في أواخر عمره ولده الأنجب سيدي محمد ابن عبد الله الذي تولى من بعده السلطنة، والحالة أنه كان صغيرا وقتئذ، فتوجه وكفى أباه الهم هنالك، وفرحوا به وعزروه ونصروه، وعن مدة قليلة التأم شمل المملكة ثمة وتوثقت عروتها، وصار أهل الحوز كمن له سلطان مستقل، وطار صيت سيدي محمد بن عبد الله كل مطار، في جميع تلك الأقطار، وكان يبلغ ذلك لابيه ولأهل جيشه فيحملهم ما يسمعون عنه على الرغبة فيه والميل إليه، و

يزل أمره في ازدياد واعتلاء، وصعود وارتقاء، إلى أن قام جيش عبيد البخاري على أبيه وبايعوه ووجهوا بالخبر إليه مع شرذمة منهم، فأنف من ذلك ولم يرضه وتبرأ منهم، وقال لهم إنما أنا عبد لأبي، ثم كساهم وأعطاهم كتابا منه بالشفاعة فيهم لأبيه ووجههم مكرمين، وبعد ذلك ظهر له أن يتوجه بنفسه إلى الغرب عند أبيه بقصد إصلاح ذات البين بينه وبين جيش عبيد البخاري، فجمع جموعا كثيرة من قبائل الحوز وصناديد رجاله وفرسانه وتوجه بهم إلى الغرب عند أبيه، ولما وصل إليه بدار الدبيبغ من فاس وسلم عليه، دعا له بالخير والرضى ولمن معه، وقال له إرجع بقومك في سلامة ليلا يعديهم جرب هؤلاء، فانثنى راجعا من يومه ذاك، فهذا مما يدل على كون أهل الحوز أهون من أهل الغرب، وألين عريكة وأكثر انقيادا وطاعة للملوك، وليس الخبر كالعيان، وحال* الحوز اليوم مضطرب من جهة الأحكام لما هو واقع به من [113] سوء التدبير الذي لا يخفى، وركوب متن الطمع الذي تفسد معه أحوال الدنيا والدين وتعفى، ومع ذلك فهو أهون بكثير مما عليه أحوال أهل الغرب، فإنهم لا يبذلون للدولة نقيرا ولا قطميرا، ولا يعرفون مأمورا ولا أميرا، والطاعة غير معمول بها عندهم إلا في الادعاء، عدا مدنه وحواضره فإنها لا زالت على استقامتها، وسريان الأمن في ساحتها، وعدا الغرب الأيسر — أيضا — طولا وعرضا، وما سوى ذلك فإنما هو إسم بلا مسمى، ولفظ بلا معنى، والكلام في تفاصيل ذلك وبيانه طويل جدا ولست بصدده، وعلى كل حال فالرعية — الآن — غير مستقيمة الأحوال، نطلب الله تعالى أن يزيل عنا وعنها الأهوال، ويسكن روعنا وروع المسلمين، ويؤمن سربنا وسرب المؤمنين، آمين آمين.

وحيث بلغ الحال بالمغرب إلى ما قلنا تعذر على الأجناس ترويج بضائع تجاراتهم به، واستخلاص مالهم من الديون على الرعية، وتكلموا مع الدولة وأعادوا في عمل ما تستقيم الأحوال به، وتعود إلى ما كانت عليه من الأمن أول دولة السلطان وسائر دولة والده قدسه الله، وأحرصهم في ذلك جنس الفرنصيص لمجاورته لرعية السلطان من جهة الريف ووجدة وفجيج، وتخوفه من الفتن الواقعة هنالك بسبب الفتان الثائر، وأبي عمامة الخاسر، لئلا يسري ذلك إلى رعيته أهل الجزائر* وتلمسان، وطال الكلام بينهم وبين الدولة في هذا [114] الموضوع، ولما لم يظهر لهم تأثير وتحققوا بأنهم إنما يضربون في حديد بارد،

تشاوروا فيما بينهم وسلموا الأمر في ذلك للفرنصيص لمجاورته للمغرب، ولكونه أحرص على تسكين البلاد، وتمهيد أمر العباد، فطار سرورا بذلك لعلمه أنها أكلة قدمت إليه، ومأدبة وضعت بين يديه، وقام لانتهاز الفرصة قبل فواتها، وإحياء الأرض بعد مواتها، ومال إلى المصانعة وتحسين الأخلاق، وأدى عن الدولة ديون سائر الأجناس على الاطلاق، ووعد وبشر، ووسع دائرة الوداد وملاها بالنصح وعمر، ثم وجه سفيرا من عنده لبث تلك المصالح والنصائح بحضرة السلطان، وإشاعتها في سائر الأماكن والأوطان، فورد على الحضرة بفاس في أوائل الحجة الحرام ختام عام اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف، واستعد السلطان له الاستعداد التام، ونوه به واعتنى بأمره وأنزله بعرصة بنيس، ثم أحضره بين يديه وشافهه وكلمه، ودفع كتاب دولته وأعرب عن مقصوده ورجع لمحله.

ثم إن السلطان ألقى ذلك على أهل دولته، وكبراء دائرته، ووقعت المفاوضة والمشورة فيه معهم، ومع بعض من أعيان الرعية وجه عليهم السلطان من البلاد، ولم يزل الأمر يروج بينهم إلى أن أجاب كل بما عنده على حسب اجتهاده، ودفعوا أجوبتهم مكتوبة لحضرة* السلطان لينظر فيها بنظره السديد، [115] وعقله الموفق الرشيد.

ومعظم ما في تلك الأسئلة أنهم يطلبون من السلطان انشاء ما فيه الكفاية من العسكر، وتنظيمه على نحو تنظيم الأرباويين في هيئته وكسوته وسلاحه وجميع أموره، ليحصل التقوي به على الرعية ونفوذ الحكم عليها، وكفها عن مألوفاتها وتهوراتها.

ويطلبون عمارة الحدود التي بين رعية السلطان وبين رعاياهم بالعسكر، ليحصل الانكفاف عن الثوران الذي يقع هنالك دائما من أعراب الصحراء وغيرهم، ويجري الأمن في تلك الأصقاع والسبل، وينقطع التشكي من كلا الجانبين ثمة.

ويطلبون — أيضا — تحصين أموال بيت مال المسلمين مما هو واقع فيها من النهب والخيانة، وإعمال النظر فيما ينميها ويكثرها.

وإجراء الأمن في سائر بلاد المغرب حاضرة وبادية.

وتحصين أملاك المخزن وأملاك الأحباس.

وتكليف الناس العقلاء أهل الجد والصدق والمروءة بوظائف الدنيا والدين، واجتناب أكلة الحرام والرشوة وأهل الظلم والفسوق وغمص الحقوق، إلى آخر كلامهم.

ولعمري إن هذه الأمور التي تكلمت فيها هذه الدولة وأشارت بها علينا لكلمة حق، لأنه لا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل وأمن ودين متين وتعفف على أموال المسلمين، [116] وذلك معنى أن الله يؤيد هذا الدين* بالرجل الفاجر، وكل ذلك مختل عندنا، وضائع لدينا، ونحن في غفلة ساهون، وعما يراد بنا لاهون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحيث يظهر مآل هذه القضية الهائلة التي لم يتقدم مثلها نتعرض لذلك، ونذكره في هذا المكتوب إن شاء الله تتميما للفائدة.

ولنرجع للكلام في أحوال الرعية فنقول وفي هذه الأيام وهي أوائل المحرم فاتح عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، أمر السلطان أهل الحوز بأن يعطوا مال الترتيب المتخلد في ذمتهم من عام تسعة عشر المتقدم، وهيأ محلة بعضها من الحوز وبعضها من العسكر الذي بحضرته، وكبر على الجميع أخاه مولاي العباس، وأمره بالخروج بهم من مراكش والمرور على قبائل الحوز، والرباط عليهم ليدفعوا الترتيب الذي ماطلوا فيه وتلكئوا في دفعه، فامتثل، وقد بلغنا أنه افتتح عمله بالرباط على الخوالقة من قبيلة حمير، وأنه قاتلهم وفتك بهم وبددهم، ثم بلغنا خلاف ذلك، والله اعلم أي ذلك كان، ولا زال رابطا هنالك، ولم يتحقق لنا السبب في تطويله المقام بذلك المحل، هل لتعصب الخوالقة كما يذكرون أو لغير ذلك، على أن الخوالقة جزء قليل بالنسبة لقبيلة حمير، وقبيلة حمير جزء قليل أيضا، بالنسبة لقبائل عبدة ودكالة والشاوية [117] والشياظمة وغيرها، وأي نسبة بين الخوالقة والمحلة التي عندها العدد والعدد*، والسلاح الزخار والمدد، فكيف تصدها الخوالقة عن المرور بأرضهم، والجولان في القبائل الطنانة التي من بعدهم، فإن كان ذلك حقا فهو أمر دبر بليل، وشأن طويل القول والذيل، وسيتضح الحال، وينكشف هذا الأمر الذي كثر فيه القيل والقال، ثم وقع الاقتراح على السلطان من بعض أعيان عمال الدير

بمراكش بتوجيه محلة للرباط بمحل في وسطهم يسمى القيهرا، وفي القديم كان يسمى القاهرة، وهي مدينة بناها بسفح جبل سكساوة وزير السلطان أبي عنان المريني، للحصار على صاحب ذلك الجبل وقتئذ.

فعين عمه مولاي عرفة ووجهه لذلك، ولا زال خبر وصوله لم يرد علينا الآن، والدير كناية عن قبائل الجبال بتلك الناحية، وهم قبائل حاحا وأمتوگة وأمزوضة وأمزميز وأجرجور ودمنات وهنتيفة ومسفيوة وغيغاية وجلاوة وسكساوة ودويران ومغوسة وتگانة وسجتانة ودمسيرة ونفيفة وغير ذلك مما يطول جلبه، وذلك بقصد أخذ مال الترتيب منهم، وبقصد شيء آخر زعموا فيه صلاح تلك الناحية وليس الأمر كذلك.

وقبل هذا توجهت محلة وكبيرها الباشا عبد الكريم ولد أبا محمد الشرگي لتدويخ قبائل الجبال بناحية سواحل طنجة والعرائش وتربيتها، وإصلاح ما انثلم من الأحوال بها، وتسريح سبلها الممنوعة السلوك بسبب ثوران الريسوني فيها، وهذه مدة كبيرة وهو رابط هنالك بنواحي القصر الكبير، ولم يظهر عمل ولا تأثير له، وانظر السبب الذي ثبطه واوقفه عن الشروع في [118] محاولة ما توجه* لأجله، وها أنت ترى ما عليه الرعية في البوادي من التثاقل والتمارض وتربصها بالدولة الدوائر.

ومهما بقي الأمر على هذا الحال فإنه لا ترجى استقامة بالمغرب ولا هناء، لأن قبائل المغرب جافية الطباع في الغالب، ومن لم يكن ذا شدة وقهرية فلا يطمع في الحكم عليهم قولا واحدا، ويدل لهذا قضية أمير المؤمنين المنصور الذهبي السعدي مع شيخه واسمه ضل عني، وليقف عليه من أراده في الاستقصا أو في نزهة الحادي، قالوا إن بعض العلماء من فاس كانوا يقدمون على المنصور كل عام بمراكش بقصد قراءة الحديث الشريف في أشهر معلومات، فتوجهوا مرة وكان فيهم شيخ المنصور، فمروا في طريقهم على عدد من المساجين رجالا ونساء وعلى الجميع السلاسل والأغلال، والنساء مختلطات بالرجال، فكانت فيهم إمرأة حامل وأخذها الطلق ووضعت بمرأى من الرجال ومسمع، والسلسلة في عنقها، فعاين الشيخ ذلك واستنكره وعزم على إنهائه للمنصور، ولما وصلوا تكلم مع المنصور في القضية وعظم له مسألتها وأدى ما عنده فيها، فأعرض عنه المنصور وسكت ولم يجبه وتبينت

[119] الكراهية في وجهه، فخجل الشيخ وعجب من ذلك وندم على ما فعل*، وتمادى المنصور على الأعراض عنه مدة، إلى أن أحس بحصول قلق كبير له وقنوط، فكلمه يوما وقال هل يا شيخ إن أهل المغرب مجانين لا عقول لهم، ولولا ما رأيت ما تهيأ لك الركوب على بغلتك والخروج من فاس ووصولك إلى مراكش في سلامة، ولم يتعرض لك أحد في طريقك بسوء، فأجابه الشيخ بأن الصواب معه، وأنه لم يفهم المقصود، في كلام هذا معناه، ثم اعتذر عما صدر وقبل عذره، وقابله بما رد عليه نافر أنسه وأبقاه على مكانته عنده.

وهذا مما يدلك على أن أحوال أهل المغرب لا تستقيم إلا بمجاوزة الحد في الأحكام، ومزج اللين بالشدة، ولا سيما أهل البوادي، الذين أمرهم مشهور ومعلوم في كل النوادي، والسياسة اليوم على خلاف هذا المنوال، ولذلك لم تنضبط الأمور ولم تستقر على حال، ويدل لما قلناه أيضا ما قاله المعز بن باديس أو غيره من فريقه سلطان المغرب في وقته لمن خلفه نائبا عنه في السلطنة على المغرب لما عزم هو على التوجه لمصر للجلوس على سرير سلطنته [120] به، وذلك أنهم قالوا إن المعز كان سلطانا* على المغرب وسمت همته إلى الحكم على مصر وأقطارها، فوجه نائبه القائد جوهرا لفتحها، وتمهيد قطرها، ويسر الله المراد، وأطاعه في تلك البلاد سائر العباد، فأعلمه القائد جوهر بذلك واستدعاه للقدوم عليه لطلب الناس إياه فأخذ في الاستعداد، وتوجه موفر الجيوش والإمداد، بعد أن أوصى نائبه الذي أقام على سلطنة المغرب بأمور تتعلق بأحوال السياسة وإصلاح الرعية، ثم اختصر ذلك في ثلاث كلمات، فقال له إذا نسيت ما قلت لك فلا تنس ثلاثة أمور، أولها لا ترفع العطاء عن أهل البادية لتشغلهم به عن التفرغ للفساد، الثاني استوص خيرا بأهل الحاضرة، الثالث لا تول أحدا من قرابتك شيئا من الولايات، فإنهم يرون أنهم أحق منك بها، ثم ودعه وانصرف، هذا ما تعلق ببالي في هذه القضية فقد طال عهدي بها، وكنت رأيتها في ابن خلكان فلينظرها به من أراد تحريرها، والشاهد في إشغال الرعية بما يصدها عن التفرغ لمرادها، وأين الحال من الحال، وليكن هذا آخر هذا الباب، الذي ملأ من أحوال الوقت المزادة والوطاب(33) ولنتكلم عن الجزائر فنقول: وعلى الله توكلت وبه على المقاصد أصول

(33) الوطب: سقاء اللبن، وهو جلد الجذع فما فوقه. الجمع أو طب ووطاب وأوطاب، «ق».

[121]

*البـــاب الرابـــع

في أخبار الجزائر والسبب في وصولنا لها، وما فيها من البهجة والرونق وكل ما يشتهي،

قد قدمنا أن الدولة الفرنصوية لما حدث بالمغرب ما حدث أقتضى نظرها وصول كبيرها المسمى بابر يزيدان لقطر الجزائر وتونس لاختيار الأحوال هنالك، وأن السلطان وجه وفدا من قبله لملاقات ابريزيدان بالجزائر، حيث الجزائر مجاورة للمغرب، فعين لذلك أمينه الابر الأجل السيد بناصر غنام الرباطي، وعينني معه، وقد قيدت تقييدا فيما وفت عليه من أحوال الجزائر، وابتدأت من اليوم الذي خرجت فيه من فاس، وأتيت به في هذا المختصر ليلا يتلف (1) ويضيع، راجيا التماس العذر ممن يقف عليه ويراه، ونصه

بسم الله الرحمان الرحيم، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد فأقول وأنا العبيد الحقير، وأسير ذنبه الفقير، المعترف بالعجز والتقصير، والضعيف الفاني، الحسن بن الطيب بن اليماني، المعروف ببوعشرين، كان الله تعالى له ولوالديه في كلا الدارين، بمنه وكرمه آمين فإنه لما قدر الله عز وجل في سابق أزله وصولي لبلاد الجزائر من المغرب الأوسط، وجهني إليها أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد العزيز نصره الله نصرا مبينا، وفتح له فتحا عزيزا مكينا، بواسطة وزيره الأجل*، الوجيه الأديب الأفضل، الفقيه [122] اللبيب الأمثل، نادرة الزمان، ووحيد العصر والأوان، سيدي عبد الكريم إبن سليمان، كان الله له فيما يكون وما كان، مع خديمه الأجل، الوجيه اللبيب

(1) تلف من باب فرح

الأحفل، الأمين الأود الأنبل، السيد بناصر غنام الرباطي حفظه الله، المعين للسفارة لذلك الوطن نيابة عن جلالته الشريفة، ذات الظلال الوريفة، بقصد ملاقاة ابريزيدان كبير كبراء الدولة الفرنصوية العظيمة، وتهنئته على وصوله للجزائر بسلامة وعافية، أداء لحقوق المجاورة التي حض الشرع على المحافظة عليها، والقاء زمام المواصلة إليها، فامتثلت أمره العالي، بعد أن لم يكن ذلك يخطر ببالي، علما بما عليه حالي.

ولما عزمت على النهوض من فاس تعلق ببالي، أن أقيد ما لابد منه باختصار مما نعانيه في هذه الوجهة المباركة ترويحا لنفسي، ولمن لم يشاهد ما نشاهده من أبناء جنسي، وكنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى في الاقدام على هذا الخطر الذي هو من شأن فحول الرجال، الذين لا تعتريهم في ميدان البلاغة الأوجال، ولا يتعسر عليهم البيان بحال، ولما رأيتهم يقولون ما لا يمكن كله لا يترك كله اقحمت نفسي لنيل هذا الغرض، وقمت ببعض ماله من الحق المفترض، اقتداء بمن سلف من الأعلام، الراجحين الأحلام، الذين سنوا تخليد الأخبار، وتسطير الآثار، ليعتبر المعتبرون، ويتفكروا في مصنوعات الله [123] ومخلوقاته* وما بينها عند تنازح الأبدان وتباعد الأقطار من البون.

ولنشرع الآن في المقصود، متوكلا على الواحد الأحد المعبود، ومستعينا به على كل معترض بغيض حسود خرجت من فاس، العاطرة الأنفاس، صانها الله من كل مكروه وبأس، وقت الضحى في الساعة العاشرة من يوم الأربعاء الثاني من محرم الحرام، وهو اليوم الثالث منه عند أهل الجزائر، عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، وبتنا بنزالة وادي مكس، وفي اليوم الثاني بتنا بوادي سبو أمام الحجر الواقف، وفي اليوم الثالث بتنا بالشماخة كتفاحة، وفي اليوم الرابع بتنا بظاهر القصر الكبير، وفي اليوم الخامس بتنا بمحل يسمى إبن الريان، وفي اليوم السادس ــ يوم الاثنين ــ وصلنا لثغر طنجة، حاطه الله وصانه من صروف الزمان، وطوارق الحدثان، فتلاقيت مع الأمين المذكور رعاه الله، ودفعت له المكاتيب الشريفة التي وجهت له معي، وناجيته بما حملته من شريف الحضرة، ثم تلاقينا بعد ذلك بنائب الدولة على العادة المعهودة، والطريقة التي هي بعين الاعتبار مشهودة.

وفي اليوم الأحد الثالث عشر من الشهر ركبنا البحر بعد العصر في فركاطة لجانب الدولة الفرنصوية على رأس الساعة الخامسة، وهذا اليوم هو [124] الثاني عشر من شهر أبريل العجمي بالحساب المسيحي*، والثلاثون من مارس بحساب الروم وهو الذي عليه المسلمون، وقد قابلنا رئيس الفركاطة ببشر كبير، وفرح كثير، واعتناء جليل أثير، وبقي المركب راسيا إلى نصف الساعة الثامنة بعد العشاء وأقلع يخترق البحار، ويشق ماءها البعيد الأغوار، الفسيح المضمار، المتقلب الأطور، المتلاطم الأمواج آناء الليل وأطراف النهار، وسار الليل كله والنهار كله وليلة الثلاثاء كلها سير السوابق، لم يفته سابق ولم يلحقه لاحق.

وفي صبيحة الثلاثاء الخامس عشر من الشهر عند الشروق أرسى بنا في مرسى الجزائر، فظهرت لنا المدينة في حسنها وبهجتها كالعروس تجلت من خدرها، وقعدت على منصتها، وعاينا بالمرسى من المراكب الحربية والتجارية لجانب الدولة ولغيرها من الدول ما قضينا منه العجب كثرة وإتقانا، وحسنا لا يحتاج برهانا، وكل هذه المراكب الحربية إنما جاءت لملاقات ابريزيدان ممن جاور الجزائر من الدول، والسلام عليه وتهنئته على الوصول لذلك القطر، إذ لم يكن رآه قبل على ما قيل، وغالبها وصل وقت وصولنا، وبزغت شمسه عند بزوغ شموسنا، وقد أخرج كل مركب منها واحدا وعشرين عمارة بالمدافع الكبار، بقصد السلام على البلد على عادتهم في ذلك، وأجابهم أهل البلد من [125] الأبراج بمثل ما سلموا* به، ثم سلمت المراكب على بعضها بعضا بخمسة عشر مدفعا لكل مركب، فكان عندهم ذلك اليوم يوما مشهودا، ومن المواسم الكبار معدودا.

وبمجرد وصولنا جاء قائد المرسى للسلام على رئيس المركب وعلينا، فطلع إلينا ببشر مديد، وخضوع ما عليه من مزيد، ثم ذهب وجاء بعده قبطان من نائب حاكم البلد، لأن الحاكم استعفى وتأخر، فسلم علينا كذلك وفرح بنا وأنزلنا من البحر، فوجدنا بالمرسى الفرسان بخيولهم واقفين لانتظارنا، ومتأهبين لاستصحابنا، وتقدمت منهم فرقة أمامنا، وفرقة خلفنا، فذهبوا معنا ونحن راكبون في عربية أي كروسة تجرها الخيول إلى أن وصلنا المحل المعد لنزولنا، فألفينا فيه من الفرش والأواني ما فيه غنية.

وفي عشية ذلك اليوم بعد العصر بقليل جاءنا القبطان المذكور بتلك الكروصة، وذهب معنا لدار النائب المذكور بقصد السلام عليه، فتلقانا بالترحيب والتبجيل، والكلام الطيب الجميل، وسألنا عن أحوالنا وعما قاسيناه من أهوال البحر وارتجاجه، واضطراب مائه وتكالب أمواجه، ثم اعتذر عما عسى أن يكون من التقصير في حقنا، من جهة محل نزولنا، قال لأن قدومنا كان تعين أولا لوهران، فظهر لكبراء الدولة أن يكون للجزائر جمعا مع السفراء وأمروه به على بغته، فجازيناه بما يناسب المقام ثم رجعنا لمحلنا، وفي الغد الذي [126] هو يوم الأربعاء السادس عشر★ من الشهر جاء النائب المذكور إلينا في محل نزولنا، فسلم علينا وأعاد ذلك الاعتذار، وذلك قبل الزوال.

وعند الظهر من ذلك اليوم وصل ابريزيدان في مراكب عديدة، ووجد المراكب التي جاءت من الأجناس بقصده على غاية الاحتفال، والأمور ذوات البال، وأخرج من البارود منها ومن الأبراج شيء كثير اصطكت منه الأذان وارتجت الجبال، وزينت المدينة وما حولها بفراسخ كثيرة من المداشر والقرى وسكان تلك الرمال، فنزل داخل المدينة بمحل يسمى قصر الشتاء كان للملوك الأتراك بتلك البلاد، وذهب للسلام عليه جميع السفراء وأعيان البلد من كل ناد، وبعد العصر جاءنا القبطان بالكروصة وذهب بنا للسلام على ابريزيدان كذلك، فتلاقينا معه وقوفا وهو واقف أيضا قد أزال قلنسوته عن رأسه ومعه بعض وزرائه وكبراء دولته، وهش وبش لنا وأخبرنا أنه فرح مسرور بسفارة مولانا عبد العزيز، وأنه تحقق بها محبته، وحاز كتاب السلطان بيده وجاز أخيرا عليه، ثم خرجنا من عنده ورجعنا لمحلنا.

وبعد المغرب من ذلك اليوم جاء القبظان واستدعانا لوليمة جعلها ابريزيدان للسفراء والأعيان من عنده وهم نحو الماية والثمانين، فذهبنا إليها وحضر فيها ابريزيدان بنفسه، وكان فيها احتفال عظيم، وضوء كثير عميم، لا يكاد يحصى أو يعد ويستقصى على نسق غريب، وشكل عجيب، ولما أخذ [127] الناس مراكزهم وجلسوا وهم لابسون من الملابس صنوفا★، ومن الذهب الابريز ألوفا، جاءت الأطعمة الكثيرة في أطباق جليلة، بديعة جميلة، وحضر من أنواع الحلواء والفواكه ما لم يكن بالبال، وكل الأواني جديدة على أحسن منوال،

وحيث تم الطعام وانقضى، وذهب جزء معتبر من الليل ومضى، وقف ابريزيدان على قدميه وخطب بنفسه خطبة عجمية اسمعها جميع الحاضرين، وقد ترجمها لنا بعضهم باختصار، بأنه حمد الله تعالى على ما خولهم من الملك وأعطاهم من الحكم علي قطر الجزائر بعد أن كان لغيرهم، وذكرهم نعم الله عليهم في امتداد الأمن بأقطاره، واتساع دائرة أنصاره، وما صاروا فيه من الثروة العظيمة، والتجارة الكثيرة العميمة، وعمارة البلاد، وتيسير الأسباب في كل ناد، إلى غير ذلك من هذا المعنى، وبعد فراغه منها أخذوا يهنونه على ذلك ويهني بعضهم بعضا، ثم انفض المجلس ورفعت تلك الموائد والأواني، الرائقة المعاني والمباني، وأذن بخاصة الناس وعامتهم في الدخول للقصر وهو محل هذه الضيافة ويسمى قصر الصيف، وهو غير قصر الشتاء المتقدم الذكر، كان أيضا لملوك الترك، وهو قصر كبير حسن الشارة، فسيح الدارة، عظيم الشان، واضح البرهان، دل على ضخامة بانيه، ورفعة شأنه، فدخل الناس إليه أفواجا، فرادى وأزواجا، نساء ورجالا، شيوخا وكهولا وأطفالا، وأخذوا يتفرجون في تلك الأماكن العديدة، والمباني* الفاخرة الفريدة، ويتفسحون في أرجائها، ويطوفون في [128] أنحائها، ويتفكرون في قطانها الأولين رأحيائها، الذين كانوا لا يبغون بها بدلا، ولا يتوقعون فيها سآمة ولا مللا، ثم اجتمعوا بمحل الضيافة لاتساعه، وأخذه المأخذ الكبير في انفساحه وارتفاعه، وصاروا يلعبون اللعب المسمى عندهم بالبايلي بتفخيم الباء وهو رقص يكون للرجال مع النساء، فكل رجل يرقص مع امرأة سواء كانت من ذوي رحمه كبنته وأخته أو أجنبية عنه، وسواء كانت متزوجة أو لا، وسواء كان زوجها حاضرا يرى أو غائبا، ويده قابضة على يدها واليد الأخرى حائز لها بها من خصرها، وحومة الرقص متسعة جدا، كان بها عدد كثير يرقصون في آن واحد، وغالب الناس جالسون على الشلايا يتفرجون، وكثير من النساء مكشوفات الصدور، والظهور والذراعين والشعور، وهن لابسات أفخم اللباس وأحسنه وأنقاه، ولما علمنا ذلك وعايناه، ولم يكن تقدم لنا العلم به ولا عرفناه، خرجنا بعد مشقة من الازدحام، وتراكم الأنام، وذهبنا لمحلنا، وأخبرونا أنهم قطعوا الليل كله في ذلك، وكلما ذهبت طائفة أتت طوائف بحيث لم ينقطع الوارد عليهم.

وفي الصباح وهو يوم الخميس السابع عشر من الشهر جاءنا القبطان [129] بالكروصة يدعونا على لسان ابريزيدان للحضور في عرض★ العسكر بمحل يسمى الميدان يسع آلافا كثيرة من الناس، فذهبنا وألفينا الميدان غاصا بخاصة الناس وعامتهم، وجلسنا على الشلايا مع الخواص في محل مرتفع، وكان من العسكر شيء كثير، دل على حزم كبير، واعتناء شهير، وكل عسكري حامل على عاتقه جميع وطره، وكل ما يحتاجه في حضره وسفره، حتى الخزائن وركائزها، وقصعها وأوتادها، بحيث لو أمر بالسفر في ذلك الوقت ما تعلل، ولا اعتذر بعذر ولا تنهل، وكل ذلك باختصار، لا يثقله حمله الليل والنهار، وبعد وصولنا بقليل جاء ابريزيدان في كروسته تجرها أربعة من الخيول مع بعض وزرائه، وطاف وهو بها على جميع تلك العساكر للسلام عليهم، والاعتناء والتنويه بهم، ثم جاء للمحل المعد له فنزل من الكروصة ووجد نحو الخمسة عشر رجلا من كبراء العسكر واقفين له في صف واحد فوقف لهم، ثم أعطاهم النياشين واحد بعد واحد وعلقها عليهم بيده، وكل من علق عليه نيشانه يقبله في وجهه يمينا وشمالا كأنه يبارك له النيشان، وكذلك صاحب النيشان يقبل ابريزيدان في وجهه قبلتين في اليمين وفي الشمال، ولما فرغ طلع لمحله وجلس على شليته غير منعزل عن الناس، وأخذ العسكر يمر أمامه على ترتيب عجيب، وأسلوب غريب، ومرت المدافع وآلات الحرب والمهندسون [130] والبحريون، وغير وغير، وحضر في ذلك الجمع أيضا عمال البادية★ من المسلمين في زي فخيم، ولباس رفيع محفوف بالذهب الكثير، وخيل مسومة وسروج منعمة، ولما تم العرض نهض ابريزيدان وركب كروصته، وجازى كبير العسكر ــ ويسمونه الجلنار ــ على اعتنائه وحزمه وضبطه ونصحه، ثم ذهب لمحله وتفرق ذلك الجمع الهام وذهبنا لمحلنا.

وبعد المغرب من ذلك اليوم دعانا أعيان البلد للحضور في وليمة جعلوها لابريزيدان وللأعيان بمدرسة فسيحة بالبلد، فذهبنا إليها والقبطان معنا وكذلك الترجمان، وهو رجل لبيب أديب يعرف اللسان العربي معرفة متقنة، وله خبر بلغة العرب، وإطلاع على تواريخ المسلمين وملوكهم وعوائدهم ومألوفاتهم، ونفع وحمدت سيرته، وحضرنا معهم في الوليمة، وحضرها ابريزيدان وغيره من سفراء الدول ووزرائه، وكان فيها أزيد من الخمسمائة نفس من الأعيان، وقرب الفراغ

منها خطب رجل أمير عندهم وهو واقف عن يمين ابريزيدان خطبتين عجميتين طويلتين أثنى خيرا فيهما على ابريزيدان وذكر ما تعلق له الغرض به من الكلام، ثم جلس وقام ابريزيدان وخطب خطبة طويلة أيضا عجمية، ثم تفرقوا وسافر ابريزيدان في ذلك الوقت ليلا لوهران في بابور البر مع وزرائه، ومنه لتلمسان ولمواضع أخر، إلى تونس ونواحيها، ثم يرجع لباريز محل مملكته ومقر سلطنته*. [131]

وفي يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر صلينا صلاة الجمعة بالمسجد الجامع الكبير، وحضرنا الخطبة والأذان ورواية حديث الانصات، فيؤذنون أولا أذانا واحدا. ثم يروون الحديث فيقولون فيه — روى إمامنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قلت لصاحبك انصت والامام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت، وفي طريق آخر، ومن مس الحصا فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له، أنصتوا رحمكم الله، ثم يقوم الخطيب للخطبة الأولى ثم الثانية ثم ينزل فيصلي، ويقول في محل الدعاء للامام اللهم أيد من أيد هذا الدين، وارفع درجته في عليين، وبعد الصلاة مشينا لزيارة ضريح الولي الصالح سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه، ثم رجعنا ودخلنا للجامع الجديد وهو للحنفية، ورأينا فيه من البهجة والرونق ما يروق الناظرين، وعاينا النصارى يدخلون للمساجد رجالا ونساء لكن بأدب ووقار، ثم رجعنا لمحلنا.

وفي يوم السبت التاسع عشر من الشهر مشينا صباحا للفرجة خارج البلد، فرأينا من المباني والأجنة ما يفوق الحصر ويستغرق العد، وفي عشيته ذهبنا لمحل آخر خارج البلد أيضا، وشاهدنا من ذلك شيئا كثيرا إلى أن وصلنا بير الخادم، ثم رجعنا مع المغرب لمحلنا*. [132]

وفي يوم الأحد يليه ذهبنا للفرجة في المدينة، فعاينا من الأبنية الرائقة، والحوانيت البهجة الفائقة، مالا يكاد يخطر بالبال، وعلى كل حال فمدينة الجزائر على اتساعها وكثرة أرضها ما فيها قيد شبر فارغ من العمارة، ولا في خارجها قيد شبر أيضا غير مشغول بالحرث والغرس والبناء الحسن المنظر والشارة، وغايته فإنما هي جنة الدنيا ونزهة الأبصار.

وأما الطرق على كثرتها وامتداد فروعها في داخل البلد وخارجها إلى حيث انتهت، فكلها مستوية نقية ومتسعة جلية مفروشة بالحجر المنحوت والمصنوع على هيئة الياجور في الانبساط والكيفية، وكل عمالة الجزائر كيفما امتدت واتسعت على ذلك المنوال كثيرة الأشجار ممتدة الظلال.

وفي يوم الاثنين الواحد والعشرين من المحرم المذكور ذهبنا ـــ قبل العصر ـــ لمحل الرصد خارج البلد، وهو محل أنيق، ومنظر بهي شريق، وبناء حفيل، ورونق جليل، فيه من الآلات العجيبة التي يرصدون بها الشمس والقمر والنجوم ليلا ونهارا مالا يمكن وصفه ولا يتأتى نعته إلا بالعيان، والمقابلون لذلك والمباشرون له هم أناس يقال لهم الفلكيون والمنجمون، وفرحوا بنا واستبشروا بمقدمنا وهشوا وبشوا لرؤيتنا، وطافوا معنا على تلك الأماكن وأطلعونا على ما فيها، وسألونا هل بفاس من يتعاطى هذا العلم ويعتني به، [133] فأجبناهم بأنه لا تخلو مدينة فاس ممن يعلمه إلا أنه غير* مشهور، وبعد أن تفرجنا في ذلك واستوعبناه ورجعنا لمحلنا، وما وصلناه إلا بعد المغرب بكثير لبعد ذلك المحل عن المدينة، مع كون الطريق الموصلة له كلها في الجبال والربى.

لان الجزائر كلها أو غالبها جبال شواهق كمدينة فاس أو أكثر، ومع ذلك فجميع طرقها سهلة واسعة، تمر فيها الكراريص الكثيرة من غير تعب ولا مشقة، وتجري فيها جري السوابق إلى أن تصل قنة الجبل في أسرع ما يكون، وكل جبالها ووهادها مشغول بالحرث والغرس والبناء وتكاثف الظلال عن اليمين وعن الشمال، وقد قال لي بعضهم بعد أن سألته إن هذه العمارة متصلة وممتدة إلى المدن البعيدة من الجزائر كوهران وتلمسان ونحوهما، ومسافة ما بين وهران والجزائر ببابور البر نحو إثنتي عشرة ساعة، وهي خمسة عشر يوما بتقريب، إلا المواضع السبخة والصلبة ذات الحجر الصلد فتبقى لرعي البهائم.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر بعد الشروق بقليل، توجهنا للمحجر وهو المحل الذي تكون به كرنتيلة الحجاج، بينه وبين المدينة للراكب في الكروصة ثلاث سوائع، ولراكب البهيمة ست سوائع، ولما وصلنا وطفنا بها ألفيناه محلا حفيلا، وبناء متعددا بهيا جميلا، وفيها نبات

وأزهار، وأشجار أنيقة وثمار، وهو على شاطىء البحر تضرب الأمواج على طرف
[134] أرضه، ووقفنا فيه على *مقبرة للحجاج فيها نحو الأربعين من قبورهم، فترحمنا
عليهم وقرأنا بإزائهم ما تيسر من القرآن، ثم دخلنا لمحل نقي ظريف فأكلنا فيه
وشربنا، وفرح بنا القيمون بالمحجر واعتنوا بنا، وطافوا معنا على أماكنه وقابلونا
بالجميل، وكان معنا والآخذ بيدنا فيه الطبيب المكلف به، وهو المكلف —
أيضا — بمحجر طنجة والصويرة، وهو رجل عاقل ثابت ذو أناة وتؤدة، ثم
رجعنا لمحلنا عشية النهار.

ورأينا في الطريق من عجائب الأبنية وغرائب الغروس ما يستوقف
الطرف ويفوت الحصر، وقد قال لنا بعضهم إن السبب في عمارة كل البلاد
هو أن كل من عمر أرضا وغرسها، والتزم العمل فيها عشر سنين وظهرت
نجدته وكفايته، يعطيها له صاحب الأمر، ويملكه إياها تمليكا أبديا سرمديا فيبيع
فيها ويشتري وتورث عنه، فتسارع الناس لذلك، وبذلوا فيه وسعهم ومقدورهم
وتنافسوا، إلى أن صارت الأرض جنة واحدة ما فيها موضع قدم فارغ. وفي
هذه البلاد شيء كثير من الكراريص المنوعة السير، فمنها ما تجره الخيل، ومنها
ما يمشي بالكهرباء في طريق من الحديد، مثل بابور البر يحمل الخمسين من
الناس وأكثر بالنسبة لما يجره من ورائه من الكراريص، وهو أسرع مما تجره
[135] الخيل بكثير، ومنها نوع *يمشي بالكهرباء، وزيت الكاز في غير طريق الحديد،
وعندي أنه أسرع من الذي قبله يحمل نحو الخمسة أناس، ويسمى عند
المشارقة السيارة، ومنها نوع يركبه واحد فقط له جرارتان واحدة من أمام
والأخرى من وراء، يمشي بتحريك رجلي الراكب أسرع من طرفة العين،
ويسمى الدراجة، ومن لا معرفة له بتمشيته لا يقدر على ركوبه، وعندي أنه لا
يركبه إلا الأحداث، وليس من المروءة أن يركبه غيرهم، ولولا هذه الكراريص ما
قدر أحد على استيعاب تلك البلاد إلا في الأيام الطويلة لكبرها واتساعها،
وغالب الناس أو كلهم يركبونها في حوائجهم وضروريات معاشهم، فلا ترى
راجلا في الطريق إلا في النادر أو في الأسواق، بل كل من هو مستور الحال لا
يليق به أن يمشي إلا فيها، وربما يعاب عليه المشي على رجليه، ومن وراء هذه
الأمور عجائب وغرائب لا يفي بها القرطاس.

ومن جملة الضبط الذي عندهم في البلاد أن السعر من جهة المأكولات مستقر، لا يزيد ولا ينقص هذه مدة تزيد على السبع سنين، لأن القائمين بها أعطوا خطوط أيديهم بعدم العجز عنها لمدة معلومة، فالناس مستريحون من نكد الفقدان، وهموم طوارق الحدثان، وحيث تتم مدتهم تجعل [136] معهم مدة أخرى أو يبدلون * بغيرهم، والأشياء موجودة في الأسواق بكثرة من غير ازدحام ولا لغط، واللحم موجود في كل الأوقات على كثرة ما بالمدينة من الخلق، والادام والخضر والفواكه كذلك على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها.

ومن ضبطهم وحزمهم أن تحريب العسكر يكون دائما في قدر معلوم من النهار، وقد رأينا بعضه في الميدان المتقدم الذكر، ورأيناهم ينصبون أعوادا طوالا على هيئة صواري المراكب مركوزة في الأرض، فيأتي الفارس جريا على فرسه وسيفه مسلول في يده، فيضرب به ذلك الصاري ويمر كالبرق الخاطف، ولهم كيفيات متعددات في المطارة والمساورة تدريبا على أمور الحرب والطعن والضرب، ولا شغل للعسكر إلا ذاك لأنه كفى هم المعاش.

ومن جملة حزمهم واعتنائهم أنهم يقرأون كلهم ويكتبون رجالا ونساء وأطفالا، وقد رأيت المرأة بالحانوت مع زوجها تكتب له وتقرأ وتقيد المبيعات والأثمان، قد كفته الهم في ذلك، وزوجها إنما يبين لها الأسوام، على أنها عالمة بها، ولكنها من أدبها معه وحسن عشرتها أن لا تستبد عليه، وكلهم على ذلك المنوال.

ومن جملة ما عايناه من الأماكن النفيسة، والمواضع المعتبرة الرئيسة، [137] جنان لجانب الدولة يسمى الحامة بوزن الطامة*، وهو مباح الدخول والفرجة لكل الناس، على شرط عدم مس شيء منه باليد، وقد دخلناه فالفيناه جميل الشكل، ظريف المنزع، بهي المنظر، واسع الفناء، حسن الترتيب، نقي الساحة، وفيه من أنواع الأشجار وغرائب الثمار والنخيل العظيم المقدار والأشكال العجيبة من الأزهار ما لا يحصى، وفيه نخل لا يحلق على ساقه أقل من ثلاثة رجال أو أربعة، لغلظهم الخارج عن حد المعتاد، وفيه القصب الهندي على غاية ما يكون من الغلظ والخشونة، وفيه أنواع كثيرة جدا من

النبات لا نعرفها ولم نكن قبل رأيناها، وكل ذلك يأتون به من جميع أقطار الدنيا، كالهند والصين والمركان واصبانيا وغيرها مما يطول ذكره، فيغرسونه في هذا الجنان بالخصوص بقصد الاختبار هل ينجح بهذا القطر أولا، والنوع الذي رأوا نجاحه يبالغون في تكثيره حتى يصير معروفا عند الخاص والعام، وتدخل منه أموال عريضة تفضل عن صائره الطويل الذيل مما يباع منه للناس من الغرس، كانوا من أهل الوطن أو من غيرهم ممن يريد توجيهه لقطر آخر، ورأينا فيه النعام ولم نكن قد رأيته قبل، وهو طويل العنق كالجمل، كبير الجثة، [138] مليح المنظر، ورأينا الطير المسمى الطاووس متعددا*، وهو طير يأخذ بمجامع القلوب في حسنه وتزويقه ونصاعة ألوانه وكثرتها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن جملة ضبطهم أن المدينة فيها آلاف من الخلق يستغرب سماعها، ومع ذلك فلا يسمع في الأسواق صياح ولا صخب، ولا تقع مشاجرة ولا مضاربة ولا وصب، فكل مشغول بشغله ومقبل على شأنه.

وأما المرسى فلا يسأل عن حسنها، وتقويمها وكثرة مرافقها وخدمتها وآلاتها، وغير ذلك مما يتعلق بها، ولهم فيها استعانة كبيرة ببابور البر في الأشياء الشاقة في الموضوع والموسوق، في كل غروب وشروق، وكنت مشتاقا لركوبه للعلم بأحواله فلم يقدره الله الآن.

وغاية الأمر ومنتهاه أن تتبع الجزئيات من أحوال هذه البلاد يفضي إلى مجلدات، واستغراق مدة كبيرة من الأوقات، والقصد إنما هو التعرض لرؤوس المسائل ليلا تذهب الوجهة بغير طائل، وإن كان هذا القدر الذي ذكرناه، والوصف الذي وصفناه، معلوما عند الناس، ومشهورا عند سائر الأجناس، فهو وإن كان كذلك فغير معروف عند أناس آخرين، ومحبوب سماعه والعلم به عند قوم صالحين، والناس متفاوتون في العقول، ومتباينون في النقول، على [139] أن* ذلك لا يخلو من فائدة عند من شأنه الانصاف ، وتحاشى عن ركوب صهوات الاعتساف، وكان كريم الطباع جميل الأوصاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولما عزمنا على القفول لبلادنا، محل طارفنا وتلادنا، وظهرت لنا أعلام الرحيل، وقام عليها الشاهد والدليل، أمسكت العنان عن هذه الأخبار، وجعلتها برهانا عما وراءها مما أتى أو يأتي

به الليل والنهار، وأسأل الله العلي الستار، العظيم الكبير الغفار، أن يغفر لي ما تحملته في هذا المسطور وغيره من الأوزار، بجاه النبي المختار، سيد الأبرار، وزين المرسلين الأخيار، صلى اله عليه وسلم وعلى اله الكرام الاطهار، وصحابته المنتخبين الأنصار.

ولما أكملت هذا التقييد وتممته، سميته [تطريب الأسماع، بأخبار الجزائر وما يقربها من الأصقاع]، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وكان الفراغ منه ــ وأنا بالجزائر ــ يوم السبت السادس والعشرين من المحرم الحرام، عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، انتهى.

وقد حاز منه نسخة محل الأخ السيد بناصر غنام بعد أن طلبها مني، ولولا هي لزدت أمورا ظهرت لي زيادتها، ولكنني اخترت أن يبقى على نسخة واحدة، وفيها كفاية إن شاء الله تعالى لمن استحسنه من الاخوان، وكان له★ [140] اهتمام بمطالعة أخبار البلدان، ليعلم من لم يصل لذلك القطر ما عليه الأحوال هنالك، سلك الله بنا أحسن المسالك، بمنه وكرمه آمين.

وقبل توجهنا للجزائر بنحو خمسة أيام ــ ونحن بطنجة ــ ورد سلطان النجليز لجبل طارق قبالة طنجة، بينه وبينها في البحر نحو ثلاث ساعات، وذلك يوم الأربعاء التاسع من المحرم عام واحد وعشرين المذكور قريبا، وقد وجه له السلطان سفيرا من قبله، وهو خديمه القائد عبد الرحمن بن عبد الصادق الريفي عامل مدينة فاس، بقصد تهنيته على وصوله لذلك المكان المجاور لايالة السلطان، ثم رجع موفور الجناب بالبرور، ومكسوا من كل الجهات، بالسرور، وشاع الخبر بالاحتفال العظيم الذي احتفله أهل جبل طارق لأجل سلطانهم، وأظهروه في أوطانهم، مما يطول فيه المقال، ولم يكد يخطر بالبال.

وبعد ذلك بقليل جاء سلطان الصبنيول إلى سبتة وأخذ السلطان يحاول توجيه سفير من قبله بقصد تهنيته فلم يتيسر أمره، لأمر لا ينبغي ذكره.

وفي أواسط المحرم عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، ورد الخبر للدولة بأن سلطان الألمان خرج من بلده للسياحة، وأنه عازم على الوصول إلى طنجة في الرابع والعشرين من★ [141] الشهر المذكور، فصدر أمر السلطان لكبراء طنجة بالاحتفال له بكل ما أمكن، وبين لهم وجه العمل في أمره، ثم وجه من حضرته

مولاي عبد المالك عم والده ــ قدسه الله ــ سفيرا لتلقيه بطنجة، وعززه باثنين من أعيان الكتاب، وعدد مناسب من الخيل من محلة الباشا عبد الكريم ولد أبا محمد الشركي، الرابطة بنواحي القصر قرب ابن الريان، وبعد وصولهم لطنجة بيومين ورد سلطان الألمان في اليوم المذكور وصادف كونه يوم جمعة، فضربت المدافع لأجله برا وبحرا، وجاء المسلمون أهل تلك الناحية إلى المرسى، وضربوا بارودا كثيرا خارجا عن القياس، اصطكت به الاذان وتضعضعت الجبال، وتلقاه السفير المذكور ومن معه بترحيب رحيب، واعتناء كبير عجيب، وتوجه لدار باشدوره، ولم يصل للموضعين المعينين له من قبل السلطان بالقصبة وبمرشان، ولم يمكث هنالك إلا ساعة ونصف ساعة، ثم انثنى راجعا وركب البحر ومضى لشأنه، بعد أن حاز من السفير كتاب السلطان والتحفة التي أتحفه بها، وجازاه خيرا على ذلك، ولم يدر أحد السبب في اتيانه للمغرب، وتنوعت الأقاويل في شأنه ما بين مبشر ومنفر، والله أعلم بحقيقة الحال، وما يحاوله في شأن المغرب أولائك* الأنذال، رد الله كيد [142] الكائدين في نحورهم، وعصمنا من شرورهم.

*آمين آمين لا أرضى بواحـــــــدة حتـــى أضيـــف إليها ألـــف آمين

والأمور بيد الله ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير.

ولنتكلم باختصار على أهل دولة السلطان الآن، الذين تدور على أيديهم أمور السلطنة في هذه الأحيان، فمنهم الوزير الفقيه السيد فضول بن محمد غريط الفاسي، ولاه السلطان الوزارة بإشارة المنبهي حين عزل عنها الوزير الفقيه الحاج المختار بن عبد الله بن أحمد بمراكش أول عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف.

ومنهم وزير البحر الفقيه السيد عبد الكريم إبن سليمان الفاسي، ولاه السلطان بإشارة من المنبهي أيضا قبيل عزل الحاج المختار، وكان ذا حظوة واعتبار عند الوزير السيد أحمد رحمه الله، وكان مكلفا عنده بحسب النيابة عنه بإدارة أشغال الأجانب، ولما مات الوزير سعى له المنبهي في الاستقلال.

ومنهم أمين الأمناء الذي إليه المرجع في جميع أموال بيت المال السيد محمد الشيخ بن عبد الكريم التازي الفاسي، ولاه السلطان بإشارة المنبهي

كذلك بمراكش، بعد إعفاء السيد عبد السلام التازي الرباطي الذي كان قبله.

وقد كان ذا جد وصلابة في الدين وغيرة على الاسلام، ولذلك طلب [143] الاعفاء لما رأى* من تبدل الأحوال، ولا زال حيا، وهو الآن بداره بالرباط في أرغد عيش، وتوجه بعد الاعفاء للحج وحج ورجع لمحله وأحسن الله عاقبته، وقد كان السلطان وجه عليه في هذه الأيام لحضرته بفاس، ولما وصل كلفه بالنيابة عنه بطنجة في محل الحاج محمد الطريس التطواني، ثم عزله في الحين مساعدة لأعدائه، وأقر الطريس على عمله، ورجع التازي لمحله بالرباط مهضوما جنابه، ومعمورا بالتحسر والتندم وطابه، وبينه وبين الذي في محله بون بعيد، كما بين الشقي والسعيد.

ومنهم وزير الحرب ورئيس العسكر الفقيه السيد محمد الجباص الفاسي، ولاه السلطان إمارة العسكر بعد عزل المنبهي عنها وتوجهه للمشرق، وكان وقتئذ بالجزائر في غرض مهم للسلطان، فوجه عليه وكلفه بإشارة الوزير السيد عبد الكريم ابن سليمان لقرابة بينهما واتصال.

ومنهم الفقيه الوزير السيد المهدي بن محمد غريط، ولاه السلطان على الشكايات بإشارة أخيه السيد فضول المذكور ومساعدة المنبهي عليه، وذلك بعد عزل السيد محمد ولد السيد علي المسفيوي المكلف بالنيابة في إدارة أشغالها بعد موت أبيه.

ومنهم قائد المشور القائد إدريس إبن يعيش البخاري المكناسي، ولاه السلطان قيادة المشور بإشارة الوزير السيد فضول غريط في غيبة المنبهي في [144] السفارة *لبلاد النجليز والألمان، بعد أن عزل عنها القائد قدور بن الغازي البخاري المكناسي، المولى على يد المنبهي في محل القائد محمد ابن العلام البخاري المعزول عنها، وحيث رجع المنبهي من السفارة عزم على نقض ذلك ورد ابن الغازي لمحله ولم يساعده القدر، وابن يعيش هذا كان خليفة عند قائد المشور القائد ادريس ابن العلام البخاري أيام السلطان مولاي الحسن رحمه الله، وعزله السلطان عنها لأمور بلغته عنه بواسطة الوزير الحاج المعطي بن العربي الجامعي رحمه الله، ولا يخلو مع ذلك من تشكي ابن العلام منه واغرائه

عليه لتجاوزه المعتاد في خطته، ثم ولاه بوجدة، ولما مات السلطان قام عليه أهل تلك الناحية وخرجوا عن طاعته، فعزله السلطان مولاي عبد العزيز عن وجدة وولاه بتطوان قيد حياة الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه الله، وبقي بها إلى أن استدعاه للقيادة على المشور، وهو المنظور إليه اليوم بحضرة السلطان، والمدير لغالب أمور السلطنة بعد نفي المنبهي عنها، وولى في محله بتطوان إبن الغازي، ولا زال كل منهما بمحله إلى الآن، وفي خلال هذه الأخبار أمور لم يسمح الوقت بإفشائها وإبرازها.

ومن المقربين عند السلطان الأمين الحاج عمر بن عبد الكريم التازي الفاسي، وله حظوة ومكانة ونفوذ عال في الكلمة، وهو من غرس المنبهي ومن صنيعته، فكان سببا لطرده وإبعاده*، ثم نفيه من المغرب، وذلك بممالات من سائر هؤلاء الكبراء واتفاق منهم، والجزاء من جنس العمل. [145]

ومن كبراء الدولة الحاجب الأمين أحمد الركينة التطواني، وهو أيضا من غرس المنبهي.

ومنهم الأمين الوريضي الفاسي، المولى في محل الأمين السيد العربي الزبدي الرباطي، وليس له في تلك الولاية إلا الاسم.

وأما الكتاب بالحضرة فغالبهم من الكتاب المذكورين في دولة مولانا الحسن قدسه الله، وحالهم اليوم في انحطاط، تداركنا الله وإياهم بألطافه الخفية، ومواهبه العلية.

وكل هؤلاء الناس لا زالوا موجودين في الوقت، وهو أوائل صفر عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، وعلى يدهم تدور أمور السياسة، وغالبها مختل لجريانه على غير مهيعه، من أجل العصبية التي لبعضهم والطمع، ولهم اجتماع ومشاورة في الأمور كل يوم تشبها بالجمع الذي يجعله سائر الدول، وليس له كبير فائدة عندنا للعلة التي ذكرنا، وقد تقدم أن هذا الجمع حدث في الدولة لما ظهرت الخوارق في السياسة، ولعل الاشارة به وردت من عند بعض الأجناس من جملة ما ورد من عندهم كالترتيب وغيره، قلب الله القلوب للخيرات، وللأعمال الصالحات، ولما فيه صلاح المسلمين والمسلمات والمؤمنين

والمؤمنات، وأحسن لنا العواقب، وجعلنا في المعارف والعوارف كالنجم الثاقب، بمنه وكرمه آمين.

[146] وقد ظهر لي* أن نسوق باختصار بعض الكلام على مدينة فاس، العاطرة الأنفاس، تبركا بذكرها، وذكر بعض صلحائها، وياليتني حضرني من كتب التاريخ ما نستعين به على ذكرها، ليلا نخل بشيء من أمرها، ككتاب «القرطاس في أخبار مدينة فاس»، أو كتاب «الاستقصا، لأخبار ملوك المغرب الأقصا»، أو كتاب «الدر النفيس في مناقب مولانا إدريس»، أو غير ذلك، وعلى كل حال فإني أذكرها بحسب فهمي، وما أداني إليه علمي، والعذر لي إن أخطأت وجه الصواب، حيث لم يحضر لدي الآن في أخبارها كتاب.

أما فاس فإنه لا نزاع في أنها أم المدن بالمغرب والقرى، ومعدن الحضارة في هذا الثرى، وأنها محل العلم والعرفان، والقريحة الوقادة وصفاء الأذهان، والنظافة والوجاهة. والتيقظ واللباقة والنباهة، والصنائع المحكمة المحمودة، والذخائر الكثيرة الموجودة، والأموال الغزيرة المعدودة، والديار التي فاقت إرم ذات العماد، والبضائع المشكورة في كل البلاد، والمساجد البهية المعمورة، والمواهب المؤبدة المدخورة، والفرش المرفوعة المنشورة، والتأنق في الملابس والمآكل والمشارب، والتنافس في اقتناء الوظائف والمناصب، والتجافي عما يؤدي إلى المهالك والمعاطب، والمحافظة على المروءة والسمت المقبول، والهيئة الحسنة التي لا يعتريها أفول، *والمتنزهات الرائقة، والمياه المتدفقة الفائقة، [147] إلى غير ذلك من المآثر، التي لا تسعها الدفاتر، ولولا ضيق أزقة فاس وكثرة عقباتها، وتوالي الغلاء عليها وصعوبة جيرانها، من القبائل المحيطة بها، لما تهيأ لعاقل أن لا يستقر إلا بها، لما فيها من زيادة الأمن على الأهل والأولاد، والحمل على ما ينفع في المحيا والمعاد، ومن لم يجلس بفاس، قدر ما يستيقظ من النعاس، ويزول عنه الالتباس، لم يعلم ما عليه الناس، ولم يزل غريقا في بحر التيه والافلاس، ولا يكاد يسلم في أمر دنياه من الباس، وعندي أن الحذق المكتسب بغير فاس جبار، وأنه هباء وغبار، وليس الخبر كالعيان.

ولأهل فاس صبر كبير على الأسفار، والجولان في سائر الأقطار، فلا تكاد تجد بلادا إلا وهم فيها بالعدد الوافر، والصيت الطائر.

وعندهم اعتقاد في الشرفاء، والصلحاء والعلماء، يبذلون في محبتهم كرائم الأموال، ويوسعون لهم دائرة الاجلال والإفضال.

ولهم اعتناء بالمساجد والحرمات، والتجاء إليها عند اعتكار الظلمات، واشتداد الخطوب والغمرات.

ولهم عوائد وأعراف، ونعوت وأوصاف، تحار فيها القطا، وتتقاصر لديها الخطا، حملوا كلها برورا، وتناولوها سرورا، ميلا إلى اقتراحات من يعولون، [148] *ووقوفا مع ما يرجون ويؤملون،وتوسعو في ذلك قوف الامكان، بحسب ما يستدعيه الوقت وتقتضيه الأزمان.

وعلى كل حال فمدينة فاس تسكن لما فيها من كثرة الأمن والوقار، والوقوف عند الحد من الكبار والصغار، وهي مدينة العلم والمال، والاقبال على ما ينفع في الحال والمآل، من النساء والولدان والرجال، فلا مثل لها في ذلك فيما علمت من مدن المغرب كلها، سهولها وجبالها.

اللهم إلا أن يكون من جهة رفق المعيشة ورخص الأسعار، وكثرة الخيرات والثمار، والأشجار اليانعة الأزهار، التي بلغت مبلغ الذر والنمل في كثرتها، فمراكش أولى بذلك منها، وليس الخبر كالمعاينة، والمنصف اللبيب الذي لم يكن عقله وراء لسانه إذا عاينهما يعلم ما بينهما من المباينة، وسبحان من أعطى لكل شيء ما يذكر به من محاسنه الجميلة، ومواهبه الجزيلة، وعطاياه الفخيمة الجليلة، سدل الله على من بهما من المسلمين الستر الجميل، وحفظنا وإياهم من كل مكروه وكل وبيل، آمين.

ومن مزارات فاس المشهورة، وحرماتها المنورة المبرورة، التي عاشت في الأفاق ببركاتها الموفرة المنشورة، وخيراتها الميسرة المعمورة، مقام الشريف الغرطيف، والضيء ضيء العنيف، ذي* القدر المنيف، والظل الوريف، القطب [149] العامل، والغوث الواصل الكامل، الولي الصالح الجامع، والغوث الهامع المانع، الدر النفيس، أمير المؤمنين أبي العلاء سيدنا ومولانا إدريس بن ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن مولانا علي ومولاتنا فاطمة الزهراء، رضي الله عنهم وأرضاهم، وأكرم مثواهم، وجعل جنة الفردوس متقلبهم ومأواهم، وهو مقام حفيل، ومحل جميل جليل، ما شئت من بهاء

ونور، وسناء تخجل (2) منه البدور، ورونق تتباهى به الأعصار والدهور، وفيه من الأذكار، وقراءة القرآن بالليل والنهار، وقيام الصلوات في أوقاتها، وتأديتها على أحسن هيئاتها وصفاتها، والمحافظة على شعائر الاسلام، وتلاوة دلائل الخيرات في الصلاة على النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ما لا يوجد في غيره من الحرمات بالمغرب.

ولأهل فاس بل ولجميع أهل المغرب اعتقاد كبير في جانب مولانا إدريس بن إدريس، ومحبة تامة لا يبلغها عندهم أحد من الأولياء، والدعاء عند ضريحه المقدس مستجاب، والناس يقصدونه من شاسع الأقطار، ويزدحمون على زيارته والتضرع بين يديه بالليل والنهار، والعشايا والأسحار، وآثار النجاح عليهم لائحة، وتلألؤ الأنوار غادية لديهم ورائحة، وقد زرته — والحمد لله — مرارا، [150] ★ودعوته وتشفعت به جهارا، وأنشدت بين يدي ضريحه الكريم، ومقامه العظيم، قصيدة من نظمي متوسلا به، ومتشبثا بسببه، مستفتحا ببيت من إنشاء غيري تبركا، ونصها

يا غارة اللـــه جدي السير مسرعـــة	في حل عقدتنـــــا يا غارة اللـــــــه
يا غارة اللـــه إني في التجــــاء إلى	إغاثـــــة منك لي يا غارة اللـــــه
يا غارة اللـــه إني خائــــف وجــــل	ففرجـــي كربتـــي يا غارة اللـــــه
يا غارة اللـــه إني قد رجــــوتك في	دفـع الـــذي مسنـــي يا غارة اللـــه
وجــلب مأثــرة إلـيّ عن عجـــــل	وصرف معتبـــــة يا غارة اللـــــه
وبسط رزق هنـــــي ما له غايــــة	تقــــر عينـــــي به يا غارة اللـــه
وهـــد ركـــن عدو ناره أشتعــــلت	وقطـــــع دابــــره يا غارة اللـــــه
ورد كيــــد له في قعــــر لبتــــه	وسوق حتـــــف له يا غارة اللـــــه
بجاه طه الـــــذي جلت مآثــــــره	نبينـــا المصطفـــــى يا غارة اللـــــه
وحــق جاه إبنـــــه مولاي ادريس من	طابت به فاسنـــــا يا غارة اللـــــه
هو الامـــام الـــذي قد جد واجتهدا	في نصر ملتنــــا يا غارة اللـــــه
حتـــى استنـــارت به أرجاؤهـــا وسمت	في قطـــر مغربنــــا يا غارة اللــــه
وشيــد الديـــن وانتـــفت مخاوفـــه	واستـــــبشرت ناسه يا غارة اللــــه

(2) من باب فرح

وجاهد الكفر فانمحت معالمه	وبددت أهله يا غارة الله
وقام يدعو إلى الاله محتسبا	بصدق عزم له يا غارة الله
وناب عن جده في نصح أمته	ونشر ملته يا غارة الله
[151] *إني استجرت به وقمت في بابه	مستشفعا خاضعا يا غارة الله
مستمنحا فضله وسائلا بذله	وماسكا ذيله يا غارة الله
فسارعي لي بما قد رمت من ولد	للمصطفى ذي الوفا يا غارة الله
وأنني واثق بنيل حاجتنا	وصرف حال العنا يا غارة الله
فعجلي عجلي إن لم تكوني لها	فمن يرام لها يا غارة الله
عليك مني سلام دائم عطر	بالمسك نختمه يا غارة الله

انتهى، ولست شاكا في الاجابة، وقبول الانابة، إن شاء الله تعالى، ومناقب مولانا إدريس وكراماته أكثر من أن تحصى، أو تعد وتستقصى، نسأل الله ــ تعالى ــ أن ينفعنا به وبأمثاله، وأن يجعلنا في حماه وتحت حياطته، آمين.

ومن مزارات فاس الكبيرة، ومقاماتها الجليلة الشهيرة، مقام الولي الصالح، والقطب الواضح، الجليل المقدار، الكامل الفخار، العالم العلامة، البحر الحبر الفهامة، شيخ الشيوخ، ومعدن العرفان والرسوخ، والطود الراسي، سيدي عبد القادر الفاسي، دفين حومة القلقليين، رضي الله عنه ورحمه، وهو مقام جليل، ومحل بهي جميل، فيه أنوار مشرقة، وآثار من نفحات الخيرات متدفقة، وله في قلوب الناس تعظيم كبير، وتفخيم شهير، وقد زرته مرارا والحمد [152] لله، ونقلت تاريخ وفاته وتحليته، من الرخامة *التي بإزاء قبره، وهذا نصها، تبركا بما اشتمل عليه نعتها ووصفها: الحمد لله حق حمده، صلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده، بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، هذا قبر الشيخ الامام الولي الكامل، العالم العامل، سيدي عبد القادر بن الفقيه الصالح سيدي علي، بن الشيخ الكامل سيدي يوسف الفاسي، رضي الله عنهم، ونفعنا ببركاتهم، آمين، وكانت وفاته ــ رضي الله عنه ــ يوم الأربعاء ثامن رمضان المعظم، عام إحدى وتسعين وألف هجرية».

وعند رجليه قبر ولده العالم العلامة سيدي عبد الرحمن، وبازائه رخامة مكتوب فيها تاريخ وفاته، وهذا نصها «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الحمد لله الدائم البقاء والوجود، والصلاة والسلام على سيدنا محمد معدن المجد والجود، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وحشرنا معهم آمين، هذا ضريح العالم النحرير، المشارك الشهير، نادرة الزمان، أبي زيد سيدي عبد الرحمن، نجل العالم العابد، القدوة البركة الزكي الزاهد، والممد بعلم الباطن والظاهر، أبي السعود سيدي عبد القادر، نجل الولي الواضح الولاية، الملحوظ من الله تعالى بعين العناية، ذي الفضل الجلي، [153] *والقدر العلي، أبي الحسن سيدي علي، بن الشيخ الكامل، العالم العامل، ذي الفتوحات الربانية، والأسرار المؤيدة بالمواهب الالهية، القطب الجامع، والغيث الهامع، طود المجد الراسي، الشامخ المقدار أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي اللقب والدار الأندلسي، الفهري المالقي الكناني النجار، توفي — رحمه الله — ضحوة يوم الثلاثاء سابع وعشرين جمادى الأولى، سنة ست وتسعين وألف».

قلت والشيخ أبو زيد هذا له تأليف في بيوتات فاس المشاهير في القديم، منهم بيت بني عشرين، ونص ما قاله فيهم

«بيت بني عشرين الخزرجيين بيت علم وأصالة، منهم فقهاء أئمة كالفقيه أبي الحسن علي بن عشرين، كان فقيها حافظا محصلا متبحرا في الفقه، وتفقه عليه فقهاء المغرب، وكان يحفظ المدونة، ومن صدره نقلت بعد أن حرقها ملوك الموحدين من بني عبد المومن بن علي، يروي أنه لما حيزت من صدره أول الدولة المرينية، قوبلت بعد ذلك مع نسخة وجدت فوجدوها كهي لا خلاف بينهما إلا في فاء أو واو انتهى منه بلفظه وحروفه بواسطة.

وعند رجلي أبي زيد قبر أخيه الولي الصالح، العالم العلامة سيدي محمد بن سيدي عبد القادر، ونص ما في الرخامة المجعولة بإزائه لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده وآله، هذا قبر شيخ الشيوخ العارفين، وقدوة أهل الرسوخ المحققين، صاحب الاشارة العلية، والعبارات السنية، الامام العلامة، الحبر البحر الفهامة، الشهير

شرقا وغربا بالولاية والعلم أبي عبد الله سيدي محمد بن سيدي عبد القادر ابن سيدي علي بن أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي، ملين القلب القاسي، طيب الله ضرائحهم، ورضي عن جميعهم، وتوفي رحمه الله زوال يوم الخميس التاسع والعشرين من رجب الفرد، ودفن يوم الجمعة، وذلك سنة ستة عشر ومائة وألف هجرية»، رضي الله عنهم جميعا ونفعنا بهم.

ومن جملة المدفونين بذلك المقام المطهر سيدي عبد الواحد بن محمد الفاسي★، المتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، ونص ما في الرخامة المجعول بإزائه «الحمد لله وحده، هذا قبر العالم العلامة، المشارك الواعظ، سيدي عبد الواحد، بن الفقيه العدل الفرضي الحيسوبي سيدي محمد الفاسي، توفي رحمه الله في الثاني من ذي الحجة الحرام، متم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية» ورجلاه عند رأس سيدي عبد القادر الفاسي، وهذه القبور الأربعة كلها في صف واحد مستقيم، وخط معتدل سوي قويم. [154]

وبهذا المقام قبور كثيرة لاناس مختلطين، لا يمكن النص على اعيان أهلها، رحم الله الجميع، وجعلنا وإياهم في حماية النبي الشفيع، صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ومن المدفونين بهذا المقام المكرم الشريف الحسيب، الصالح الأريب، سيدي محمد بن عبد الحفيظ الدباغ، ونص ما كتب على قبره «الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده، هذا ضريح الولي الكامل، الغوث الحافل، صاحب الاشارات العلية، والعبارات السنية، ذي النسبتين الطاهرتين الجسدية والروحية، سيدي محمد، بن ولي الله تعالى سيدي عبد الحفيظ، الادريسي الحسني الشهير بالدباغ، نفعنا الله به، وجعلنا من أهل دائرته وحزبه، توفي ــ قدسه الله ــ يوم الثلاثاء سابع محرم الحرام، فاتح عام واحد وتسعين ومائتين وألف هجرية».

[155] ★ومن مزارات فاس، العاطرة الأنفاس، المزيلة عن كل قلب مليم كل بأس، وكل وسواس والتباس، مقام الولي الصالح الفجر الساطع، والنور اللائح الطالع، الذي هو لكل منقبة وكل كرامة جامع وحاوي، البدر المنير، والقطب الشهير، سيدي أحمد الشاوي دفين حومة الجرف، الجميل النعت والوصف، رضي الله عنه وأرضاه، ونفعنا به وبأمثاله، آمين، وقد تكلم على مناقبه وكراماته

في ممتع الأسماع، في مناقب الجزولي والتباع، ومالهما من الاتباع، وليس هو ــ الآن ــ تحت يدي.

ومن جملة المزارات المشهورة، والمواضع المعظمة المبرورة، مقام الولي الصالح الرباني، والقطب الواضح المصمداني، الشيخ العارف سيدي أحمد التجاني، دفين حومة البليدة، رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به وبأمثاله، آمين، وهو مقام جليل، ومحل بهي حفيل، فيه أنوار تتلالا، ونفحات ربانية تتزايد غدوا ورواحا وتتوالى، وفيه من الوقار والسمت الحسن ما يليق بمقامات الأولياء، البررة الأتقياء، ولأصحابه وتلامذته اعتقاد كبير فيه، واهتبال لا تستقصيه العبارة أو تستوفيه، وزاويته معمورة بالخيرات والفرش الرفيعة والأواني، رائقة المعاني والمباني، وقد زرته ــ والحمد لله ــ مرارا، نفعنا الله به وبأمثاله آمين، [156] وحضرت بمقامه الجليل* ليلة السابع والعشرين من رمضان عام اثنين وعشرين وثلاثمائة والف، فأعجبني ما رأيت فيه من السكينة والوقار والسمت الحسن، والأصغاء لقراءة القرآن، ومنع الصبيان والنسوان في تلك الليلة من الدخول إليه، وغوغاء الناس وأراذلهم وأهل اللغط والضجيج، كما هو واقع في غيره من مساجد فاس وحرمات أوليائها، وخصوصا في تلك الليلة المباركة، وجلست فيه كثيرا، وأمكنني أن صليت فيه ما شاء الله تعالى تقبل الله، والله يجازي خيرا من سعى في تلك الحسنة ومهدها في ذلك المقام الشريف، ونسأله تعالى أن يوفق لمثل ذلك سائر القيمين بالمساجد والحرمات، خصوصا مقام مولانا ادريس ومسجد القرويين، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه، وفقنا الله والمسلمين لما فيه رضاه، وتداركنا جميعا بلطفه الخفي، آمين.

ومن مزارات فاس المعظمة، ومواضعها المكرمة المحترمة، التي وقع الاتفاق على بركاتها واعتبارها، والحض على اغتنام نفحاتها وأسرارها، واقتطاف أنوارها وأزهارها، مقبرة باب الفتوح خارج المدينة في سمت القبلة، المعروفة بمقبرة القباب، على يمين الخارج من الباب، فقد سمعنا سماعا متواترا من الثقات أن بهذه المقبرة الجليلة من مقابر الأولياء والصلحاء والعلماء وأهل الخير [157] في القديم والحديث، ما لا يمكن حصره ولا يتأتى عده، وأن* الناس يتلمحون فيها خيرا كثيرا، ويذكرونها ذكرا جميلا كبيرا، ويعظمونها ويتبركون بها، وهي

بقيع فاس، كما أن مقبرة باب أغمات بقيع مراكش، ومن الأولياء المدفونين بها الولي الصالح، العالم العلامة الماهر أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي، رضي الله عنه، ومنهم قطب الأقطاب، ومعدن الصلاح والفلاح ولي الله تعالى سيدي أحمد اليمني الشريف القادري، رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ومنهم الولي الصالح الرابح، الغوث الفرد، الشريف النسب، الكريم الحسب، سيدي عبد الغزيز الدباغ صاحب الذهب الابريز، رضي الله عنه، ومنهم الولي الصالح، العالم العلامة الناجح الرابح، سيدي حماموش رضي الله عنه، ومنهم الولي الكبير، الصالح الشهير، علم الأعلام، ومصباح الظلام، الجليل، سيدي الدراس ابن اسماعيل، وغيرهم ممن لا يحصى، رضي الله عن جميعهم، ونفعنا ببركاتهم، آمين.

وقبالة هذه المقبرة الجليلة مقبرة أخرى في ناحية الشمال، تعرف بمقبرة الغرباء، وفي وسطها مقام الولي الصالح، الغوث الجامع المانع سيدي علي بن حرزهم، رضي الله عنه وأرضاه، ونفعنا به وبأمثاله آمين.

وبداخل باب الفتوح مقبرة عظيمة تسمى مقبرة باب الحمراء، فيها من الصلحاء وأهل الخير شيء كثير، وبها مقام الولي الصالح، العالم العلامة الناجح، سيدي محمد بن عباد، شارح حكم ابن عطاء الله، رضي الله عنهما، وفيها ـــ أيضا ـــ مقام الولي الصالح أبي الحسن سيدي علي بو غانم بالنون★ والميم، ومنهم من يبدلهما باللام والباء، وهو مقام جليل حفيل، وللناس [158] به اهتمام عظيم، واعتقاد كبير، وهو مقصود للتداوي، فلا تكاد تخلوا ساحته من المرضى المجاورين به، وله سر كبير في ذلك، وللحجامين فيه محبة عظيمة، حتى إنهم ملتزمون لجعل موسم عظيم له كل عام في الخريف، ويقومون بجميع ما يجب فيه من الأطعمة الكثيرة المعتبرة وغيرها، ويختنون فيه أطفال المسلمين الذين لا حصر لهم ولا نهاية من غير أجرة ولا شيء ابتغاء وجه الله تعالى، وتاتية الناس من كل فج عميق بقصد الحضور فيه، ولم نعلم موسما بفاس يكون مثله في العمارة وكثرة الخلق، رضي الله عنه وأرضاه.

وبخارج باب المحروق مقام الولي الصالح، العالم العلامة الجليل أبي بكر بن العربي الأندلسي رضي الله عنه، وهو مزارة معظمة عند أهل فاس،

وهو بعيد من الباب بنحو المائة خطوة على يسار الخارج منه، وقبالة الباب المذكور بنحو عشر خطوات قبر الوزير الشهيد، لسان الدين ابن الخطيب، السلماني الأندلسي، ذي الوزارتين، وذي العمرين، وذي الشهادتين، رحمه الله ورضي عنه، وفي الطريق المارة لسوق الخميس، وآثار الخمول عليه ظاهرة، ولوائح الغربة لائحة على أطلاله وسافرة، وقد جدده وأعاد ترميمه في هذه [159] الأزمنة القريبة* الشريف الجليل، العالم العلامة الأصيل، مولاي إدريس بن عبد الهادي العلوي الفاسي دارا ومنشأ، وهو ابن عم السلطان، ولا زال حيا في هذا التاريخ الذي هو أواخر صفر عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، وكتب اسمه على القبر وبينه وأظهره، وأحاط به بنيانا صغيرا علوه نحو نصف قامة على يمين المار لسوق الخميس، أثابه الله وأجزل عمله، وقد زرته وقرأت بإزائه ما تيسر من القرآن، ودعوت له بالرحمة والغفران، تقبل الله ذلك، ومن نثر إبن الخطيب، كما في نفح الطيب، نقلا عن كناش الفقيه السيد عبد الرحمن الشرفي رحمه الله ما نصه

«أيها الناس رحمكم الله، إخوانكم المسلمون بالأندلس قددهم العدو ــ قصمه الله ــ ساحتهم، ورام الكفر خذله الله استباحتهم، وزحف أحزاب الطواغيث إليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم بعدة الله أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهاد الجهاد فقد تعين، والجار الجار فقد قرر الشرع حقه وتبين، الله الله في الاسلام، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فاغيثوه، قد تأكد عهد الله [160] وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الاعانة أعانكم الله* عند الشدائد، جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، وواسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، والسنة والآيات تناديكم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم، والله يقول فيه يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم، ومما صح عنه قوله «من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار، لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جنهم، من جهز غازيا في سبيل

الله فقد غزا، «ادركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الاسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسئلكم عن عباده، جاهدوا في سبيل الله بالألسن والأقوال حق جهاده.

ماذا يكون جوابكم لنبيكم — وطريق هذا العذر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في أمتي — وتركتموهم للعدا والمعتدي
تا لله لو أن العقوبة لم تحق — لكفى الحياء من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم الضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على اعدائك، بأحبائك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهم افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا».

وأما بقية الصلحاء بداخل المدينة وخارجها فإنهم لا يحصون كثرة، [161] وقد تكفل بذكرهم* والتنصيص على أعيانهم ومواضع ضرائحهم الفقيه العالم العلامة، الشريف العفيف، الزاهد الورع الحيي الخير الولي الصالح سيدي محمد بن جعفر الكتاني — جزاه الله خيرا — في كتاب له سماه «سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس»، وجزاه ثلاثة أجزاء، وعندي نسخة منه بمراكش، فليطالعه من أراد استيفاء صلحاء فاس معرفة، فإنه شفى وكفى، وما ذكرت من ذكرت منهم إلا تبركا بهم، ومحبة فيهم، ليلا يخلو كتابي هذا من ذكر الصلحاء الذين تتنزل بذكرهم الرحمات، جعلنا الله في حماهم آمين.

وأما مساجد فاس فإنه لم يكن فيها أكبر ولا أحسن ولا أبهى من أربعة مساجد، وهي مسجد القرويين، ومسجد الأندلس، ومسجد الرصيف، ومسجد باب الجيسة، عمرها الله بذكره، وأكبرها وأعظمها مسجد القرويين، فلا أعلم مسجدا بسائر بلاد المغرب الأقصا أكبر ولا أبهى ولا أنقى ولا أكثر تدريسا للعلوم منه، وهو مسجد بهي رائق منور، عليه طلاوة ولباقة ورونق، وله أبواب كثيرة تقرب من اثني عشر بابا من سائر جهاته الأربع، وبه ثلاث بيلات أي خصات يفور منهن ماء كثير، واحدة في الوسط، وواحدة في

الناحية الجنوبية، وواحدة في الناحية الشمالية، وبه صهريج بناحية الباب المقابل لدار الوضوء فيه ماء كثير جدا، وبه عشر بلاطات من الصحن إلى [162] المحراب، *كل بلاط فيه واحد وعشرون قوسا، بين القوس والقوس اسطوانة أي سارية، وبناحيتي الجنوب والشمال بلاطات أصغر من ذلك، وبناحية الغروب بلاط واحد، وأشهر أبوابه باب الشماعين، وهو في نهاية الضخامة، والعلو والارتفاع والمتانة والعظمة، وبالقرب منه داخل المسجد صومعته، وبها بيت الميقاتي الذي يرقب الأوقات ليلا ونهارا، والصومعة لازالت على حالها الذي انشئت عليه في الزمن القديم، شكلها وشكل صومعة جامع الأندلس واحد، بخلاف ما عليه هيئة الصوامع الآن، وبهذا المسجد منبر عظيم، من العمل القديم، وبه من غرائب الصنائع، وعجائب البدائع، ما يترك الألباب حائرة، ولا أظن أحدا اليوم يقدر على القرب من محاكات ذلك فضلا عن أن يصنع مثله، وذلك دليل على رفع همم الأقدمين، واعتبار إيمانهم وإسلامهم ومحبتهم، رحمهم الله ونفعنا بهم آمين، وقبلته منحرفة جدا، والمؤذنون ينبهون الناس كل جمعة على انحرافها، وقبلته المحققة هي لناحية سبع لويات، فيبقى المحراب عن يمين المصلى، والخطيب بهذا المسجد العظيم اليوم وهو أواخر صفر عام ثلاثة وعشرين المتقدم، وأمام الجمعة فيه هو الفقيه العدل الخير، الفصيح البليغ الحافظ المتقن أبو زيد سيدي عبد الرحمان الفاسي، من ذرية سيدي [163] عبد القادر الفاسي، *وله معرفة بصناعة الخطبة فاق بها جميع من رأيت من خطباء فاس، وفيه فصاحة تامة، وعليه طلاوة، وسمته سمة الأخيار، حفظه الله وكثر في المسلمين أمثاله، آمين، وعن يسار المحراب خزانة لوضع الكتب احدثت في أيام بني مرين، ونص ما هو مكتوب عليها «الحمد لله وحده، أمر بعمل هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، عبد الله فارس أيد الله أمره، وأعز نصره، بتاريخ شهر شوال سنة خمسين وسبعمائة، رزقنا الله خيرها»، قلت هذا السلطان هو أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن المريني، ولا زال العلم ينشر بكثرة في هذا المسجد المبارك، أدامه الله كذلك.

ولم يكن بفاس مسجد يبلغ في التعظيم والاحترام والوقار مبلغه، ولم نر به ما يخل بذلك، إلا ما يقع فيه ليلة السابع والعشرين من رمضان من

الضجيج والصراخ واللغط وكثرة ازدحام الخلق من كل فريق حتى إنه لا يوجد محل به فارغ، وتقع في ذلك خصومات ومشاجرات ومناوشات بالضرب بالحديد والجرح والقتل والترافع للحاكم، ومن أجل ذلك يأتي الحاكم للجلوس بالمسجد الليل كله مع أعوانه، لاطفاء نار الخصام الذي يقع هنالك، من غير التفات منه لتطهير المسجد من جلبة أولئك الأوباش، ولا يبعد أن يجد الكفار [164] السبيل ★للدخول إليه ويدخلون، وكذلك النساء، وقد قيل ذلك، ولما عاينا ذلك تعجبت غاية التعجب، وذهبت للمحراب لاستماع القرآن فلم نصله إلا بمشقة من الازدحام، ولم نسمع قراءة الامام لكثرة الصياح والضجيج من الأنام، ولم يكن من ورائه إلا أناس دون العشرة بقصد الصلاة، وأي صلاة لهم مع تلك الفتنة التي تتحاشى بيوت الله تعالى عنها، ومن عادتهم أن غالب من أراد الدخول للقرويين في تلك الليلة أنه يشتري الجوز أي الكُرْكاع بلغة أهل الجوز ويأكله بداخل المسجد، ويرمي بقشره فيه ويتركه به، فيكون المسجد كله على كبره وأتساعه مملوًا بالقشر، حتى لا يأتي للماشي أن لا يضع قدمه إلا عليه، وتحصل الاذاية للناس بذلك في أرجلهم، وحيث سألت عن السبب فيه وفي هذا التهاون بمنصب هذا المسجد العظيم ــ الذي بلغ الغاية القصوى في الوقار والحرمة ولا سيما في هذه الليلة التي هي ليلة العبادة والخضوع والإنابة والخشوع ــ قيل لي إن هذه عادتهم من قديم الزمان، وأن الحكام حاولوا قطعه ولم يتيسر، على أن ذلك القشر الذي يبقى بالمسجد فيه مصلحة للمؤذنين، فيبيعونه لأهل الأفران ويتمعشون بثمنه، فانظر بالله هذا الهذيان [165] الذي ليس هو في شيء من طريق العدل والانصاف، وقولهم ★حاولوا قطعه ولم يتيسر فإنما هو محض كلام ومجرد تهافت، وإلا فلو كانوا صادقين في قطع ذلك من المسجد وسائر مساجد فاس وحرمات أوليائها لما خفي عليهم كيف يفعلون، وأقرب شيء لذلك في القرويين أن لا يبقى باب مفتوحا بها في تلك الليلة إلا ثلاثة أبواب باب الشماعين وباب دار الوضوء وباب آخر ثالثا، وتكون الحرس بتلك الأبواب الذين لهم القوة على الدفع والقبول والمنع، فلا يدخل للمسجد إلا الأفاضل، ولا يدخله الرعاع وأراذل الناس والصبيان والنسوان، ومن لا خلاق لهم، إلا صبيا معه والده أو أحد من أهله يكفه ويزجره، وينقطع ذلك في الحين، ويكون للساعي فيه أجر كبير متين، وبقاء

ذلك فيه ثلمة في وجه الاسلام، وخدشة مقرونة بالإيلام، جبر الله الأحوال، وقلب القلوب لكل خير.

ويوقد في هذا المسجد في تلك الليلة الكريمة مالا نهاية له من المصابيح، فما رأيت مثل ذلك في غيره، وحاصله فتتبع مآثر هذا المسجد المبارك يفضي إلى تطويل كثير، وذلك لعدم كتاب ننقل منه علي عسير، وما ذكرت إلا ما عاينته ورأيته وشاهدته، ولم نستند فيه لغيري.

وباني مسجد القرويين امرأة إسمها فاطمة بنت محمد الفهري، وتكنى أم البنين، شرعت فيه يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين، وكان صغيرا، ثم زاد فيه الملوك والأمراء بعد ذلك، إلى أن صار على ما عليه اليوم في السعة والانفساخ.

ويقرب من مسجد القرويين في الضخامة ورفعة الشأن مسجد الأندلس، وهو أيضا مسجد جليل، مبارك بهي جميل، عليه رونق وطلاوة، وسمة حسنة وحلاوة، وبه الماء الكافي، والسر الشافي، والبهجة *التي هي كل حين [166] توافي، وله حرمة ووقار وتعظيم، وإكبار عريض فخيم، والناس يقصدونه للتبرك به والزيارة، ومناره كمنار القرويين في الكيفية التي كانت في ذلك الزمن مختارة، وبه أيضا بيت لأهل التوقيت، إلا أن التوقيت اليوم خاص بالقرويين، وفيه رخامة لمعرفة ظل الزوال صنعها صاحبها عام سبعمائة وستة وثمانين، وأمام الجمعة به والخطيب في هذا الحين هو الفقيه الخاشع الخير الحيي العدل الحافظ الثقة السيد الطاهر ابن سودة، كثر الله في المسلمين أمثاله، وأصلح أحوالنا وأحواله، وهو الامام أيضا في صلاة العيدين خارج باب الفتوح، وله نورانية وسمة حسن مقبول.

وبمسجد الأندلس هذا أبواب متعددة، أشهرها وأكبرها وأفخمها باب في ناحية الغروب ولعله من بناء بعض ملوك بني مرين، وهو بناء حفيل عليه رونق السلطنة وأبهة الملك، وفي صدر المسجد خزانة لوضع الكتب عن يسار المحراب، أمر بجعلها هنالك السلطان أبو سعيد بن أبي العباس المريني عام ستة عشر وثمانمائة، وبه سبع بلاطات من الصحن إلى المحراب، وبازائه مدرسة حفيلة أنشأها أبو الحسن المريني المعروف بالسلطان الأكحل سنة احدى

وعشرين وسبعمائة، وهو واسطة عقد ملوك بني مرين، وهي الآن على طرف
[167] الذهاب والاضمحلال، والفناء اللاحق *لكل حادث، وإن طال ما طال، وبقربه أيضا ميظأة كبيرة حفيلة فيها ماء كثير، وهي من عمل المريني كذلك، والله اعلم، وحاصله فإن هذا المسجد أشهر وأكبر مساجد فاس بعد القرويين عمرهما الله بأهله، وقد تكلم عليهما وعلى من أنشأهما بكلام طويل في كتاب «القرطاس في أخبار مدينة فاس»، فليقف عليه من أراده.

وأما مسجد الرصيف فإنه أيضا جليل القدر، حسن المنظر، وهو على هيئة جامع ابن يوسف بمراكش وعلى شكله، وصومعته كصومعته، غير أن مسجد الرصيف أصغر منه، وبانيه أمير المؤمنين مولانا سليمان بن أمير المؤمنين مولانا محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن أمير المؤمنين مولانا اسماعيل بن الشريف، وبه ماء كثير، وبإزائه ميضأة حسنة واسعة الفناء، وبها مياه كثيرة، وخطيب الجمعة اليوم فيه وأمام صلاتها رجل من أولاد ابن سودة، وهو حفيد للفقيه العلامة السيد المهدي ابن سودة الذي كان قاضيا بمكناس، وله مروءة وسمت [3] حسن.

وأما مسجد باب الجيسة فهو واسع أيضا، وفيه نورانية وله بهاء ورونق وبهجة وانشراح، وهو أصغر من مسجد الرصيف، وقد جدده السلطان مولانا
[168] عبد العزيز أيام الوزير السيد أحمد بن موسى* رحمه الله، وأصلح ما انثلم منه، وله صحن جيد واسع، وبه أشجار اللارنج على عادة القدماء، عمره الله بذكره، وصلاة الجمعة فيه تتأخر إلى قرب العصر، على نحو ما يقع بمراكش في مسجد الشيخ الجزولي رضي الله عنه، رفقا بالناس، وتتأخر صلاة الجمعة أيضا بمدرسة الوادي بالعدوة قرب جامع الأندلس، وباقي مساجد فاس صغار بالنسبة لهذه المساجد التي ذكرت، ولذلك لم نتعرض لها خوفا من التطويل.

وأما مساجد الخطبة بفاس فسبعة عشر، وهي مسجد مولانا ادريس، ومسجد القرويين، ومسجد الأندلس، ومدرسة الوادي، ومسجد الرصيف، ومسجد باب الجيسة والمدرسة البوعنانية وجامع الشرابليين ومسجد سيدي أحمد الشاوي والزاوية الناصرية بعد أن لم تكن للخطبة، وأول جمعة صليت بها

(3) السمت الطريق، وهيئة أهل الخير.

جمعة اليوم الثاني والعشرين من صفر عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، عن اذن السلطان بعد أن اقترح ذلك وساله المرابط الخير السيد الحنفي بن محمد بن أبي بكر الناصري لانها زاويتهم، ومسجد الديوان، ومسجد المنية، ومسجد قصبة النوار، ومسجد أبي الجلود، ومسجد مولاي عبد الله، والجامع الحمراء، والجامع الكبير بفاس الجديد.

ومن أشهر أبواب فاس باب الفتوح، وباب الجيسة، وباب المحروق، ثم باب الحديد، وباب الجديد، وباب سيدي *بوجيدة، وباب سيدي بو نافع، [169] وباب الساكمة، وباب مشور باب البوجات، ولنمسك العنان عن أخبار فاس العاطرة الأنفاس، ملتمسا العذر ممن يقف عليها، فإن المؤمن يلتمس الأعذار، بنص من النبي الذي بشفاعته تحط الأوزار، وتنال رحمة العزيز الغفار.

ولنتكلم — باختصار — على مدينة مراكش لأنها بلدي، وبها أهلي وولدي، إعلم أنه لا خلاف في كون مراكش مدينة كثر خيرها، وانتفى ضيرها، وانبسطت أرضها، وتفسحت أرجاؤها وطولها وعرضها، وفيها من البهجة والاشراق والانشراح العام في أنحائها والآفاق، ما لا نزاع فيه بين الناس، ولا يتطرق إليه احتمال ولا التباس، وفيها من رخص الأسعار، وكثرة الخيرات والثمار، والأشجار المنوعة الأزهار، والنخيل الكثير الزخار، مالا يختلف فيه اثنان، ولا ينكره إنسان، وأنها كثيرة المرافق، بعيدة عن العوائق والبوائق، وهي بلدة تقبل من جاءها، وتونس الغريب إذا أتاها وقصد أرجاءها، واستمطر سماءها، وتنسيه في ذويه وأهله، ولم تال جهدا في لم شعثه وجمع شمله، وكل الناس لهم حنين إليها واشتياق، لتيسر المعاش بها والأرزاق، وبها من الحدائق والجنات، والبساتين الموفرة الخيرات، والمتنزهات الفائقات، المتكفلة بالمسرات والمبرات، مالا يوجد* في غيرها من مدن المغرب على الاطلاق، والعموم [170] والاستغراق.

وأما ما هو بخارجها من ذلك فشيء يسبح المقال في بحره سبحا طويلا، ويرجع القلم عن بلوغ غايته كليلا، وحق لها أن تسمى شام المغرب، وتلقب بالأنيس المطرب، لكثرة ما بها وبقبائلها من أنواع الغرس وضروبه، والحراثة التي عمت قطرها ما بين شروقه وغروبه، فهي توسع البلاد مرافق وخيرات، وتمدها

بالمواهب الغير المتناهيات من سائر الجهات، فخيرها كثير، ورزقها يسير غير عسير، فمن وصلها لا تسمح نفسه بعد بفراقها، ولا تطاوعه في الانفصال عنها وطلاقها، فهي تألف كالمؤمن وتولف، وترأف وتشفق وتتعطف، فالقلوب بها مستريحة، واعتقادات أهلها في جانب الله تعالى صحيحة، يقنعون بالقليل، ويعاملون بالجميل، ويتوكلون على الله الغني الجليل، وتلك الطباع فيهم مغروزة، وراياتها المرفرفة في ساحاتهم مركوزة، ولذلك ينسبون لكثرة الصلاح، ويرجى لهم النجاح والفلاح، وتلك السجايا سارية أيضا في قبائل أهل الحوز برمته، على اتساع قطره وكثرة أمته، وهم باقون على نهج العرب في رفع الهمم، [171] ورعي الذمم، بخلاف غيرهم ممن لهم اختلاط بالعجم، *وفطرتهم منطبعة على بعض التغفل في أمر دنياهم، لكثرة ما يشاهدون من كون المنع والعطا من مولاهم.

وكانوا في الزمن الأول يتورعون عن الخطط السلطانية، ويتهاجون بها في السر والعلانية، حتى حملهم عليها أمير المؤمنين مولانا الحسن قدسه الله، وجرهم إليها لمحبته لهم واعتقاده فيهم، لكونه عالما بشنشنتهم، وصيانة ديانتهم، لطول مكثه بمراكش أيام كونه خليفة عن أبيه بها، فاستخبر سرائرهم، وعرف ضمائرهم، ونشأ فيه حبهم، حيث ظهر له خيرهم، فأمر باستخدامهم فيما يليق بطباعهم وأفهامهم، فامتثلوا، ومنهم أناس كثيرون تنصلوا وتعللوا، فاحتمل — رضي الله عنه — لهم ذلك، وسلك مع كلا الصنفين أحسن المسالك.

ومما يذكر من الغرائب ويسطر، ويدرس في مجالس أهل الخير وينشر، أن رجلا من أهل مراكش يسمى الحاج عبد السلام العمري كان جعله مولانا الحسن رحمه الله أمينا على بعض البنيان بمرسى الجديدة، فذهب إليها وتنزه عن حيازة الأجرة على ذلك العمل، مدعيا أن الكفاية حاصلة له بمتاعه، فضاق بذلك ذرع من معه من العدول والعرفاء، لانحصارهم في الأجرة المعينة ووقوفهم [172] عندها، وذلك خلاف المتعارف في مثل تلك *الخطة، فطار على ذلك شررهم، ونسبوا له ما لا يليق بمقامه، فكثرت شكاويهم، وتواردت دعاويهم، وهو مكب على شغله بالصدق والأمانة، ومستنكف عن طريق الغدر والخيانة،

إلى أن أراحه السلطان ماجورا، وبرضى الله ورضى رسوله مغمورا مبرورا، وأحسن الله عاقبته، ومات شهيدا بداء البطن وهو بالمسجد، رحمه الله وغفر لنا وله، وأين هذا الحال من أحوال وقتنا، فلو رأى ما نحن فيه من تقدمنا من إخواننا وأهلنا لجاهدونا، وتبرأوا منا وقومونا، عاملنا الله بستره الخفي، ولطفه الوفي، آمين.

وعلى كل حال فالغالب على أهل مراكش هو ما قلناه، وبيناه وشرحناه، وإن كانت الأحوال اليوم قد تبدلت، والطباع من أهلها تغيرت وتحولت، والخوارق ظهرت واستعلنت، واتسع الخرق على الراقع، وامتلأت من الفتوق وتقلبات الأعيان والملاع والمسامع.

ومن طباع أهل مراكش الميل إلى الخمول، وقلة التظاهر بالثراء المؤثر في الجوارح والعقول، وكانوا في الزمن القديم كلما ازدادوا ثراء ازدادوا تسترا واختفاء، حتى كان من لا علم عنده يظن أكثرهم فقراء، وهم في المعنى أغنياء كبراء، ومن طبعهم الصبر على ظلم الحكام، وانتظار الفرج من الله [173] الملك *العلام، وكانت الاجابة تلبيهم سريعة، كأنها لهم مأمورة مطيعة، ولهم اعتقاد كبير في أولياء بلدتهم، وصلحاء جهتهم، ولو لم يكن لهم من السر الذي ظهر، وبان واشتهر، إلا قضيتهم مع عاملهم عام تسعة وثمانين ومائتين وألف لكفى، وذلك أن العامل كان يعاملهم على ما قالوا بالجور الصريح، والاعتساف الصحيح، مدة مديدة، وأعواما عديدة، إلى أن آل الحال إلى التجاوز إلى الحريم والأولاد، واستباحة الممنوع عند سائر العباد، والناس يتألمون لذلك ويتوجعون، ويتمزقون غيظا واسفا ويتقطعون، واشتهر ذلك اشتهار الشمس في الوجود، وتبين حاله عند كل كائن موجود، فعيل الصبر وانقضى، وفات إبان التحمل ومضى، فأقاموا حججا كثيرة بذلك لا يمكن إلغاؤها، ولا يصح بحسب دين الاسلام إبطالها وانتفاؤها، ثم بعثوها لحضرة السلطان مع من انتخبوه من المرابطين، وأهل الخير والأعيان، متطارحين في عزله عنهم بعد أن نصبوا من يحكم بينهم ويمهد، ويقارب ويسدد، فوجدوه بأرض تادلا محاصرا لبعض عصاتها، وقبائل عتاتها، ورجعوا بخفي حنين، وبالعويل والأنين، وكانت [174] عاقبة الأمر أن أقلع السلطان عن تادلا في *الحين، وجاء إلى مراكش لتدارك

الأمر قبل أن يفوت ويحين، ودخل للمدينة على غير الوجه المعروف، واسقط المظل في ذلك اليوم المعروف بالتجمل والشفوف، ثم رد العامل لمكانته، وكلأه بكلإته، رغما على أنف من أبى، وأعرض بجانبه ونئا، لأن المباشر بلغ له الخبر مقلوبا، وكان في ذلك الحين على أمره مغلوبا، وصار الناس في خوف عظيم، وهم عريض مليم، ووقعوا في حيرة أكبر من السماء، ورزية لا شيء فوقها من الدواهي والعناء، ووقع القبض على بعض الكبراء، ودخل الباقي لحرمات الأولياء، وضاقت عليهم الأرض، ما بين طولها والعرض، وبينما هم كذلك إذ مات العامل عن قريب، ووقع الفرج الغريب، ولم يمكث السلطان بعده إلا قليلا ومات في رجب عام تسعين ومائتين وألف، رحمه الله، وقد بلغنا أن السلطان وقف عليه في منامه القطب الرباني، والعارف الصمداني، مولانا عبد الله الغزواني، رضي الله عنه وأرضاه، ورأى أنه انتزع منه الطابع، وفي الصباح ذهب لزيارته، على خلاف المتعارف من عادته، فزاره بالخصوص ورجع، وتعجب الناس من هذا الشيء الذي صنع، ولم يلبث بعدها إلا قليلا، وكان أمر الله مقضيا مفعولا، وأخبر بعض الناس بأنهم علموا انقضاء مدته، وتمام أيام سلطنته، [175]*بإسقاطه المظل يوم دخوله للمدينة، لأن المظل من خواص السلطان، وبه أبهة الملك واشتهاره في تلكم الأوطان، وسقوطه في ذلك الوقت الذي هو من المواطن المشهودة دل على شيء يقع في المنصب، والسبب في إسقاطه المظل هو أنهم قالوا له إنهم مترصدون للسلطان، وعازمون على الايقاع به إذا ساعدهم الامكان، وينبغي له أن يسقط المظل لينبهم شخصه ويختفي عنهم عينه، فاتبع رأيهم ومشى على قولهم، ودخل للمدينة كذلك، وذلك الذي توهمه السلطان جريا على قولهم لم يكن منه شيء في نفس الأمر وإنما هو سفسطة وهذيان، وكذب وبهتان، وعند الله تجتمع الخصوم، والناس قاطبة يعلمون شدة الحرارة في أولياء مراكش وسرعة النهضة، وكم لهذه القضية من نظير.

ولنذكر بعضهم تبركا بذكرهم، وتقربا إليهم، نفعنا الله بهم، وجعلنا من المستظلين بظلهم، اللائذين بجانبهم، وإن كان الاتيان بأسمائهم خاليا في الغالب عن تواريخهم، والتعرض لأنسابهم، لأن ذلك لم يحضرني منه كتاب، ننقل منه كل ما يستطاب، وأولياء مراكش كثيرون جدا لا يمكن إحصاؤهم،

ولذلك شاع وذاع عند الناس أن مراكش فيها كل قدم بولي، كما أن فاسا ــ [176] صانها الله من كل بأس ــ *ينبع (4) العلم من صدور أهلها كما ينبع الماء من حيطانها، ولم نزل نسمع هذه الكلمة من الناس الاخيار من صغري إلى كبري، نفعنا الله بهم وبأمثالهم آمين ولنات ــ أولا ــ بالأولياء السبعة رجال المشهورين بهذا الاسم في تلك البلاد على حسب ترتيبهم في الزيارة، لأنهم قالوا: إن من زارهم على هذا الترتيب تقضى حاجته، وتتيسر رغبته، فأولهم سيدي يوسف بن علي رضي الله عنه، المدفون قبالة باب أغمات خارج المدينة بينه وبين الباب نحو الخمسين خطوة، وقد ذكره في «الاستقصا»، وبين تاريخ وفاته وهو سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة في شهر رجب منها، وله مناقب وكرامات، ومقامه حفيل عليه من الأنوار والبهاء ما دل على سعادة صاحبه وثبوت ولايته، وبه مقابر عديدة لبعض الأعيان، منهم الفقيه الوزير السيد محمد الصفار التطواني، والفقيه الشريف مولاي العباس بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن بن هشام، والفقيه الكاتب الحيي السيد محمد بن داني الكبير، والسيد البشير بن الوزير السيد موسى بن أحمد وغيرهم، رحم الله الجميع، ومما هو مكتوب على باب قبته

أنا القبة التي أنافت بحسنها　　والقت طراز الفخر زهوا على الغرب
وما تلكر القباب أبي بينها　　كبدر الدجى وهم حولي كالشهب

وبالقرب منه مقبرة باب أغمات المشتملة على ما لا يحصى من مقابر الأولياء، والعلماء والاتقياء، والصلحاء الأخيار، الأجلة الأبرار، وهي بقيع [177] مراكش، ولهم *اعتقاد كبير فيها، لما اشتملت عليه وضمته من أجساد الأولياء رضي الله عنهم قديما وحديثا، وما رأيت أكبر منها بالمغرب قاطبة، ولها فضل عظيم، ويمن جسيم، وهي مسورة من جميع جهاتها، ولها بابان واحد من جهة باب أغمات، والاخر من جهة باب أحمر، رحم الله من فيها، وغفر لنا ولهم.

ويليه في الزيارة الولي الصالح، القطب الواضح سيدي القاضي عياض، صاحب «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى»، دفين حومة باب

---

(4) نبع من بابي قعد وتفع. «مصباح»

ايلان داخل المدينة قريبا من الباب المذكور، ومقامه له مزيد احترام وتعظيم، والأنوار لائحة عليه، والقبول يرفرف بين يديه، والسمت الحسن ظاهر فيه، وللروح والجسم انتعاش وانشراح بالدخول إليه، ولازالت القبة المبنية على قبره المقدس على حالها الأول، لم يتغير منه شيء ولم يتحول، وهي صغيرة بالنسبة لقباب غيره من السبعة رجال، وبلصقها مسجد صغير بإمام راتب، رضي الله عنه ونفعنا به، وكانت وفاته يوم الجمعة سابع جمادى الأخيرة وقيل في شهر رمضان، سنة أربع وأربعين وخمسمائة في دولة عبد المومن بن علي.

ويليه في الزيارة قطب الرحى، وشمس الضحى، ومعدن الصلاح والفلاح والجود، والكرم والبذل الموفور المحمود، الرجل الصالح، والغوث *الواضح، [178] الصادق في محبة الله تعالى ومحبة الرسول، المنفق من بحر فضل الله على خلق الله فنال المنى دنيا وأخرى وغاية السول، صاحب السر الظاهر، والكنز الوافر الباهر، والكرامات العديدة، والمناقب الغزيرة الحديثة والجديدة، أبو المساكين والفقراء، والمحاويج والضعفاء، وأهل العاهات صغارا وكبراء، حبيب الناس، وضوء النبراس، الشيخ الواصل، العامل الكامل، سيدي أبو العباس، المعروف بالسبتي، نفعنا الله به فيما مضى وفيما يأتي، دفين الزاوية العباسية داخل المدينة قرب باب الخميس الذي هو أحد أبوابها، وله مقام حفيل، مكرم جليل، وفيه انوار تبهر العقول، وتعيي وصفها ونعتها الأقلام والنقول، وأحزاب قرآنية تقرأ في طرفي الليل والنهار، وأذكار مرصعة بجواهر المعاني والأسرار، ويواقيت الصلاة على النبي المختار، وآله البررة الكرام الأخيار، وفتوحات تأتي من كل فج عميق، من كل وجه ومن كل طريق، وزرابي مبثوثة، وشموع فوق أرائك منعوتة، ومصانع منحوتة، ومصابيح يلوح نورها من بعيد، كأنها نجوم وبدرها ضريحه المقدس السعيد، وذبائح كثيرة من جميع أنواع النعم، لا يمر وقت إلا بإراقة الدم في بابه السعيد المكرم، وحوله بيوت لسكنى الفقراء [179] *كثيرة، وانفساح كبير برحابه المنورة الشهيرة، وبحرمه الشريف مسجد جامع كبير، يفوح شذاه بالمسك العبير، وفيه رونق وبها، وأنوار تكامل الحسن فيها وانتهى، وفيه أشجار النارنج على نهج الأقدمين رحمهم الله، فزادته حسنا وجمالا لا حد له ولا تناه، وله صومعة وقفت على أساس التعظيم والتفخيم، والمنظر البهي الكريم، وفيها محل للميقاتي الذي يرصد الأوقات، لسائر

الصلوات، وبلصق قبته الشريفة التي ضمت جسده الكريم على يمين الداخل إليها من ناحية الغروب مقبرة عظيمة محترمة باحترامه، ومنورة بأنواره، ومتوجة بأسراره، ولها مدخل خاص خارج عن الحرم، وفي حائط القبة الموالي لها شرجب أي كوة عظيمة مطل عليها ترى المقبرة منه، وبجانبي القبر الكريم قبران يكتنفانه ومتصلان به، ولعل أحدهما قبر الامام القصار، كما كنت وقفت عليه في نشر المثاني، ومن المدفونين بصحن القبة المنورة الشريف الأصيل، الماجد الأثيل، المسن البركة، مولاي محمد — بفتح الميم الأولى — بن الحسين الصفريوي، المستوطن قصبة النحاس داخل القصبة المنشية بمراكش، وتاريخ وفاته لم يحضرني الآن، وهو عندي بمراكش، وعلى كل حال فقد مات في أيام [180] أمير المؤمنين مولانا الحسن رحمه الله، وأدى عنه الديون، ودفن هنالك* بأمره، وكان يقول إنه صاحب أبي العباس السبتي واشتهر ذلك عنه، ولذلك دفن هنالك، وهو شيخ أبيض اللحية والرأس، ربعة للقصر، متفاقم الأسنان، غليظ الأنف، واسع العينين، أشيب الحاجبين كثيفهما، ضليع الفم، يميل قليلا إلى السمرة، كبير الهامة، أصلع، سبط اللحية، وكان يكتحل بالاثمد كثيرا، يعرفني ونعرفه، وكان الناس يعتقدونه، رحمه الله ونفعنا بالجميع.

وللشيخ أبي العباس أحباس كثيرة تدخل منها أموال عريضة تفضل على اللوازم، وتشترى من تلك الفضلة الأصول والعقار، ولاسيما إن كانت بيد الثقة، ومدخول فتوحات الربيعة التي عند قبره كثير جدا، ويوجد فيها الذهب والفضة الكثيرة والفلوس التي لا نهاية لها، وكم من مرة تعمر وتفرغ في اليوم مرتين وثلاث، وهي كبيرة فلا يحملها إلا إثنان من الناس الصحاح، ما رأيت مثلها في الكبر فيما عاينته بأضرحة غيره من الأولياء، وما علمت مقاما كمقامه في كثرة المدخول، وفيه نفع كثير للمسلمين، رضي الله عنه وأرضاه، وجعلنا في حماه، آمين، وكانت وفاة الشيخ أبي العباس السبتي — رضي الله عنه — سنة احدى وستمائة، يوم الاثنين الثالث من جمادى الأخيرة، وكان [181] جميل الصورة أبيض اللون، حسن *الثياب، فصيح اللسان، قادرا على الكلام لا يناظره أحد إلا أفحمه، حليما صبورا عطوفا، برا باليتامى والمساكين رحيما بهم، ويحض على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار، فتنثال

عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف، إلى اخره، رضي الله عنه ونفعنا به.

ويليه في الزيارة شيخ الشيوخ الأكابر، الولي الصالح الشهيد الصابر، قطب الأقطاب، ومذهب الادران والأوصاب، صاحب دلائل الخيرات، ومعدن الصلاح والفلاح والبركات، الفجر الطالع، والنور الساطع، والفخر الجامع المانع، الغوث الكامل، والشيخ العالم العامل، ذو الضريحين، وذو المقامين، فريد الزمان،ووحيد الوقت والأوان، وينبوع الكرم والجود والعرفان، عين أعيان الأعيان، حبيب الله وحبيب المصطفى، الراقي في معارج الوفاء والمودة والصفا، مربي المزيدين، ومنيل رغبة القاصدين، من ظهرت كراماته، وطلعت كمطالع السعود علاماته، وكانت في الله حركاته وسكناته، ولهجت بذكره أهل المغرب وأهل المشرق، وتشبثوا بذيله المنير المشرق، والشريف الحسيب النسيب الأريب، الورع الناسك، الزاهد السالك، غرة الأولياء، ونخبة الاتقياء، [182] نادرة الزمان، الشيخ الكبير ★الشهير، سيدي محمد بن سليمان، المعروف بالجزولي، دفين رياض العروس بعد نقله من بلاد افرغال بقبيلة حاحا عن نحو ثمانين سنة من وفاته، رضي الله عنه، وقد كنت رأيت في شرح دلائل الخيرات لسيدي المهدي الفاسي رحمه الله، أن الشيخ الجزولي هذا لما مات دفنوه في بلاد افرغال من قبيلة حاحا، ثم نقله من هنالك بعض الملوك بعد وفاته بثمانين سنة وجاء به إلى مراكش ودفنه برياض العروس منها، قال ولما كشفوا عن وجهه الكريم الفوه صبيحا منعما مورد الخدين، فوضع بعضهم أصبعه على خده وانحصر الدم هكذا وهكذا، وحيث رفعه رجع الدم لمحله لم تعد عليه الأرض، ولم يتعير عن هيئته.

وقد ساق هذا الخبر في الاستقصا، وبين العلة في النقل، فلينظره من شاءه، ولا زال مقامه الأول الذي نقلوه مه معظما محترما مبنيا على هيئته أضرحة الأولياء، وبه مسجد، ولأهل ذلك المحل عناية به واعتناء، وكنت رأيته من بعيد لما وصلت إلى تلك البلاد عام تسعين ومائتين وألف، وشق علي الوصول إليه، لأن البلاد صعبة المراقي والسلوك لكثرة ما بها من الحبال والأحجار، والأشجار والأنهار، ولأن الوقت كان مخوفا، فزرته من بعيد، [183] ★وتمثلت بقول القائل السعيد

انــا اقمنــا على عذر وعــــن قدر ومن أقــام على عذر كمــن راحــا

وبين قبيلة حاحا ومراكش أربعة أيام متوسطة في ناحية الغروب، ومدينة الصويرة جاءت في حدود أرض حاحا، وحاحا قبيلة كبيرة وأرضها ذات خيرات، وزروع وضروع وأشجار وأنهار وبناءات فاخرات، ومياه متكاثرات، وغايته أنها من القبائل الكبار في الحوز، وفيهم دين متين، وشأنهم شأن عظيم.

ولنرجع إلى ما كنا فيه فنقول وللشيخ الجزولي بمراكش مقام جليل، رائق جميل، فيه من البهاء والنور، ما تتزين به الشموس والبدور، وتنشرح به القلوب والصدور، ويتجدد السرور والحبور، وتقضى الحوائج وتتيسر الأمور، وبه مسجد جامع بهيج، مبارك عظيم أريج، وفيه أنوار تغدو وتروح، وبهجة حسنها دائما يلوح، لا تفي به الأقوال والشروح، وبصحنه أشجار النارنج الظريفة، فزادته محاسن ومشاهد لطيفة، وظلالا رخيمة وريفة، تصلى فيه الجمعة وسائر الصلوات، وينشر العلم الشريف فيه في كل الأوقات، وقبته على أحسن ما يكون لأن الملوك اعتنوا بها وجددوها، وزوقوها ونمقوها، وصار فيها [184] ★من الحسن والرونق والسر ما لا يمكن وصفه إلا بالمشاهدة، وله احترام عظيم بمراكش، بل وفي غيرها من سائر الأقطار، وخصوصا أهل حومته فإنهم يعظمونه كثيرا، ويتدارسون مناقبه الكريمة وكراماته الفخيمة، ويلهجون بذكره، ويتمسكون بذيل ستره، وتلك الحومة كانت كلها حرما آمنا، فمن دخلها أو سكنها فإنه آمن في نفسه وما له وسربه، ومن تجرأ على من فيه بظلم فإنه لا محالة لا ينجو ولو بعد حين، كما ذلك مشاهد معلوم، وعلى كل حال فمقام الشيخ الجزولي كبير، وحرمه المبارك عظيم شهير، ومناقبه لا تحصى، وكراماته لا تستقصى، ومن أراد الاطلاع عليها فعليه بكتاب «ممتع الأسماع بمناقب الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع»، ولو حضرني لنقلت منه ما يناسب المقام، رضي الله عنه وأرضاه آمين، وكانت وفاته رحمه الله تعالى سنة سبعين وثمانمائة مسموما في صلاة الصبح، ودفن بتاصروت بعد نحو عشرين سنة من موته، وإنما كان في تابوت على وجه الأرض، ثم نقل بعد إلى مراكش ودفن برياض العروس منها حسبما تقدم.

[185] ومن المدفونين بحرمه الشريف الفقيه ★العالم العلامة الفصيح البليغ

الفهامة، نادرة الزمان، وفريد العصر والأوان، البارع الأريب الأمثل، الحيي المعظم المبجل، الأوحد، الأجل سيدي الحاج محمد ـــ بفتح الميم الأولى ـــ المعروف بأزنيط رحمه الله، وقابلنا وإياه بمحض فضله، وقد كانت له محبة تامة في الشيخ الجزولي، وكان يسكن بحرمه الشريف، وهو إمام الجمعة بمسجده المبارك وخطيبها، والمتولى لنشر العلم فيه ليلا ونهارا، وكان طيب الأخلاق، حلو المفاكهة، فصيح اللسان، سلس العبارة، ظريف المنزع، وكان عظيم الحثة بطينا ربعة للقصر، ضخم الكراديس، أبيض يميل قليلا إلى الصفرة، خفيف العارضين خالطه الشيب، براق الثنايا منور الوجه مليح الصورة، ولما مات رحمه الله تولى ولده الفقيه السيد عمر الامامة والخطبة بالمسجد المذكور في محل أبيه، وفق الله الجميع بما فيه رضاه آمين.

ويلي الشيخ الجزولي في الزيارة مريده الصادق، وتلميذه الجليل الفائق، والولي الصالح شيخ الشيوخ، ومعدن العرفان والرسوخ، ذو الكرامات الوافرة، والمناقب الكثيرة الفاخرة، الشيخ الكبير النفاع، سيدي عبد العزيز التباع، دفين الثلاثة فحول رضي الله عنه وأرضاه، ونفعنا به وبأمثاله، آمين، ومقامه* [186] مقام حفيل مكسو بالبهاء والنور، والسر الموفور المشهور، والرونق الذي لا يبلى قشبيه على مر الأيام والدهور، وقد اعتنى به أمير المؤمنين مولانا الحسن قدسه الله وبدل أسلوبه وزاد فيه ونقص، وصيره على هيئة أفضل وأحسن من الهيئة الأولى بكثير، ووسع نطاق حرمه الكريم العبيق أرجه بالمسك العبير، وحول الطريق التي كانت تمر بحرمه وصيرها لناحية أخرى، وطهره من ممر الكفار الأشرار، أجزل الله ثوابه وتقبل عمله وانزله منازل الأبرار، غير أن ذلك لم يكمل إلا في أيام ولده أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز، بواسطة الوزير الأجل الفقيه السيد أحمد بن موسى بن أحمد رحمه الله، فجاء على أحسن ما يكون بهجة ورونقا وإشراقا، وأوسع ساحة ونطاقا، وحق أن يتلى عليه المثل السائر كم ترك الأول للأخر، وبلصقه مسجده البهي، الحائز من الكمال السر الشهي، وفيه أشجار النارنج فزادته حسنا وابتهاجا، ورونقا ناصعا وهاجا، ولاولاده سر ظاهر في علاج المرضى، وحصول المعافات والشفاء ببركة أيديهم البيضاء، وذلك مشهور معلوم عند أهل مراكش، فما باشروا مريضا إلا وأتاه الفرج بالبرء عيانا، وذلك واضح لانحتاج فيه برهانا، ومناقبه أكثر من أن

[187] تحصى*، فقف عليها في «ممتع الأسماع، إن أردت أن تعرف قدر هذا الولي النفاع، رضي الله عنه وجعلنا في حماه، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة أربع عشر وتسع مائة، رحمه الله ونفعنا به آمين.

ومن المدفونين بمقامه المبارك الفقيه السيد محمد بن سليمان الفاسي أصلا ومنشئا، المراكشي دارا ووفاة، وقد سمعت من طرق عديدة أنه رأى في نومه كأن والده جاء به إلى قبة الشيخ التباع وعقله فيها، وضرب عليه كبلا وأبقاه بها، فعبرها هو لنفسه بكونه يموت ويقبر هنالك، فكان الأمر كذلك، بقدرة الله تعالى، وأخوه وزير البحر الفقيه السيد عبد الكريم بن سليمان هو الذي سعى في دفنه ثمة.

ومن المدفونين بالصحن الفقيه السيد محمد بن الفقيه الكاتب العلامة السيد عبد الرحمان بن محمد الشرفي الفاسي، رحم الله الجميع، آمين.

ويليه في الزيارة مريده الناصح، وتلميذه الولي الصالح، القطب الرباني، والغوث العارف الصمداني، سيدي عبد الله الغزواني، منحنا الله ببركته غاية الأماني، بجاه النبي العدناني، دفين حومة القصور، وله مقام جليل، يبرد [188] الغليل، ويشفي العليل، وفيه بهاء وأنوار، ومعاني وأسرار، *تدركها أولوا البصائر والأبصار، وحرمه الشريف عظيم، وشأنه المكرم فخيم، وهو مشهور بسرعة الاجابة، وسماع دعاء الانابة، فصار لأجل ذلك مقصودا عند الناس، في حالتي السراء والباس، وله هيبة في القلوب، وتأثير يرتعش من جلالته الطالب والمطلوب، وبجواره مسجدان من حساب حرمه، وتحت ظل رأيته وعلمه، وغايته فكرامات الشيخ الغزواني كثيرة، ومناقبه جليلة شهيرة، وقد تكفل بها كتاب «ممتع الأسماع»، ويكفي منها أنه كان أول أمره بفاس، وله زاوية بها بناحية رأس قليعة، وكان له تلامذة وخدام، وجرى بينه وبين سلطان الوقت ما ألجأ الشيخ إلى الذهاب إلى مراكش، فتبعه تلامذته واستوطنها، فكانت دار قراره، وسماء نجومه وأقماره، ولما كان خارجا من فاس قال يا سلطنة اتبعيني إلى مراكش فكان كذلك، فإن السلطان المذكور وقتئذ كان من بني وطاس فرقة من بني مرين، وكان كرسي ملكهم ومحل استقرارهم بفاس، فثار عليه بعد تلك المقالة الشرفاء السعديون بنواحي مراكش، وفتحوا أكثر بلاد الحوز

وحاصروا مدينة مراكش وأخذوها، فتوجه لهم السلطان الوطاسي من فاس [189] بجيوش كثيرة وأنشأ الحرب معهم، وخرج الناس من *المدينة للتفرج على القتال وخرج في زمرتهم الشيخ الغزواني من باب الخميس، وبينما هم كذلك إذ جاءت رصاصة من مدفع وضربت في صدر الشيخ، فخرقت ثيابه وحيث وصلت لحمه تقرصت كأنها ضربت في صخرة صماء ولم تعد عليه بشيء، فأمسكها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ثم رجع، وفي تلك الليلة ورد الخبر على الوطاسي بأن بعض أقاربه قام عليه بفاس طالبا للملك، فانثنى من الغد راجعا إلى فاس، ولم يعد بعد إلى مراكش، وآل الأمر إلى ثبوت السلطنة للسعديين وخروجها عن الوطاسيين كما قال الشيخ رضي الله عنه، ومن كراماته ــ أيضا ــ أن مريده الشيخ الصالح سيدي عبد الله بن حسين دفين تمصلوحت قرية كبيرة قرب مراكش بنحو ساعتين من ناحية غروبها، كان قد استوطن تمصلوحت بأمر شيخه الشيخ الغزواني وكانت خربة وقتئذ، فسكنها ثقة بشيخه واعتمادا على قوله، وكانت له بقرة يتعيش بلبنها، فمر بعض العمال يوما بتمصلوحت وهو ذاهب إلى مراكش عند السلطان فعثر على البقرة وحدها في المرعى فأخذها، ولما تفقدها ربها ولم يجدها ذهب إلى مراكش لاستقراء خبرها، فذهب إلى بعض الناس وأخبره بالواقع، فقال له اذهب إلى شيخك [190] الذي أمرك بالسكنى بتلك القرية الخربة، فذهب *إلى قبره واشتكى عليه وبكى وتضرع بين يديه، ثم ولى راجعا لتمصلوحت، ولما وصل باب الرب أحد أبواب مراكش وكان خارجا منه وجد العامل واقفا بالباب والبقرة بيده ينتظره بها، فجعل يصوب بصره إلى البقرة ويصعده، فقال له العامل هل أنت عبد الله بن حسين صاحب هذه البقرة ؟ فقال نعم، فقال له خذ بقرتك في حفظ الله، فقال له ما السبب في اتيانك بها بعد أخذك إياها، فقال إني رأيت في المنام الشيخ الغزواني وبيده سيف وقال لي رد البقر إلى ربها عبد الله بن حسين وإلا قصمتك بهذا، ولعله قال رآه ثانيا كذلك وثالثا، قال فقلت له يا سيدي وأين عبد الله ابن حسين ؟ فقال لي انتظره في الباب فإنه سياتيك، فانتبهت مرعوبا وهاك بقرتك، فقال له الشيخ ابن حسين اصبر حتى ءاتيك، ورجع وأخبر الذي أمره بالشكاية على شيخه بأنه اشتكى عليه ووجد البقرة بالباب، فقال له يقدر ذلك العربي عليها، ثم حاز بقرته وذهب لمحله مجبور

الحال، منعم البال، رضي الله عن أوليائه الكرام، أئمة الهدى ومصابيح الظلام، انتهى بالمعنى حفظا من «الممتع»، فعليك به تقف على عجائب وغرائب من [191] أخبار هذا *الولي الجليل، جعلنا الله في حماه، وكانت وفاة الشيخ الغزواني رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين وتسعمائة، رحمه الله ونفعنا به، آمين.

ومن المدفونين بمقامه الشريف — عند عتبة قبته المنورة عن يمين الداخل إليها — والدنا رحمه الله، المتوفى عام ستة وثمانين ومائتين وألف، ونص ما هو مكتوب على قبره «الحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده، هذا قبر الفقيه العلامة، الدراكة الفهامة، الوزير الأعظم الصالح، الجاري في ميدان المنافع والمصالح، سيدي الطيب، ابن الفقيه الكاتب النزيه الخير سيدي اليماني الخزرجي المدعو بابن أبي العشرين، وقد استأثر به الله جلت قدرته، وعظمت سطوته، ووسعت رحمته، في الرابع عشر من شعبان الأبرك، عام ستة وثمانين ومائتين وألف، جعله الله في زمرة الصالحين، أهل الثبات واليقين، آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»، وكانت لوالدنا محبة عظيمة في جانب الشيخ الغزواني واشتياق كبير إليه، فجذبته المحبة إلى أن دفن بمقامه الشريف بينه وبين القبر الكريم نحو ثلاثة [192] اذرع، وبلصق قبر والدنا من ورائه قبر حظيته المرأة *الياقوت، والمتوفاة قبله بنحو عشرة أعوام، وهو الذي دفنها — باختياره — في ذلك المقام، لمحبته لها وشغفه بها، رحمهم الله أجمعين، ومن المدفونين بداخل قبته المبجلة على يسار الداخل إليها، الشريف الغطريف مولانا علي، نجل أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمان بن هشام، وبجانبه قبر والدته رحمهما الله تعالى.

ومولانا علي هذا كان ذا حظوة واعتبار عند أبيه وإخوته وبني عمه، وكان خليفة أي نائبا بمراكش نحو العامين عن أخيه أمير المؤمنين سيدي محمد أول سلطنته لمغيبه بفاس، فزادت بذلك نخوته، وعلت همته، ولما رجع أخوه لمراكش استبدله بولده مولانا الحسن قدسه الله، وأسكن أخاه مولاي عليا بالكتبيين قرب مسجدها الأعظم، فبقي هنالك مقتصرا على خويصة نفسه، وكان لايخلوا بحسب القرائن من ترقب وانتظار، واتيان وقت يتبين فيه الليل من النهار، وكان العلماء وأهل الحوائج والطماعون يقصدونه، ويبشرونه ويعدونه، وربما كان يصغى إليهم، ويميل إلى قولهم، ثقة بما لديهم، فكان ذلك من أسباب

[193] ما قاساه من الشدائد، ولم يصح ما بشر به، وكان من قبيل الخرافات، التي حفت بالعاهات والأفات، والعياذ *بالله تعالى، وقد قيل إنه مات مسموما والعلم لله تعالى، فمن جملة الموبقات الواقعة له قضية قيام أهل مراكش على عاملهم عام تسعة وثمانين ومائتين وألف وخروجهم عنه، فنسب الوشاة ذلك له قائلين إنه الذي أغراهم، ليجد السبيل لاعطائه البيعة وتصييره سلطانا، ولذلك لما ورد السلطان بإثر الوقعة إلى مراكش كان صدره ضيقا حرجا من جهتهم، ولم يسمع لهم كلاما، ولا رضي منهم سلاما، وذلك كذب وزور، وبهتان عظيم مهجور، إذ لو كان حقا لأبرزوه للوجود، لأنهم لما قاموا على العامل كان السلطان غائبا عن مراكش، وكان خليفته المعتبر بمراكش — وهو ولده مولاي الحسن — غائبا أيضا عنها، فكان المحل فارغا، وأي شيء صدهم عن المراد مع هذا، بعد كون السبب في خروجهم عن العامل هو الاغراء من المذكور، وإذ لم يفعلوا ذلك في أول الأمر فلماذا لم يفعلوه حين رجع وفدهم من عند السلطان خائبا، ولذيل المذلة والمهانة ساحبا، فكانت الفرصة ممكنة في ذلك الوقت لو كانت هي منيتهم وبغيتهم، وما ذاك إلا محض سفسطة وقلب الحقيقة للسلطان، فمن بلغ إليه خبر الوقعة غيرة على العامل حيث إنه [194] الذي أشار به ونصبه، وقد تقدم ما فيه *الكفاية في القضية.

ومن جملة موبقاته قضية الرجل المعتوه الذي دعا له بالنصر ثلاث مرات بأعلا صوته عند صلاة الجمعة بالمسجد الأعظم بالكتبيين، والسلطان حاضر به وسمع ذلك بإذنه، وسمعه كل من في المسجد، وذلك أن مولانا الحسن أمير المؤمنين كان له ولوع أول سلطنته بصلاة الجمعة في جامع الكتبيين، وكان يخرج له من باب بريمة على حال لا شيء فوقه من ضخامة الملك وأبهة السلطنة، واستمر على ذلك مدة إلى أن قام ذلك المعتوه يوما، ودعا بالنصر لمولانا علي جهارا على رؤوس الناس في داخل المسجد بعد الخطبة وقبل الاحرام بالصلاة، فوقع القبض عليه في الحين، لان الدعاء بالنصر في عرف أهل المغرب خاص بالسلطان، ولما تمت الصلاة وخرج السلطان من المسجد ألفاهم واقفين به عند الباب، فأمرهم بالمشي به إلى دار المخزن، وفي تلك الساعة وجه على العلماء واستفتاهم فيه، فحكموا بتأديبه دون القتل، والقتل كان مراد السلطان على ما قالوا، فسجن وعذب عذابا أليما، وقرر عمن أمره

بذلك وما أقر بأحد، ثم مات عن نحو ثلاثة أيام، وقد قيل إنه معتوه مختلط المزاج، ومن ثم لم يعد السلطان للصلاة في ذلك المسجد إلى أن لقي الله تعالى، [195] ★وأما ما كان من أمر مولاي علي فإن السلطان وجه عليه لدار المخزن في الحين، ووبخ وعوقب وعددت عليه المثالب المسموعة عنه، فتبرأ من ذلك وتنصل، وحضر المصحف الكريم وحلف فيه يمينا مغلظة على براءة ساحته مما رمي به، وعلى أن ذلك إنما هو عمل باليد، وما تفلت من تلك الشدة إلا بعد أن اعتقد أنها آخر العهد به، وما رجع لداره إلا قرب نصف الليل كأنه بعث بعد الموت، وأيس منه أولاده وأهله، وأنبهم عليه لشدة ما اعتراه من الخجل والفضيحة فرضه ونفله، ووقع له غير ذلك مما يطول تتبعه، والله تعالى أعلم، رحم الله الجميع، وتجاوز عنا وعنهم بجاه النبي الشفيع، آمين.

ويلي الشيخ الغزواني في الزيارة الولي الصالح، العالم العلامة، القدوة الفهامة، الشيخ الامام، العارف الهمام، أبو القاسم وأبو زيد سيدي عبد الرحمان السهيلي الخثعمي، دفين باب الرب خارج المدينة بلصق سورها عن يمين الخارج من الباب، وله قدر كبير، وجاه عريض شهير عند أهل مراكش، وهو مجاب الدعوة، وله هذه الأبيات، ويقال ما سأل الله بها سائل إلا أعطاه كما في إبن خلكان والاستقصا وغيرهما، وهي

يا من يرى ما في الضمير ويسمـــــع	أنت المعـــــد لكـــــل ما يتوقــــع
[196] ★يـــا من يرجـــى للشدائـــد كلهـــا	يا من إليـــه المشتكـــى والمفـــزع
يا من خزائـــن رزقـــه في قول كن	أمنـــن فإن الخير عنـــــدك أجمع
ما لي سوى فقـــري إلـــيك وسيلـــة	فبالافتقـــار إلـــيك فقـــري أدفــــع
ما لي سوى قرع لبـــابك حيلـــة	فلئـــن رددت فأي باب أقـــرع
ومـن الـــذي أدعـــو وأهتـــف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يمنـــع
حاشا لجدك أن تقنـــط عاصيـــا	الـــفضل أجـــزل والمواهب أوسع

انتهى.

وعلى مقامه طلاوة، وله في القلوب والعيون بهاء وحلاوة، وقد اعتنى بمقامه أمير المؤمنين سيدي محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن ابن هشام رحمهم الله، وبناه ونمقه ووسعه وصيره على أحسن ما يكون، وجعل له قبة كبيرة جيدة بهية فارهة عالية، بعد أن هدم القبة التي كانت عليه لصغرها

وتلاشيها، وكونها لانضارة فيها، جزاه الله خيرا وتقبل عمله، وذلك على يد القائد ابراهيم الاجراوي باشا القصبة المنشية رحمه الله، وبوسط صحنه الفسيح شجرة واحدة من شجر النارنج، غرسها بيده صاحبنا الشريف مولاي أحمد بن العربي الدمناتي مؤدب أولادنا ومقرئهم رحمه الله تعالى، فزادت لذلك الحرم بهاء وحسنا، ورونقا رقيق المعاني والمبنى، وحوله مقبرة كبيرة جدا ما علمت أكبر منها بعد مقبرة باب أغمات، ومن *المدفونين بها الفقيه العلامة [197] الكنسوسي، صاحب «الجيش العرمرم الخماسي، في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي»، وولده الأديب الشاعر الناثر حريري وقته السيد عبد الله الكنسوسي، والفقيه الشاعر ابن الطاهر عامل مراكش بعد عزل القائد الأجل الخير السيد أحمد بوستة عنها، ومؤدبنا الفقيه البركة الصالح الخاشع الحيي السيد علي رزگو رحمه الله، وكان يحبني كثيرا ويقدمني، والشريفة السباعية والدة كبار أولادنا بوصية منها، المتوفاة بداء الطاعون في أواخر ذي الحجة الحرام ختام عام خمسة وتسعين ومائتين وألف، رحمها الله وغفر لنا ولها، آمين، وقد كانت من العابدات، القانتات الصالحات، وكانت تحفظ ما تيسر من القرآن العظيم والد عوات الرائقات، وتقرأ المكتوب، وتخشى من علام الغيوب، ولم تزل في زيادة من دينها إلى أن استأثر الله بها في التاريخ المذكور، أثابها الله الجنة بغير حساب، ولا مناقشة ولا عتاب، ومن المدفونين بداخل قبته المعظمة الشريف الحسيب، مولاي موسى بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن بن هشام رحمه الله، ومن المدفونين بصحنه المنور الباشا القائد ابراهيم الجراوي، وصاحبنا الشريف العفيف الحسيب، النسيب الأريب، العدل الحيي سيدي محمد بن هاشم العلوي مستوطن *القصبة المنشية، رحم الله الجميع، وجعلنا وإياهم في [198] حماية النبي الشفيع، والامام السهيلي به تختم زيارة السبعة رجال، أولهم سيدي يوسف بن علي، ثم القاضي عياض، ثم الشيخ أبو العباس السبتي، ثم الشيخ الجزولي، ثم الشيخ التباع، ثم الشيخ الغزواني، ثم الامام السهيلي وهو الختام، لاولئك الأجلة الكرام، ويقال إن من زارهم على هذا الترتيب قضيت حاجته، وتيسرت رغبته، وقد كنت رأيت أبياتا في مناقبهم، والحض على زيارتهم، بحسب هذا الترتيب الذي هو السر المكنون، والكنز المدفون، لم يبق على بالي منها إلا بيت واحد وهو

فزرهم على الترتيب في كل حاجة يسهلها المولى وعنك يدافع

رضي الله عنهم ونفعنا ببركتهم، وجعلنا في حماهم وتحت حياطتهم، وظل رايتهم، آمين، وكانت وفاة الامام السهيلي ــ رحمه الله ــ سنة احدى وثمانين وخمسمائة.

وأول السبعة رجال موتا القاضي عياض، ثم الامام السهيلي، ثم سيدي يوسف بن علي، ثم الشيخ أبو العباس السبتي، ثم الشيخ الجزولي، ثم الشيخ التباع، ثم الشيخ الغزواني، رضي الله عنهم ونفعنا بهم، آمين، وترتيبي لهم الآن في الذكر أنما هو على حسب الترتيب في زيارتهم، لا على حسب وفياتهم.

وبمراكش أولياء كثيرون لا حصر لهم، ولنذكر بعضهم تبركا بهم ومحبة فيهم، ولو كان ذلك خاليا عن كراماتهم، ومناقبهم ووفياتهم، لأن ذلك قد تكلفت به الكتب الموضوعة في هذا الشأن، وليس عندي الان شيء منها لغربتي، وانتقالي عن أهلي وبلدتي، وأرجو ببركتهم تيسير أوبتي، ونجاح رغبتي و*إجابة دعوتي، عن قرب قريب، وفضل كبير عجيب، إن ربي لسميع الدعاء، والمكمل لمن ارتجاه الرجاء. [199]

فمنهم الشيخ أبو عمرو القسطلي دفين رياض العروس، رضي الله عنه، وله مقام حفيل، ومسجد بهي جميل.

ومنهم سيدي أحمد السوسي رضي الله عنه، وهو قريب من رياض العروس.

ومنهم الشيخ أبو العباس ابن العريف دفين سوق العطارين رضي الله عنه. ومقامه كبير، وشأنه عظيم شهير، وكانت وفاته بمراكش ليلة الجمعة أول الليل، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر، سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وقد كان سعى به إلى أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين فاحضره إليها، فمات واحتفل الناس بجنازته، وظهرت له كرامات فندم على استدعائه، ومن شعره رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به

شدوا المطايا وقد نالوا المنى بمنى وكلهم بأليم الشوق قد باحا
سارت ركائبهم تندي روائحها طيبا بما طاب ذاك الوفد أشباحا

نسيم قبر المصطفى لهم روح إذا شربوا من ذكره راحا
يا واصلين إلى المختار من مضر زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راحا

من بعض تقاييدي ولم ادر من أين نقلته، ولعله من ابن خلكان.

ومنهم الشيخ ابن صالح دفين الموقف، وله مقام كريم، ومسجد جامع، ومدرسة، ومنار ماثل قديم مكتوب على بابة تاريخ بنائه والملك الذي بناه حسبما كنت رأيت ذلك. قلت لما قدمت إلى مراكش وقفت على التاريخ المذكور، فالفيت مكتوبا فيه ما نصه «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، ابتدىء بناء هذه الصومعة المباركة في غرة شهر رجب الفرد المبارك من عام احد وعشرين وسبعمائة»، هـ قلت ولعلها بنيت بأمر سلطان الوقت وهو أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، المولى سنة عشر وسبعمائة، المتوفى سنة احدى وثلاثين وسبعمائة، والله اعلم.

[200] ومنهم★سيدي غانم دفين الزاوية العباسية، ومقامه عظيم، وبه مسجد جامع فخيم.

ومنهم الشيخ سيدي عبد الكريم الفلاح ضجيع القاضي عياض وجاره، وكنت وقفت على ذلك في الممتع أو في نشر المثاني والله اعلم، رضي الله عنه.

ومنهم أبو العباس الجباب دفين باب تاغزوت مجاورا للزاوية العباسية: رضي الله عنه.

ومنهم مولانا علي الشريف دفين باب ايلان مجاورا لحرم القاضي عياض، وهو جد هذه الدولة الشريفة العلوية، وله مقام حفيل، وموضع حسن جميل، وأبهة ملوكية، وبهجة هاشمية علوية، وقبو الشريف هو الذي في مواجهة الداخل للقبة، وهو أول ما يليه من تلك القبور الكريمة، ومن ورائه لصقا قبر أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام، المتوفى عام تسعين ومائتين وألف رحمه الله، وهنالك قبر أمير المؤمنين مولانا سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف، وقبر مولانا عثمان بن أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام، المتوفى عام ستة عشر وثلاثمائة وألف، أو عام

سبعة عشر بعده، وهو الذي كان ينوب بمراكش عن أخيه أمير المؤمنين مولانا الحسن، وله كان وزيرا الفقيه العلامة السيد عبد الرحمن الشرفي، [201] ★ومن نظم الفقيه الشرفي يمدح والدنا ويذكر نزهة جعلها بظاهر مكناسة الزيتون، حضرها جميع كتاب السلطان عام واحدو ثمانين ومائتين وألف، ونصه

جمع الأفـــاضل بالسرور كفيـــل	**وبكـل ما تهوى النفـوس حفيـــل**
لا سيمــا بخميلـــة قد نمقت	**أزهارهـــا حيث الــنسيم عليـــل**
فاضت هنـــاك مواهب من سيـــد	**فيـــه المديح وأن أطيـــل قليـــل**
فخـــرا بنـــي العشريـــن سدتم إنما	**أنتم جليـــل يقتفيـــه جليـــل**
هذا الوزيـــر الطـــيب الأفعـــال من	**عليـــاؤه للمكرمـــات مقيـــل**
أمسى بأوج السعـــد بدرا طالعـــا	**لا يعتـــري ذاك الجلال أفـــول**
ابقـــــاه ربي في مدارج عزه	**يرق ويجزل بره وينيـــــــل**

انتهى، رحم الله الجميع، وبالقبة المذكورة أيضا قبر الفقيه الوزير أبي عمران السيد موسى بن أحمد، وقبر ولده الوزير الفقيه السيد أحمد بن موسى، رحمهما الله، وهنالك مقبرة عظيمة خارجة عن الصحن والقبة، فيها كثير من مقابر الشرفاء، ومن المدفونين بها السيد ادريس وأخوه السيد سعيد ولدا الفقيه الوزير أبي عمران السيد موسى بن أحمد.

ومن أولياء مراكش الشيخ سيدي أبي اسحاق البلفيقي دفين سوق الدقيق، رضي الله عنه، وله تعظيم كبير، وشأن شهير.

وسيدي أبو الأوقات دفين رياض الزيتون القديم.

[202] ومن ★المدفونين به ولدا شيخنا الكبير سيدي ماء العينين رضي الله عنه، وهما سدي عثمان وسيدي محمد تقى الله وبعض من تلامذته، رحم الله الجميع.

ومنهم سيدي أبو الرجال، ومنهم من يقول (أبو الرجاء)، ومنهم من يقول (بورجان)، ولعل هذا هو الاسم الصحيح، دفين الرحبة، وله كرامات ومناقب كما في الاستقصا.

ومنهم سيدي أبو الفضائل دفين حومة القنارية.

وسيدي أبو العبادة دفين درب ضبشي، وبمقامه ثلاث نخلات نابتات.

ومنهم الشيخ سيدي مسعود بالموقف.

ومنهم سيدي أيوب وحومته تسمى بحومة سيدي أيوب في مجاورة الشيخ ابن صالح.

ومنهم سيدي حمزة بجوار الشيخ التباع قرب الثلاثة فحول.

وسيدي أحمد الكامل المدفون قبالة باب بريمة.

ومنهم سيدي الظاهر دفين حومة امصفح.

ومنهم سيدي جابر دفين سوق الخميس الداخلي، ومقامه عظيم، والناس يقصدونه لأجل الفهم والتعليم.

ومنهم سيدي أبو القاسم دفين السجينة قرب جامع الكتبيين.

ومنهم سيدي السمرقندي قرب مقام الشيخ التباع.

ومنهم سيدي ميمون، وحومته تسمى بحومة سيدي ميمون، وهي قريبة من باب الرب أحد أبواب المدينة.

ومنهم سيدي منصور دفين القصبة المنشية.

[203] ومنهم سيدي اليماني دفين حومة المواسين من ناحية *الكتبيين.

ومنهم سيدي الداودي دفين حومة جنان ابن شكرا.

ومنهم المرأة الصالحة السيدة شاشا بحومة دوار اكراوا.

ومنهم سيدي أبو النور خارج باب دكالة بنحو عشرين خطوة.

ومنهم سيدي البربوشي خارج باب الخميس بنحو خمس خطوات.

وسيدي علي بن ناصر خارج باب الدباغ قريبا من الباب.

ومنهم سيدي أحمد الزاوية خارج باب الخميس بنحو شوط.

وسيدي عمارة خارج باب يغلي قرب الباب بنحو عشر خطوات.

وسيدي عبد الله غياث خارج المدينة في قبلتها، بينه وبينها ساعتان، وهو مقصود للتداوي، وله سر ظاهر.

وسيدي عبد الله بن حسين الأمغاري دفين تمصلوحت بينهما وبين المدينة نحو ساعتين، وهو مقصود أيضا من كل النواحي، وعلى مقامه ازدحام وانكباب، وكنت زرته يوما ونقلت من الرخامة المكتوبة عند قبو الشريف ما نصه «كانت وفاة الولي الصالح، والقطب الواضح، الشيخ الواصل، البالغ الفاضل الكامل، فريد عصره، ووحيد دهره، سيدي عبد الله بن حسين الشريف الحسني، يوم الاثنين عند الزوال الحادي والعشرين من ربيع النبوي، عام تسعة وسبعين وتسعمائة، ودفن بعد صلاة العصر من اليوم المذكور، [204] وشيخه الذي وصل به أعلا المقامات *شيخ المشائخ، قطب الأقطاب، سيدي عبد الله الغزواني، درك الله الجميع بفضائله، ونفعنا ببركاته، آمين»، انتهى من تاريخ له رضي الله عنه بمحل دفنه بتمصلوحت مختصرا، وكان تقييدي له أول ضحوة يوم الخميس سابع عشر رمضان المعظم، عام تسعة وتسعين ومائتين وألف، انتهى من بعض تقاييدي، ومن مناقبه رضي الله عنه كما في «الممتع» أنه رحل يوما عن تمصلوحت لأمر أوجب ذلك، فرحل معه جميع ما فيها من الحمام، ولما رأى أهل تمصلوحت ذلك ذهبوا إليه وتطارحوا عليه في الرجوع، وتملقوا بين يديه واستعطفوه فرجع ورجع الحمام معه، نفعنا الله به آمين.

ومن صلحاء نواحي مراكش الولي الصالح، الراجح الرابح، أبو سالم مولاي ابراهيم دفين جبل غيغاية، وبينه وبين المدينة نحو ست ساعات، وله كرامات متعددات، ومناقب جليلة مشتهرات، ولأهل مراكش ولوع بزيارته ملتمسين بها الثروة والغنى، ومنهم من جرب ذلك وصح عنده.

ومنهم الشيخ سيدي عبد الله بن ساسي خارج المدينة بينه وبينها نحو ساعتين، وله حرمة وتعظيم.

ولنقتصر على هؤلاء الصلحاء ففيهم ـــ إن شاء الله ـــ كفاية، إذ [205] تتبعهم غير ممكن، رضي الله عنهم و*نفعنا بجميعهم، آمين.

وأما مساجد الجمعة بمراكش فنحو العشرين، وهي مسجد الشيخ أبي العباس السبتي، ومسجد سيدي غانم، ومسجد الشيخ الجزولي، وتتأخر فيه صلاة الجمعة إلى قرب العصر، ومسجد الشيخ سيدي أبي عمرو القسطلي،

ومسجد الشيخ التباع، ومسجد المواسين، ومسجد رياض الزيتون القديم، ومسجد رياض الزيتون الجديد، ومسجد القنارية، ومسجد درب ضبشي، ومسجد سيدي أبي اسحاق، ومسجد ابن يوسف وهو المسجد الأعظم، وبه أهل التوقيت، وله منار جيد بهي على هيئة منار الرصيف بفاس، وبانيهما أمير المؤمنين مولانا سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل، كما بنى منارا ثالثا مثلهما بالصويرة، وقبالة مسجد ابن يوسف مدرسة عظيمة ما رأيت أكبر ولا أحسن ولا اتقن ولا أكثر مرافق منها، والكلام عليها وعلى المسجد المذكور، طويل لا يسعه هذا المسطور، ومسجد الشيخ ابن صالح، ومسجد باب الدباغ، ومسجد باب إيلان وبه شجر النارنج، ومسجد باب دكالة وبه شجر النارنج أيضا، ومسجد الكتبيين وهو أكبر مساجد مراكش، وأصغر قليلا من مسجد القرويين بفاس، وبه المنار الهائل الذي لا مثل له في مراكش بل في جميع المغرب، وهو من بنيان المنصور الموحدي، والمسجد من بنيان جده عبد المومن بن علي، وبني — أيضا — منارا مثل هذا المنار بمدينة اشبيلية بالاندلس كما في نفح الطيب، وبنى منارا مثلهما بالرباط يسمى حسان ولكنه لم يكمل، [206] ★وقد رأيته فالفيته كمنار الكتبيين، ومسجد المنصور بالقصبة المنشية، وهو من بنيان المنصور الموحدي أيضا، ومسجد بريمة وهو من بنيان أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل، ومسجد جنان ابن شكراء، ومسجد حارة الصورة، ومسجد الحارة خارج باب دكالة.

وأما أبواب المدينة والقصبة فهي باب الخميس، وباب دكالة، وباب الرب، وباب القصيبة، وباب يغلي، وباب أحمر، وباب أغمات، وباب أيلان، وباب الدباغ، ونحو الثلاثة أبواب بجنان اجدال، وباب المامونية قرب مقبرة الامام السهيلي، وإن كان بعض هذه الأبواب خاصا بالمخزن، كما أن بعض ما ذكرت من أبواب فاس خاص به أيضا، إذ المقصود هو ذكرها على العموم، حيث الجميع نافذ من المدينة إلى خارجها.

ومدينة مراكش أكبر من جميع ما بالمغرب الأقصا من المدن، وأبسط أرضا، وأوسع فجاجا، وأكثر اشراقا ونورانية وابتهاجا، ومدينة فاس انقى، وبنيانها الوثيق أبقى، وكلتاهما مرجو السعادة، ومقبول السيادة، جعلنا الله من صلحائهما، وخيار أهلهما، آمين.

ومن مدن المغرب المذكورة، ومواطنه المعمورة المشهورة، مدينة مكناسة الزيتون، التي كانت معمورة بالمحاسن والسر المكنون، والناس أهل العفاف [207] والكفاف والصون، والفهم الدقيق ★ النقاد، والذهن النير الوقاد، والحفظ المسلم، والخط الجليل المعظم، والنفس الأبية، والهمم العلية، والشهامة الحاضرة الجبلية، وفيهم تيقظ وانتباه، وشراسة عند موجب الاشتباه، ولهم ظنون كادت أن تكون كشفا صريحا، وتقع وقعا صحيحا، ولنسائهم وأولادهم من الطاعة والحياء من أوليائهم، ما به تضرب الأمثال، ولا يبقي ما يقال.

ومدينة مكناس هذه جاءت فوق مكان مكين، وربوة ذات قرار ومعين، يراها القصاد من بعيد، كأنها عروس تجلت في زينتها ونخوتها يوم عيد، وهي متأخمة في القبائل البربرية التي لا تنالها الهضمية والامتهان، ولا تقرب ساحتها ذلة ولا هوان، لما جبلت عليه من عزة النفوس وشدة الاباية، وقساوة الرؤوس من كثرة العناية، فشرقت المدينة بغصتها، وأذعنت لقهريتها وقوتها، وقعدت على طرف الاضمحلال محاسنها، إذ غير جوها الصقيل من أولئك الاقوام آسنها، وصارت اليوم على حال من الخضوع والخشوع، والافتقار المفضي إلى التقهقر والرجوع، والداء الكمين تحت الجوانح والضلوع، مالا يفي به شرح، ولا يتماسك لسماعه صرح، قد طويت أعلامها، وذهبت أيامها، ولا سيما حيث أعرض عنها الملوك في هذه الأزمنة وطلقوها، وغضوا الطرف عنها وأهملوها.

[208] ★بعد أن كانت دار قرار ملك السلطان الأصيل، الشريف الماجد الأثيل، أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، والملوك بنيه من بعده، وكانوا لا يبغون بها بدلا، ولا يولونها سئامة ولا مللا، فقد كان فيها من القصور المشيدة، والمتنزهات الفريدة العديدة، والأسوار الشاهقة التي أخذت في العلو والارتفاع أخذا كبيرا، وبلغت في الكثرة شيئا كثيرا، والقباب الفارهة، والديار الفسيحة البارعة، ما يعسر حصره، ولايعيي تتبعه ونشره، وقد ذكر صاحب «الجيش العرمرم الخماسي» بناءات هذا السلطان، ومآثره الجليلة الحسان، التي خلد في تلك الأوطان، فليطالعه من أراد الوقوف على ذلك، والاطلاع على ما هنالك، ليعلم ما كانت عليه مدينة مكناس، من البهجة والضخامة والعزة والإيناس،

جبر الله أحوالنا وأحوالها، ونفى عنا وعنها أهوالنا وأهوالها، ولبعضهم يمدحها ويسلي أهلها فيها

لا تنكـــرن الحسن من مكنـــاسة فالحسن لم يبرح بها معروفــــــــا
فلئـن محت أيـــدي الزمـــان رسومهـــا فلـــربما ابـــقت هنـــــاك حروفـــــا.

وبمكناس أولياء أخيار، وصلحاء أبرار، قد سار ذكرهم مسير الصبا، [209] وهبت نفحاتهم على الجبال والوهاد والربى، ★منهم الولي الصالح الكبير، والمسك الفائح العبير، الشيخ الكامل الامام، والقطب العامل الهمام، والغوث الواصل الضرغام، علم الأعلام، ومصباح الظلام، ذي القدم الراسخ، والمجد الشامخ، والقدر الباذخ، الذي لم يزل يرشد الانام ويهدي، سيدي محمد بن عيسى الفهدي، رضي الله عنه وأرضاه، وجعلنا في حماه، وهو من تلامذة الشيخ الجزولي مباشرة أو بواسطة الشيخ التباع، كما في «ممتع الاسماع»، ولأهل مكناس عناية كثيرة به واهتمام، واعتقاد لا يبلى قشيبه على مر الليالي والأيام، وجرت عادتهم بأن يجعلوا له موسما عظيما كل عام، يوم العيد النبوي، والمولد المصطفوي، يحضره الجم الغفير من سائر البلاد والأقطار، يأتون رجالا، خفافا وثقالا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق بالليل والنهار، والعشايا والأسحار، وأكثر من يحضره طوائف عيساوة الذين يزعمون أنهم متمسكون بعهد الشيخ متشبثون بأذياله، وتابعون لأفعاله، وأقواله، مع أنهم كاذبون، وليس هم من طريقة الشيخ في شيء، وحاشاه من ذلك، وستسمع من أحوالهم ما [210] تعلم به كذبهم في الانتساب إليه، بل لو عاش الشيخ ★رضي الله عنه ورأى ما هم عليه لتبرأ منهم، وتباعد عنهم، وفر إلى الله تعالى بدينه وعرضه، وأقبل بخاصة نفسه على نفله وفرضه، إلى أن يلقاه سالما من خلطة أولئك الأوباش الذين لا خلاق لهم.

وها أنا أقول لك عنهم ما علمته ورأيته عيانا، ورآه وعلمه جميع من في قطر المغرب ولا ينكره إلا من دينه تابع لهواه، والعاقل الورع المنصف الذي يراقب الله تعالى ويخافه، ويعلم يقينا أنه مسؤول عما يقول، يفرق بين الحق والباطل، ويحكم بعقله السليم بمقتضى ميزان الشريعة المحمدية التي هي أصل ديننا، وأساس إسلامنا وإيماننا، وهي حجتنا على من خالفنا، وسببنا الذي به تمسكنا، وبه نجاتنا وفوزنا وسلامتنا. فمن أمورهم الفظيعة، التي هي في قلب

أهل الايمان والاسلام وجيعة، أنهم كلما أرادوا الاجتماع لأجل الذكر في زعمهم والعبادة، لابد من حضور أهل الطبول معهم وأهل الغيطات أي الزمارات والبنادير والطعاريج، وغير ذلك من آلات اللهو المنهي عنها شرعا وطبعا، وتحضر النساء العيساويات على اختلاف أنواعهن في الكبر والصغر والقبح والحسن مكشوفات الشعور والوجوه، موردات الخدود، ومصبوغات الأيدي والأرجل بالحناء والطيب، *وغير ذلك من أمور الزينة والاحتفال، فتأتي المرأة إلى حلق [211] الرجال على هذه الحالة، وتأخذ في محاكاتهم في أقوالهم وأفعالهم، وصياحهم وقفزهم ووثوبهم واضطرابهم، وفراقهم الأرض بقدر ذراع أو ذراعين، وتمايلهم يمينا وشمالا، والحلقة ممتلئة من المتفرجين من كل فريق ومن كل جنس، ثم تنبطح بقوة في وسط أولئك الأقوام، مظهرة أنها غابت في حب الله تعالى، فيأتي العيساوي إليها ويحملها على عاتقه وهي أجنبية منه، ويمشي بها إلى محل منعزل عن الناس، ويأخذ في الترويح على وجهها بمروحة أو كتان، ثم يجسها بيده ويغمزها في كل ذاتها، ومنهم من يدخل يده معها وربما يمر بها على قبلها، ولم يزل ملازما لها ومباشرا لحالها إلى أن تفيق من غيبتها، وهكذا، وقد سمعنا سماعا قويا أنهم يباشرونهن في ذلك الحال إذا أمكنهم التستر عن الأعين، ولا تسئل عما يقع، ولما علم النساء منهم ذلك تساقطن على تلك الطائفة سقوط الذباب على العسل، ورغبن في الدخول في زمرة أهلها والتمسك بعروتها، فطائفة عيساوة أكثر الطوائف نساء وأطفالا وصعاليك وأراذل، وأهل الأدران والأوساخ والفسقة والرعاع، وتعرفهم بسيماهم بأنهم لا *مروءة لهم ولا دين، [212] وكثير منهم أو كلهم لا يصلون ولا يتوضأون، فتمر عليهم أوقات الصلوات وهم في حلق ذكرهم من الظهر إلى فوات وقت العشاء، وما فيهم من يتوضأ ويصلي، وتكرر ذلك منهم تكررا لم يبق معه احتمال، حتى صار ذلك معلوما منهم ومغروزا في طباعهم ولا يحتاج فيه إلى برهان، وليس الخبر كالعيان.

ومن أمورهم السخيفة، وترهاتهم المخيفة، أنهم يحاكون الوحوش فيجعل العيساوي نفسه ذئبا يعوي، ويجعل على ذاته لباسا يحاكي به حلية الذئب، ويكون له ذنب ملتوي، ثم يدور على الناس بتلك الحالة يطلب الفلوس، وهو مظهر أنه غائب في حب الله، ومنهم من يجعل نفسه جملا فيرغو كرغاء الجمال، ويجعل شيئا في فمه يلوكه وريقه يتساقط على الأرض وعلى صدره، ثم

يأخذ في طلب الفلوس من الناس والدوران عليهم، وغالب الناس يعتقدونهم ويعطونهم، وأكثر أهل الاعتقاد النساء والأغمار الذين لا يدرون الحي من اللّي، ولا النشر من الطي، ومنهم من يجعل نفسه سبعا عاديا، فتراه يأتي للناس جريا زاعما أنه يريد افتراسهم، وقد حضرت مدة في موسمهم بمكناس عام تسعة وثلاث مائة وألف، ورأيت بعضهم فعل ذلك وانفرج الناس له وهربوا، ثم أعادها مرارا، ثم جاء مرة إلى بعض أولاد قائد المشور القائد ادريس بن العلام [213] *فقام معه أصحابه وأمسكوه، وانخرطوا من عصي وزراويط كانت معهم وانقضوا عليه بالضرب بذلك انقضاضا من قلب مغيظ، والحال أنه عريان ليس عليه إلا السراويل، واشبعوا ظهره وضلوعه من الضرب المبرح وهو يستغيث ولا يغاث، وما اطلقوه إلا بعد أن عاين الموت الأحمر، ثم غاب ولم يظهر بعد.

ومن هؤلاء السباع من يجري ويختطف النساء اللواتي في حلقة الحضرة، ويمشي بمن أراد منهم إلى أن يغيب عن الأعين، ثم يسرحها ويمسك أخرى، ثم يأتي سبع آخر وينتزع منه المرأة إن كان أقوى منه ويعبث بهما، وهكذا وفي ذلك من المناكر العظيمة ما لا يوجد في ملة من الملل التي تعرف الله تعالى وتعرف الرسول وبما جاء به، وهذه الأمور شاهدتها بنفسي في الموسم، ولا ينكرها أحد إلا من باع آخرته بدنياه، وجحد وجود النهار وآثار الميل إلى هواه.

ومن مناكرهم العظيمة أنهم يأكلون الجيفة .وينهارشون عليها، وكذلك الدم المسفوح ويتلطخون به وبالنجاسة وهم حفاة الأرجل عراة الرؤوس، لأن من عادتهم أن يحضر لهم من أراد أن يتفرج عليهم شاة ـ ضأنا كانت أو معزا ـ وهم في حال جمعهم واشتغالهم بحضرتهم، فيتسابقون إليها ويبقرها لهم أحد [214] زعمائهم، مظهرا أنه فعل بها ذلك بأظافيره تشبها بالسبع، فينظر *ذلك من لا علم عنده ويظنه صحيحا، ويزيد غبطة فيهم ورغبة واعتقادا، وهو إنما تأتي له بقر الشاة بسكين صغير جدا يجعلها بين أصابعه بنوع من أنواع الحيل ويخفيها عن أعين الناس، حسبما بلغنا ذلك من طرق عديدة ولم يبق عندنا ريب فيه، ويمزقونها ويطير كل واحد بقطعة منها أو من جلدها بدمها وفرثها، وفي هذه الأزمنة القريبة صار الناس لا يرمون لهم الشاة إلا إذا ذبحوها فيتخطفونها

وأوداجها تشخب دما وتفور، ويمرغون وجوههم ولحاهم فيه، وكذلك حوائجهم وأيديهم وأرجلهم، فيصيرون على حالة لا شيء فوقها من الشقاوة والرذالة والمهانة والعياذ بالله، ويظهرون أنهم يأكلون اللحم النيء وهم كاذبون.

ومن كذباتهم ما يظهرونه من أنهم يأكلون الأفاعي والحيات، ويحكمون فيها ولا تلدغهم وإن لذغتهم فلا تضرهم، وذلك كذب محض، وقد حضرت يوما لواحد منهم ونحن بدكالة جاء إلى رفيق لي وفي يده حنش صغير جدا وطلب منا إعطاءه الفلوس، فقال له الرفيق لا، إلا إذا أكلت ذلك الحنش، فقد سمعنا أنكم تأكلون الأحناش والحيات بالحياة ولا تضركم، فقال نعم، ثم أخذ الحنش وقطع رأسه بأسنانه ورماه، بعد أن أمسك فم الحنش بأصبعيه ومنعه من فتحه، ثم *قطع قطعة منه بأسنانه أيضا وصار يلوكها ولم يبتلعها، [215] ثم تفلها، وتبين كذبه، ومن عيساوة من لذغه الحنش والأفعى ومات من حينه، ومنهم من لسعته العقرب وتألم منها إلى أن وصل إلى حد الموت.

حكاية مضحكة كنا سمعنا سماعا فاشيا من طرق عديدة، وكنت بدكالة وقتئذ عام أحد عشر وثلاثمائة وألف أن بعض عيساوة الذين يعانون الأحناش والأفاعي ويسترزقون بها جاءوا مرة إلى بعض العمال بدكالة، وسمى لي وعرفتهم ولم أصرح باسمه الآن لعدم تعلق العرض به، وراموا منه إعطاءهم شيئا من الدراهم لمعاشهم، فأمسكهم للمبيت عنده وذلك بعد مذاكرته معهم في شأن ذوات السموم وزعمهم بأنها لا تضرهم ولا تعدو عليهم، ولما جاء الليل أرسل أصحابه إليهم وأمرهم بأن يذهبوا إلى محل نزولهم ويوقدون به النار، لينظر ما يقع بهم مع الأفاعي إذا لذعتها النار، ويحصل اليقين فيما يزعمونه من كونها لا تضرهم، ففعلوا وأغلقوا عليهم البيت، ولما فتحوه عليهم في الصباح وجدوهم موتى إلا واحدا تعلق بدفة الباب، فانزلوه وذهبوا به إلى العامل فسأله عما جرى، فقال إن الأفاعي لما أضنكتها النار وألهبتها خرجت من مزاودها ولم تملك نفسها، وصارت *تنهش كلما وجدت وتضطرب في البيت وتجري في [216] أركانه، وكلما تحيزوا لجهة تأتيهم الأفاعي إليها، ولما لم يجدوا عنها محيصا لذغتهم وماتوا، قال إلا أنا فتلعقت بدفة البيت إلى الصباح، وحيث فتحوا علينا وجدوني كذلك وماتت الأفاعي أيضا، فضحك العامل منه وسرحه بعد أن رضخ له بشيء تافه، وذهب الأخرون لأمهم الهاوية، وذلك جزاء من يدعي بما

ليس فيه، ومن ادعى بما ليس فيه كذبته شواهد الامتحان، ولا زال هذا العامل في قيد الحياة الآن الذي هو أواخر جمادى الأولى عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، ولكنه معزول عن مكانته، وقاصر على خويصة نفسه.

وقد كانت جمعتني الأقدار بمكناس ـــ عام تسعة وثلاثمائة وألف ـــ مع بعض من يدعي أنه من أولاد الشيخ إبن عيسى نفعنا الله به، وتذاكرت معه في هذه الأمور، فأجابني بأنهم عالمون بأن عيساوة ليسوا على شيء، ولكن الأحوال لم تطاوع إلى غير ما ترى.

وسمعت أيضا وأنا بمكناس بعد أن وقعت المذاكرة في شأنهم، أن يهوديا من يهود مكناس صار عيساويا، ودخل إلى حلقتهم وشطح معهم وجاءهم بالفريسة ورماها لهم وافترسوها والتزمها لهم كل عام، وادعى محبتهم ومحبة الشيخ ابن عيسى، وحيث سألتهم هل أسلم أولا قالوا إنه باق على يهوديته ولم يسلم، ولكنه فعل ما سمعت وتحققت محبته لهم، فقلت لهم الاسلام [217]★أساس العمل، وإذا انعدم إنعدم ماسواه، وكأنهم كرهوا ذلك لشدة غبطتهم في عيساوة.

وكان عيساوة في القديم يمنعون الناس إذا كانوا في خمرتهم من لباس النعال ولباس الثوب الأسود، فيتحامون ذلك إذا رأوهم ويمشون حفاة حتى يبعدوا عنهم، وكان اليهود لا يظهرون لهم بوجه من الوجوه إذا كانوا في خمرتهم، ومهما رأوا يهوديا تسابقوا إليه وتخطفوه، وفعلوا به الفعل الذي يكون الموت أهون منه، وكانوا ينهبون ما يباع في السوق من الحلواء، قالوا لأنهم لا يملكون أنفسهم على العسل إذا رأوه وهم في الخمرة، وكان الناس يفرون بحلاويهم إلى حيث يأمنون عليها منهم بمجرد سماعهم ضوضاءهم (5) من بعيد.

وقد كنا سمعنا قديما أن بعض الناس بمراكش كان يبيع الحلواء بجامع الفناء هنالك، وكان بإزائه رجل يبيع الفلفلة الحمراء، وبينما هو كذلك إذ فاجأه مجيء عيساوة فلم يمكنه الهروب بحلوائه، ثم إنهم رأوا الحلواء من بعيد فجاءوا يتعادون إليها، فتنحى ربها عنها وتركهم وما يفعلون فلم يكن إلا كلمح

---

(5) الضوضاء أصوات الناس في الحرب، والضوضى مقصورة الجلبة واصوات الناس لغة في المهموزة، والضوة الجلبة، كالضوضاة... والجلبة اختلاط الصوت.

البصر أو أقرب حتى صارت خبرا بعد عين، وتقاسموا الاناء الذي كانت فيه، وصاحب الحلواء ينظر إليهم وقال في نفسه لا كلام لي معهم إذا اكلوا الفلفلة أيضا، وإلا فالحاكم بيني وبيهم، ثم إنهم مضوا لحالهم ولم يعرجوا على الفلفلة [218] أصلا، فتبعهم إلى محلهم *وتأنى إلى أن أصحوا من جنونهم، وصاح عليهم بأعلى صوته ورفعهم للحاكم فتبعه مقدمهم إليه، وحيث قرر ما وقع للحاكم ضحك وألزمهم الغرم، وكم من واحد مزقوا له ملبوسه الأسود أونعله وغرموه بحكم الحاكم، وانقطع ذلك منهم الآن وعاد الناس يلبسون النعال والملبوس الأسود بمحضرهم ولا يكلمهم أحد منهم، بل صار اليهود. بظهرون لهم ويمرون من بين أيديهم وهم في خمرتهم ولا يكلمونهم، لما يلحقهم من زجر الحكام وضغطهم لهم، وفي ذلك من بطلان دعواهم مالا يحتاج إلى دليل، والحاصل فإني لو تتبعت ما يتعلق بعيساوة من القبائح لما وسعها هذا المسطور، وهذه الأمور التي ذكرتها عنهم فهي وإن كان فيها طول كثير فإنما هي نقطة من يم، وقليل من جم، وما ذكرتها إلا ليتنبه العاقل ويعلم الحال الذي هم عليه، ولا يغتربهم وبكثرة ما يرى من اتباعهم، لأنهم كلهم أغمار وليسوا ممن يقتدى بهم، وعلى كل حال فإنما هم إخوان الشيطان، إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى الله الملك الديان.

وأمثالهم في ذلك طائفة الحمادشة، بل هؤلاء اسوأ حالا من أولئك، فلا نطيل بأخبارهم الشنيعة، ومذاهبهم المصادمة لمناهج الشريعة، وكم من طوائف على شاكلة هذين الطائفتين في الانحراف عن طريق السلامة، [219] والعكوف على ما يوجب السخط من الله *تعالى والملامة، فما أجدرهم بمن يتولى تقويمهم وتأديبهم من الحكام، الذين يؤثرون جانب الله تعالى وجانب الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا مصداق الحديث الشريف «افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين كلها في النار إلا واحدة، وهي ما أنا عليه وأصحابي»، وقال صلى الله عليه وسلم «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي وجبت له شفاعتي»، نسأل الله تعالى أن يسلمنا من مكائد الشيطان، الغرور اللعين الفتان.

وأسلم ما رأيت من الطوائف بالمغرب الأقصى طوائف درقاوة أينما كانوا، فإنهم فيما ظهر على النهج القويم، والصراط المستقيم، وفيهم العلماء

والأتقياء والزهاد وأهل الخير والورع، ولهم أشياخ أحياء، وعلى كل حال فلا بأس بهم، والطائفة التجانية كذلك، والطائفة الكنتية، وطائفة الشيخ ماء العينين رضي الله عنه.

والطائفة الكتانية التي ظهرت الآن إن سلم لهم الأشياخ التصلية التي وضعها لهم شيخهم الشريف الأجل الحافظ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني وجعلها أساس وردهم، وهي التي يقول فيها اللهم صل على سيدنا ومولانا أحمد، الذي جعلت اسمه متحدا باسمك ونعتك. ويقول في آخرها حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده، وهي طويلة [6] جدا، فقد [220] اعترضها *عليه العلماء، منهم الفقيه البوعزاوي ونسبه إلى الكفر وبين وجهه، وقد أجابه واضعها بجواب طويل، ورد كل ما قال وكفر القائل بكفره، وقد كنت وقفت على الأصل والجواب، ووقع شنئان بينهما كبير إلى أن وصل الخبر للسلطان وأحضر العلماء بفاس للنظر في كلام كل منهما، وانفصل الأمر بأمرهما بعدم التعرض لتمزيق أعراضهما بانكفافهما، وإن كان البوعزاوي لا يلحق شأو الكتاني في قلمه وحفظه وتوسعه في العلم ولو أعانه قوم آخرون، والحق أحق أن يقال، والشمس لا تستر بالغربال.

ومن جملة من اعترض عليه تلك التصلية وشرحها وبين العثرات التي فيها بالدليل والبرهان الفقيه العلامة السيد محمد بن إبراهيم السباعي المراكشي، ولما بلغ ذلك للكتاني تألم منه غاية وقلق وحصل له غيظ كبير وتشكى على جانب السلطان، فأمر بجمع العلماء الذين بفاس وألقى إليهم كلام السباعي فسلموه ولم يجدوا فيه مطعنا، وفيهم من مدحه وقرظه، ولم يكلم السباعي ببنت شفة على ذلك، وتحقيق الحال عند الله تعالى، وعلى كل حال فإن سلمت لهم تلك التصلية فإن طائفتهم لابأس بها، وشيخهم هذا له تآليف عديدة كثيرة، وهو حافظ منور مفتوح عليه بلا شك مع اقتبال سنه، [221] وفتوة عمره، نعرفه بالاسم والعين، وهو شريف *كتاني، ووالده سيدي عبد

(6) لا طول فيها، بل المذكور نصفها أو قريب منه، وإنما الطويلة صلوات أخر له ــ رضي الله عنه ــ من جملة أوراده الشريفة، نعم الصلاة المذكورة سلمها جمع من العلماء الأجلة، كشيخ المؤلف وقدوته ةعمدته الشيخ ماء العينين، وله عليها كتابة في الثناء عليها وعلى صاحبها، قد طبعت وسارت الركبان بها، والحمد لله على كل حال... انتهى من تعليق لأحد قراء الكتاب.

الكبير بن محمد لازال في قيد الحياة بفاس، وهو من الخيرة والتودد للناس بمكان، وعليه رونق وطلاوة، ولهم تلامذة كثيرون بفاس وغيرها، من جملتهم ولد أخينا السيد العربي بن العربي بن الطيب بن اليماني بوعشرين المكناسي ولادة ومنشأ ودارا وقرارا، الخزرجي الأنصاري أصلا ومحتدا، وله فيهم محبة أكيدة تامة قادته إلى أن تطوع لهم بمحل مجاور لداره بمكناس يجعلون فيه زاوية لهم، فقبلوه منه وقام ببنيانه تلامذتهم وأهل محبتهم، وجاء على ما ينبغي، وهو أول زاوية لهم بتلك البلاد، وبها اشتهروا هنالك وفاض مددهم وتأتي لهم الاجتماع في أوقات ذكرهم، ثم أعطاهم السلطان محلا ثمة أكبر من هذا باقتراحهم عليه ذلك وتعيينهم إياه، وجعلوه زاوية أخرى وانتقلت العمارة إليه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وولد أخي هذا هو أحسن وأفضل ممن رأيته من أقاربنا هناك دينا ومروءة ووجاهة، فهو سيدهم على الاطلاق، فتح الله علينا وعليه بما فتح به على أوليائه الكرام، وختم لنا وله بالسعادة المستمرة مدا الدوام. آمين.

وحاصله فغالب ما يسمع بالمغرب الأقصى من الطوائف التي تنتسب للأولياء على ضلال مبين، وغلط فاحش مستبين، واتباع طريق الشيطان اللعين، القائل لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لأتينهم من بين أيديهم [222]★ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين، نسأل الله السلامة من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، بمنه وكرمه آمين.

ثم اعلم أن الشيخ ابن عيسى رضي الله عنه لامرية في كونه من أكابر الأولياء، البررة الأتقياء، وأنه لا علقة ولا نسبة بينه وبين عيساوة الذين ينتسبون إليه إلا مجرد الادعاء، فإنهم في واد وهو في واد، هذا هو الحق الذي تعض عليه بالنواجد وتجمع يدك عليه، وكذلك كل طائفة لم تكن على منهاج السنة المحمدية التي هي الطريق الواضح الموصل إلى الله تعالى، ولا تلتفت لغير ذلك، ولما يحاجج به من لا علم عنده ولا ورع مما يذكرونه لهم من الكرامات فكل ذلك لا أصل له، وإنما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله اعلم بما يكتمون، وبما يسرون وما يعلنون، «قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون»، وللشيخ ابن عيسى مقام حفيل، منور جميل، وكان جدده واعتنى به أمير المؤمنين سيدي محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمان بن هشام رحمهم الله

أجمعين، وقد زرته مرارا والحمد لله، وبمقبرته الميمونة جدتنا والدة والدنا رحمهما الله، وقد زرتها وتيمنت بها ودعوت لها وللمسلمين بخير تقبل الله.

كما كنت زرت جدنا سيدي اليماني والد والدنا المدفون بمدينة سلا، [223] أمنها الله من كل مكروه ومن كل بلا، في المقبرة المطلة على البحر ★خارج المدينة عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف، بعد أن أرشدني إلى قبره باقتراحي واطراحي، وأعملت قدمي وارشت جناحي، واحد من أهل البلاد الذين يعرفونه، ووجدته مشهورا هنالك، وقرأت بإزائه ما تيسر من القرآن، وكلفت بعض الأحبة بجمع الطلبة وقراءة جميع القرآن عند ضريحه المقدس، حيث لم يسع الحال لمباشرة ذلك بنفسي، وكتب لي وأنا بفاس بأنه قد فعل، وبالغ المجهود وبذل، جزاهم الله خيرا أجمعين، وكثيرا ما كنت أطلب وأبحث عمن يعرفني بقبره كلما مررت بمدينة سلا ولم يتيسر إلا في هذه المرة، وحصل لي من الفرج والسرور بمعرفته والوقوف عليه ما الله أعلم به، ولم يلحقني ريب في كونه هو، لأني رأيته على الأوصاف والنعوت التي كنت سمعتها من أهلي وأقاربي، وقد وقفت على تاريخ وفاته في الكتاب المسمى «دوحة المجد والنسرين، في نسب أبناء أبي العشرين»، فقال إنه مات بمدينة سلا عام أربعة وأربعين ومائتين وألف، بعد وفاة أمير المؤمنين مولانا سليمان بن أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله، وأثنى خيرا على جدنا، ووصفه بالعلم وذكر أشياخه وما عنده من الاجازات، وساق بعض إنشائه وطول في ترجمته، ولم يحضر لديّ الآن الكتاب المذكور، وقال إنه كان منظورا إليه بعين الاعتبار والوقار، والتعظيم والتجلية والفخار، ورأيته مذكورا أيضا عند الفقيه الكنسوسي الكبير، في كتابه «الجيش العرمرم الخماسي، في دولة أولاد مولانا علي [224] السجلماسي»★، وصحح نسبته وأثنى خيرا عليه، وذكر أنه عاصره وعرفه، وسياتي بقية الكلام في شأنه إن شاء الله تعالى.

ومن صلحاء مكناس الولي الصالح سيدي سعيد المدفون خارج المدينة، وقد ذكره في ممتع الأسماع فعليك به تقف على جلالة قدر هذا الولي ومنصبه من الولاية والمكانة، رضي الله عنه ونفعنا به وبأمثاله.

ومنهم مولاي أحمد الشبلي رضي الله عنه

ومنهم سيدي أحمد بن خضراء رضي الله عنه.

ومنهم سيدي قدور العلمي رضي الله عنه، وله مقام حفيل جليل، وبجانب قبره ضريح أخته، وقد اعتنى به أمير المؤمنين مولانا الحسن ابن أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمان بن هشام، وبنى بازائه مسجدا جامعا بهيا، ومنارا في غاية اللطافة والحسن والسر، وصارت تصلى فيه الجمعة وقد صليتها به في بعض الأحيان، ولثمت اعتاب ذلك المقام والحمد لله.

ومنهم لال عائشة العدوية رضي الله عنها، وبها من مقابر بعض أقاربنا كثير رحم الله الجميع، ولم نستحضر الآن غير هؤلاء الأولياء نفعنا الله بجميعهم، آمين.

ومن المدفونين بمدينة مكناس أمير المؤمنين مولانا إسماعيل بن الشريف، وبإزائه قبر أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمان بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف، رحمهم الله أجمعين، وبالقرب من ذلك المقام المقدس ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن المجلوب رضي الله عن الجميع، والشيخ [225] *المجلوب هذا أصله من دكالة من قبيلة أولاد فرج كما في «الاستقصا»، وهو سابق بالدفن هنالك على السلطان مولانا إسماعيل بكثير من السنين، اظنها مائة سنة وثلاثا وستين، والله اعلم.

وبالقرب من مكناس بنحو ثلاث ساعات زاوية مولانا ادريس الأكبر إبن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن مولانا علي ومولاتنا فاطمة الزهراء، رضي الله عن جميعهم، ونفعنا بهم وجعلنا في زمرتهم، وتحت ظل ألويتهم ورايتهم، آمين، وبها مقامه الشريف، وجسده المنيف، المقدس المنور العفيف، ووصلت إليه وزرته والحمد لله، وبسفح جبل زرهون من الجهة المطلة على مكناس، ضريح الشيخ ابن حمدوش، نفعنا الله به، وقد تقدم ذكر الطائفة الحمدوشية التي تنتسب إليه وكونها ليست على شيء فليراجع، ولعل الشيخ مذكور في ممتع الأسماع، فقد علق ببالي أنه فيه أو في دوحة الناشر.

وبخارج مكناس بمسافة ساعة الولي الصالح سيدي بوزكري رضي الله عنه، وقد زرته مرارا، ووصلت إلى المسجد الجامع الذي بالناحية المعروفة بالأروى، وهو مسجد بهي فسيح الصحن جدا، ما رأيت مثله في المغرب في

الانفساح والاتساع، وهو من بنيان أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله
[226] حسبما ذلك مكتوب في محرابه، *ولم استحضر الان تاريخ إنشائه، وبإزائه
مدرسة وبيوت للطلبة والمعتكفين، رحم الله بانيه.

ولنذكر ما وصلته من الأمصار، وأدتني إليه الأقدار من الأقطار، أما
مراكش فإنها بلدي، وهي أول أرض مس جلدي ترابها، زاد الله في معناها،
وبلغها من كل خير مناها، وأما غيرها من البلاد فإنما وصلته عابر سبيل،
فوصلت مكناسا ثلاث مرات، ووصلت فاسا، وطنجة، والجزائر، وأصيلا،
والعرائش، والقصر، ومهدية، وسلا، والرباط، والدار البيضاء، وأزمور
والجديدة، وآسفي، والصويرة، وأكدير، وتارودانت، وماسا، ووادي ولغاس،
ومرسى أصكا، وتزنيت، ووادي نون، وأكلميم، وسوق عام القريب منه بنحو
ساعة، وإداوتنان، وبلاد حاحا، والشياظمة، وشيشاوة، وزرت بها الشيخ
الصالح القطب سيدي أبا زيد رضي الله عنه، وجبال المصامدة، إلى أن
وصلت بلاد اوناين من سوس، وذلك في الوقت الذي كانت جيوش السلطان
فيه محدقة بالكُنتافي المتقدم الذكر في دولة أمير المؤمنين مولانا الحسن قدسه
الله، ووصلت غيغاية، وزرت الولي الصالح أبا سالم مولاي ابراهيم المعروف
بطير الجبل عند العامة، رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره في جملة أولياء
[227] مراكش، ووصلت أمزميز، ومجاط، وآجرجور، وزرت *الصالحة تاكركوست،
واغتسلت بمائها الشبيه بماء مولاي يعقوب بالغرب في الحرارة والشفاء، بينها
وبين مراكش نحو خمس ساعات، ووصلت بلاد أولاد أبي السباع، وزرت
الولي الصالح سيدي المختار رضي الله عنه، ورأيت في تلك البلاد من الأولياء
ومقاماتهم وقبابهم مالم نره في غيرها كثرة ونورانية، وزرت سيدي عبد المومن
رضي الله عنه، وكان أولاد أبي السباع في الزمن الأول من أمتن الناس دينا وعلما
وأدبا وحفظا وصيانة وشجاعة وفروسية، وكان ذلك مغروزا في طباعهم حتى
النساء، وكان الحسن مقصورا عليهم، وكان الناس يضربون الأمثال بحسنهم
وصفاء أذهانهم، وقد صاروا اليوم على الضد من ذلك، لكثرة ما توالى عليهم
من الكروب والدواهي، جبر الله أحوالنا وأحوالهم، آمين، وشرفهم مسلم عند
جميع الناس فلا مطعن فيه لأحد، وهم محمولون عند الناس على التوقير
والتعظيم والمراعات، وكان والدي — رحمه الله — يحبهم كثيرا، وكانت له

مصاهرة معهم، وكذلك أنا بمباشرة والدي، وحمدت مغبة تلك المصاهرة وشكرتها، وجاءني منها أولاد نجباء أدباء والحمد لله.

وعرفت منهم شرفاء أبرارا، وعلماء خيارا، منهم الولي الصالح العالم العلامة الأديب العفيف الورع الزاهد الشريف سيدي محمد الدرباكي، رحمه الله وقدسه، وبسببه انقذني *الله من ظلمات الجهل وموارد الردى، وفتح علي [228] فتحا لدنيا، وكانت بيني وبينه محبة وصداقة ما تقدمت ولا تأخرت لي مع أحد، وكانت محبته هو أكثر، وكان يدلني على الخير ويسعى لي فيه، وهو الذي عرفني بطريقة شيخنا سيدي ماء العينين رضي الله عنه ورغبني فيها، وذكر لي كثيرا من كراماته وصححها لي، ونفى بعضا مما كنت سمعته منها من غيره، لعدم ثبوت ذلك عنده بعد البحث عنها من مظانها، وطالت مرافقتي له أزيد من العشرين سنة وما رأى مني ولا رأيت منه ما يكدر الخواطر والحمد لله، ولم يزل في زيادة من دينه والحرص على مروءته والمحافظة على همته والغبطة في جانب شيخنا، إلى أن لقي الله تعالى عام خمسة عشر وثلاثمائة وألف، بسبب سم سقاه إياه بعض أعدائه قاتلهم الله، وكان أخبرني بذلك كتابه بخط يده وهو مريض وسمى لي من سقاه وعرفته، ثم رجع وكتب لي ثانيا بما يخالف ما قال سترا على أولائك الأعداء، وعند الله تجتمع الخصوم، ودفن بمحله من فبيلته بمسجد بناه لله تعالى من عنده، وأخبرني صهره الشريف الفقيه سيدي بلخير بأنه شاهده يتبسم ضاحكا بعد موته وهو ثقة عدل، رحمه الله وألحقنا به مسلمين، وجعلنا في حماه ومن أهل زمرته آمين، وخلف أولادا ظهرت نجابتهم، وتبينت سعادتهم، جعلهم *الله خير خلف،آمين، وأخبرني رحمه الله [229] أن الشيخ ــ رضي الله عنه ــ بشره بأنه ولد المصطفى حقا، ثم قال له والله لا أرضى لك عند الله بدون القطبانية الكبرى، ولما مات سألت الشيخ عن مقامه وأخبرته بما سمعت منه فأجابني بأنه فوق ذلك، ومما أفاد نيه سيدي محمد الدرباكي رحمه الله كتابة بخطه ما نصه الحمد لله، وقد أخذت عن شيخنا الشيخ ماء العينين أطال الله حياته، وأخبرني أن من واظب عليه صبحا ومساء يفتح عليه في الشعر ولو كان أكثر جمودا من حجر، وذكر لي أن بعض التلاميذ طلب منه معرفة الشعر فلقنه إياه ففتح عليه فيه، حتى صار كأنه امرؤ القيس وقته، وذلك المريد اعرفه ولازال بقيد الحياة، وله يد

طولى في الشعر واللغة، وهذا ما أخذت عنه «وقد أذنتك فيه فدم عليه ترى ما يسرك ان شاء الله مع حسن الظن وعدم السآمة، تقول صباحا ومساء يا مبدىء سبعا وأربعين مرة بتقديم السبعة، بسم الله الرحمن الرحيم، الرحمن علم القرآن، خلق الانسان علمه البيان، إلى قوله تعالى ولا تخسروا الميزان، سبعا، والسلام، في العشرين من صفر الخير عام ستة وثلاثمائة وألف، محمد السباعي الدرباكي».

ووصلت بلاد حمير، وعبدة، ودكالة، والشاوية، والأعشاش، وتادلة والقنطرة التي على [230]* وادي أم الربيع، وقصبة آيت الربع، وهي من بناء أمير المؤمنين مولانا إسماعيل بن الشريف، وبها مسجد بهي وصومعة للاذان جيدة، ووصلت بلاد زعير، ودمنات، وهنتيفة، وزمران، والسراغنة، وغرم الأعلام، والقصبة الزيدانية، وغير ذلك، ولم يبق لي طلب ورغبة الآن إلا في الوصول لبيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه وعلى من معه الصلاة والسلام، يسره الله لي على أحسن مراد، آمين.

وأنا الآن بثغر الجديدة في غرض مهم للسلطان، وهي قريبة من مراكش بينهما مسافة أربعة أيام، ومن الناس من يقطعها في ثلاثة أيام، وصلتها في أواخر ربيع الثاني عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، ولم نزل فيها إلى الآن وهو أوائل جمادى الثانية من العام المذكور، ونتلمح الوصول إلى مراكش إن شاء الله بعد الفراغ من هذا الغرض، نسأل الله التيسير، بجاه النبي البشير، وذلك بعد ان كنت بفاس موله البال، ومستغرق الأحوال، وكان النهوض عندي منها من الأمر البعيد، فيسره الله في أسرع من طرفة العين من غير تحريك أسباب، ولا استفتاح لذلك الباب، وإنما هو فضل من الرب العلي الكريم الوهاب. وذلك ببركة سبعة رجال وتوسلي بهم وطلبي ذلك منهم عند ذكري لهم فيما تقدم [231]*من هذا الكتاب، فقد أجاب الله في الحين دعوتي، ويسر رغبتي، إذ لم يمض لها إلا نحو السبعة أيام أو أقل وجاء الفرج كفلق الصبح، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتستجاب الدعوات، وتنال الرغبات، وزدت يقينا في قوة جاه الصالحين، وأولياء الله المفلحين، وأن الاجابة تلبي من سأل الله بهم سريعة، وتأتي إليهم سميعة مطيعة، جعلنا الله في حماهم، وأعطانا من كل ما أعطاهم، بمنه وكرمه آمين.

وبعد وصولي لهذا المحل من الكتاب بنحو ثمانية أيام وأنا بثغر الجديدة، بلغني أمر السلطان ــ نصره الله ــ بالنهوض منه، والتوجه لمرافقة أخيه الشريف الحسيب النسيب الأجل مولاي عمر، الموجه من قبله نائبا عنه في الرباط على بعض القبائل من أهل الحوز، بقصد أخذ الترتيب منهم واصلاح ما انثلم من أمورهم، ومولاي عمر هذا هو من أجل إخوته وأنجبهم، وأفقههم وأنبههم، وله ذكاء وقاد، وفهم نقاد، ودراية، لا تكاد تحد بغاية، وقد تقدم ذكره في دولة أبيه السلطان مولاي الحسن رحمه الله، فامتثلت ــ إذ ذاك ــ أمر السلطان، ولحقت بمولاي عمر المذكور في أزمور ورافقته إلى مراكش، فوصلناها يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الثانية عام ثلاثة وعشرين [232] المتقدم، والتقيت بأهلي ★وعشرتي، وصبيتي وجيرتي، وأهل ودي وأحبتي وعترتي، ولم تملك العين عند رؤيتهم دمعها، فجاءت به كالمواطر الغزار، هطلت وتأبطت طلها ووبلها، ولم نمكث معهم إلا أقل من القليل، ثم خرجنا من عندهم والنفس إليهم تواقة، والروح تخفق إشفاقا من طول المغيب الذي مللت مذاقه، واستخشنت رواقه، ولو طاوع الوقت وساعد القدر لبثت طلاقه، ولصيرته في زاوية الاهمال إلا إلى مقام المصطفى الذي ما عاينه أحد إلا سر به وراقه، ونحن ــ الان ــ وهو أواخر رجب الحرام عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف مخيمون في زاوية الشيخ أبي العزم سيدي رحال، الذي له الصيت البعيد والكرامات ذوات البال، والنفس في قلق عظيم، وهم عريض مليم، من أجل م عايناه من التهاون بمنصب المملكة، والاجتراء على حماها الذي طالما أتته السعود طوعا وأخذ بزمامها وملكه، وصار الأمر كمن يضرب في حديد بارد، والناس في حيص بيص وكلهم عن الاستقامة شارد، كمن ليس فيهم رشيد، سواء في ذلك الشيخ والكهل والشاب والوليد، ولذلك أسباب، ليس من دونها حجاب، ولا هي متنقبة بنقاب، يعلمها الخاص والعام، ولا يجحدها مأموم ولا إمام، فاستوى الماء والخشبة، وكل واقع في الشرك الذي سواه ونصبه، أمر معلوم، وجزاء من جنس عمله مختوم، طويت الصحف وجفت الأقلام، «فمن [233] أحسن فلنفسه★ ومن أساء فعليها، وما ربك للعبيد بظلام،» وسرى لنا في هذه الوجهة ضياع كبير، وتفريط أثير شهير، جره سوء التدبير، والطمع الذي يردي الصغير والكبير، والاعراض عن الرب السميع البصير، الذي له الخلق

والأمر وإليه المصير، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وقد وجهت وجهة الرجاء إلى الله تعالى في فك أوحالي، ونفي أهوالي، واصلاح حالي في حالي ومآلي. واختيار ما هو الأصلح لي وفيه انشراح بالي، إنه الكبير المتعالي.

وقد زرت الشيخ أبا العزم المذكور، وتملقت أمام ضريحه المنور المشكور، وأنشدت بين يدي نجواي هذه الأبيات التي هي نفثة من مصدور، متوسلا بها إليه، ومتطارحا فيها عليه، لعل الله يتداركني لأجله بألطافه المحتفة بالفتوح، التي لا تفي بنعوتها الشروح، وهي هذه وإن كان مثلها لا يذكر، ولا يليق أن يسطر في الدواوين، وينشر.

إني إذا الضيم طما … بحر له وعظما
واشتد خطبه على … أنحائنا وعما
وضاقت الأنفاس من … وصبه الذي هما
وبان عن أصوله … صبري ورام عدما
ناديت رحال الولي … في أرضنا وفي السما
هو أبو العزم الذي … يعطي عطاء الكرما
*ويهب الشيء الذي … يكبر عند العظما
به سألت ربنا … في فرج يروي الظما
ويكشف الغم الذي … قد استطال وطما
وملأ القلب همو … ما شادها وأحكما
وحير العقل وتا … ه رشده وأظلما
واستوحشت أركانه … والجو منها غيما
وأمطرت دمعا يحا … كي شررا وعندما
وأوهنت جوارحا … وهنا اثار وخما
بك استجرت يا ولي … فاشفع تشفع كرما
وادع بلفظك الشهي … ربا ينيل النعما
ويعطين فضله … لمن دعا وصمما
واسأل إلاهي نصرتي … تأتي بفتح مفعما

عن قدر لمح لحة	في قربـــــــه يا من سما
واضمـــــن إلي سعـــــة	تكفـــــي وتشفـــــي ألما
إني طفيـــــل فضلكـــــم	فامــــلأ يدي مكارمــــا
ولا ترد خائبـــــــا	قصدي وسعـــــي تمـــــا
لك الكمـــــال كلمـــــا	جادت بوبلهـــــا السمـــــا

انتهت، وبعناية الله تعالى ورعايته اتصلت، والحمد لله على كل حال، له الحل والعقد وإليه المثال، ونسئل الله أن لا يخيب قصدنا، ولا يقطع منه★ [235] رجاءنا، بمنه وكرمه آمين.

وفي أثناء هذا بلغنا خبر يتعجب منه على لسان من نظن صدقه، وهو أن بعض النصارى تواطئوا مع بعض من المسلمين أهل حمايتهم على أخذ قصبة فضالة المطلة على البحر بين الرباط والدار البيضاء، والاستيلاء على أرضها ونواحيها، لتكون وسيلة لشيء آخر أدهى وأمر، واتفقوا على إنزال المكاحل والقرطاس هنالك من البحر في أيام متعددات، ويخفونها في الرمال هنالك إلى أن تحصل الكفاية منها وتمكنهم الثورة، ففعلوا وبالغوا في الكتمان، ولكن الله ـــ تعالى ـــ خيب قصدهم، وأبدى سرهم، فاطلع عليه أهل المحل من قبائل زناتة وجاءوا يتعادون كالسباع الضارية، لا يدرون الغادية من الجائية، ونهبوا تلك المكاحل كلها، بعد استخراجهم لها من مكامنها، ووجدوا كثيرا منها ببعض ديار المسلمين المذكورين وأخذوها، وهدموا تلك الدار وأرغموا أنفها بالتراب، وصيروها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالأمس، وهرب النصارى ومن أعانهم من المسلمين يلتفتون وراءهم، فإن صح هذا الخبر فإنه من الأمور التي تزيد القلوب غما، وتعمرها هما، وتزيد للراغبين طمعا في الأرض، ما بين طولها والعرض، ولا سيما حيث أيسوا من المقابل، وأمنوا من طروق الرمح والذابل، تدارك الله أمر الاسلام، وأعاد علينا وعليه بركة النبي عليه الصلاة والسلام، وليكن هذا آخر هذا الباب، الذي ملأ من ★الأخبار الوطاب، [236] واشتمل على ذكر الصالحين، وأولياء الله المفلحين، حشرنا الله في زمرتهم، وجعلنا دنيا وأخرى في حماهم، بمنه وكرمه آمين.

لكن اردت أن نختمه بذكر شيخنا الشيخ ماء العينين ابن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين، رضي الله عنهم وأرضاهم، ليكون كالمسك ختامه، ولبشائر الفتح تشير أعلامه، أما الشيخ رضي الله عنه فإنه صاحب الوقت وهو الغوث، لأنه صرح بذلك في أبيات صدرت عنه، وهي في ديوانه الذي جمعه أصدقاء تلامذته وطبعوه بفاس، وهو موجود بأيدي الناس، ولم يحضرني الآن، وكنت رويت تلك الأبيات عن صاحبي وأخي وحبي سيدي محمد السباعي الدرباكي رحمه الله ورضي عنه، ثم وقفت عليها في الديوان المذكور، وما رأيت ولا علمت أحدا اليوم بالمغرب قاطبة في درجة الشيخ رضي الله عنه في الشهرة وكثرة الأتباع وبعد الصيت وإقبال الخلق عليه، وخضوعهم لديه، حتى السلطان ومن دونه، ولا أعلم أحدا منزل عنده وعند سائر وزرائه وكبراء دولته منزلته، وكثير منهم تلامذة له، وأكبرهم في ذلك صاحب المشور ابن يعيش، وبشره الشيخ في القديم بعلو الدرجة وارتفاع المكانة وكان ذلك، فهو اليوم أبو عذرها، ورئيس موكبها، وبدر هالتها، وحكى لي بعض تلامذة [237] الشيخ رضي الله عنه أن الشيخ لما ورد على حضرة السلطان أيام ★الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه الله، كان تكلم مع الوزير المذكور بالتوجيه على ابن يعيش هذا من تطوان إذ كان عاملا بها ويرده إلى حضرة السلطان، فتعلل الوزير ثم وعد وعدا ظاهره المساعدة حياء، ثم تكلم معه فيه ثانيا وثالثا ووعده ولم يف، ومن جملة ما قاله الشيخ للوزير في حق ابن يعيش، أثناء مباشرته الكلام معه في مجيئه من تطوان أنه قال له إن ابن يعيش كان أتاني يوما بهدية كبيرة، فقلت له أطلب ما شئت فإن الله تعالى يعطيكه ولو الوزارة، فقال لي الوزارة أحببتها للفقيه السيد أحمد، وأنا لا أريد إلا مكانة والدي وهي القيادة على المشور، فقلت له قد أعطاكها الله تعالى ذلك، وذلك دليل على محبتي لك، فينبغي أن تجازيه عليها بأن تجمعه مع أهله ويأتي لحضرة السلطان، وقد تكلم مع الشيخ مرة وهو بالصحراء بعض تلامذته، وسأله عما فعل الله بابن يعيش هل جاء إلى حضرة السلطان أو بقي بتطوان، وهل وفي الوزير بالوعد أولا، فأجابه الشيخ قائلا يا ولدي أنا أروم اليوم مجيء ابن يعيش من الله، ولست نرومه من الوزير، فلم يلبث أن مات الوزير وجاء إبن يعيش إلى حضرة السلطان في غيبة المهدي المنبهي لبر النصارى، وتولى ابن يعيش الامارة

على المشور، ومن ثم وهو في صعود إلى أن صار الآن شاه الرقعة وواسطة العقد
[238] كما قلنا، وصدق *ما قاله الشيخ لابن يعيش من ارتفاع الدرجة وعلو الكلمة، وقال لي مرة سيدي محمد الدرباكي رحمه الله، إن الشيخ قال وكانوا يتكلمون على ابن يعيش لو شئت أن يكون لابن يعيش التقدم على كل الوزراء ولا يبقى بينه وبين السلطان واسطة ولا حجاب لفعلت، ولكني اخترت الأدب مع الله تعالى في ترك عبيده لما خلقهم إليه، قلت وقد صار إبن يعيش اليوم بهذه المثابة التي قال الشيخ، ولا حجاب ولا واسطة بينه وبين السلطان، فما أصدق فراسة هذا الشيخ الجليل وأثبتها، فكأنه ينظر في اللوح المحفوظ ويرى الشيء عيانا، وكم من أمور تكلم بها قبل وقوعها وكانت بإذن الله تعالى، وسمعنا من الكرامات عنه شيئا كثيرا من التلامذة، وقالوا لنا إن بعض تلامذته الأصدقاء جمعها بالصحراء في كتاب ذكروه لنا وضل عنا إسمه، وكتبت مرة لمريده الصادق الفقيه العالم العلامة، الحيي الخير الأجل الصالح الولي الحجة النفاعة البركة الصدوق النصوح البشوش الورع الزاهد العابد، ذي الخلق الحسن الذي لم يتطرق إليه احتمال ولا لبس أبي العباس سيدي أحمد الشمس وهو بالصحراء يومئذ، طالبا منه أن يقيد لنا بعضا من كرامات الشيخ لأن الناس يسئلون عنها كثيرا، ويريدون أن يحققوا ما يسمعونه منها عن
[239] ثقة، لأن الروايات كثيرة فيها، *فأجابني بمثل ما قلت، ثم قال الكرامة التي لا غبار عليها ولا نزاع فيها هي الاستقامة والثبوت عليها وعدم التزحزح عنها من عهد الصبا إلى الشيخوخة، فانظر بالله إلى هذا الجواب القاطع لكل خصام، والمسكت لكل كلام، وصدق رضي الله عنه، إذ بالاستقامة تتبين الأحوال، وتظهر مقامات الرجال، وتنال منازل الأبرار والأبدال، والاستقامة أقوى مثابة من الكرامة، وربما تظهر الكرامة على من لم تكمل له استقامة، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بمحبة هذا الشيخ الجليل، ويبقينا على متابعته والتمسك بذيله إلى لقاء الله تعالى وبعد لقائه، آمين.

وللشيخ رضي الله عنه من التآليف في كل فن شيء كثير، وكنت قيدت بعضه يوما بفاس وبلغت إلى نحو العشرين تأليفا، وهي أكثر من ذلك بأضعاف، منها راتق الفتق على فاتق الرتق، ومنها نعت البدايات وتوصيف النهايات، ومنها : السيف والموسى على قضية الخضر وموسى، ومبصر المتشوف

على منتخب التصوف، وتبيين الغموض على نعت العروض، ومفيد النساء والرجال في بيان بعض ما جاز من الابدال، وسهل المرتقى في الحث على التقى، والمقاصد النورانية في ذكر من ذاته وصفاته متعالية، ومغري الناظر والسامع، على تعلم العلم النافع، والأقدس على الأنفس في أصول الفقه، [240] *وتنوير السعيد على المفيد، وكتاب الصلات، في فضائل بعض الصلوات، وتبيان الحق الذي للباطل سحق، ومظهر الدلالات المقصودة من ألفاظ التحيات، والنصيحة، وإظهار الطريق المشتهر على اسمع ولا تغتر، وقرة العينين في الكلام على الرؤية في الدارين، والايضاح لبعض الاصطلاح، وكتاب إنما الأعمال بالنيات، وكتاب يتعلق بالحسد، وكتاب في التيمم، وكتاب آداب المخالطة مع اليتيم، ومنها غير ذلك مما يطول تتبعه ولم نستحضره الآن، وكل تآليفه مقبولة حسان مرغوب فيها عند الناس، ومنظور إليها بعين التجلة والوقار والايناس، ومن تآليفه المشرب الزلال، في الصلاة على أفضل الرجال، وهو تأليف جليل، لكل خير جزيل منيل.

قلت ولمّا فرغت من كتابة هذا المحل أوقفني أخي وحبي، وصاحبي ولبي، الفقيه الأجل الحيي الأود الأمثل، المريد الصادق، والتلميذ السابق، البركة النفاعة الأريب، سيدي عبد الله بن محمد المعروف بابن الأديب، على كثير من أسماء تآليف شيخنا بعد أن طالع ما اثبتناه منها هنا، وحض على ادراجها وانضمامها لما ذكرناه من أخواتها، وهي اللؤلؤ المحوز الجامع بين الجامع والراموز في علم الحديث في ثلاثة أسفار، وموافق الموافقات، نظم به موافقات الامام الشاطبي في أصول الفقه، وشرحه ــ رضي الله عنه ــ في ثلاثة أسفار، ودليل الرفاق على شمس الاتفاق، نظم فيه رضي الله عنه المجمع عليه من الشريعة، وشرحه بجميع ما اختلفت فيه وسبب الخلاف بين الأئمة رضي الله عنهم، وهو كتاب جليل عظيم الفائدة في ثلاثة أسفار، ومفيد الحاضرة والبادية في شرح الأبيات الثمانية، وهو من عجائب الدهر في سفر واحد، ومنيل البش فيمن يظلهم الله تحت ظل العرش في سفر واحد، ومنيل المآرب على كفاء الواجب، تكلم فيه رضي الله عنه على مقامات أهل التصوف في سفر واحد، ومفيد الراوي على أني مخاوي، والمداوي على أني مخاوي، ومفيد الأنام، في معرفة الخاص والعام، وهداية النبيه في النحو، والايضاح فيما للقوم من الاصطلاح،

وإزالة الرين في جواز رؤية الله بالعين، وإبراز اللئالي المكنونات في أسرار أسماء الله المظهرات والمضمرات، ومذهب المخوف على دعوات الحروف، وجامع المهم من النكاح الملتئم، وإفادة الأمير والرعية والوزير، بأسرار فاتحة الكتاب المنير، والفوائد الأبجدية، والفوائد الأحمدية، وحزب الخيرات وأسبابها الرافع للمضرات وأربابها، والحزب الجسيم في أسرار سلام قولا من رب رحيم، والأدعية النافعة، وديوان أشعاره في التوسلات الالهية والمدائح النبوية وغير ذلك، وهو جزآن في سفر، قال وللشيخ رضي الله عنه تآليف أخرى غير هذه.

وفي تلامذته من العلماء والأخيار والشعراء شيء كثير، رأينا منهم من لا نقدر على عده، وعليهم من الأنوار والسكينة والوقار، ما يومي إلى حال الصحابة رضي الله عنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الانقياد للشيخ ومناصحته، وتعظيمه وتفخيمه، وكثرة الذكر والطاعة والمواظبة على الصلوات في الجماعة، وغير ذلك من كل وصف جميل.

وللشيخ رضي الله عنه اولاد علماء عظام، وأسود نجباء فخام، نبلاء أتقياء، وكرماء أولياء، فيهم الحلم والحياء، والسمة الحسنة والبهاء، ولهم النور الباهر، وكلهم في الفطانة *والتؤدة والسيادة ماهر، وفر الله جمعهم، وصان [241] من كل مكروه ربعهم، وبارك فيهم ولهم، منهم الولي الصالح النبيه سيدي محمد الشبيه، والولي الكبير الميمون المشهد والغيبة، سيدي أحمد الهيبة، وسيدي عثمان، محل الأمن والأمان، وسيدي محمد تقي الله، الذي أولاه مولاه ما أولاه، وسيدي النعمة، محل العلم والفوائد الجمة، وغيرهم رضي الله عنهم، وذكر لنا الموارد أن أولاد الشيخ كثيرون جدا، وأنهم يتحامون عدهم خوفا عليهم من العين، حفظهم الله ونماهم، وكثرهم وزكاهم، وأبقى الولاية والنعمة في عقبهم إلى يوم الدين.

وطريقة الشيخ ـــ رضي الله عنه ـــ قادرية، منسوبة إلى مولانا عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، أخذها عن أبيه الشيخ محمد فاضل بن مامين، وهو أخذها عن أبيه، وهكذا إلى عشرة آباء، وهم اخذوها عن الأشياخ الكبراء، منهم الشيخ الشاذلي وابن هيت ومولانا عبد القادر الجيلاني، إلى مولانا علي كرم الله وجهه، وهو عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن جبريل،

عن رب العزة جل جلاله، وعندي بمراكش هذه السلسلة الشريفة مقيدة في بعض تقاييدي، أخذتها عن سيدي محمد الدرباكي رحمه الله، وإن يسر الله وتوصلت بها فإني نلحقها بهذا الموضع إن شاء الله تعالى، لأن كثيرا من [242] الناس يظنون أن الشيخ ماء العينين أخذ عن الشيخ *المختار الكنتي رضي الله عنهما من حيث أن طريقتهما واحدة، مع أنه إنما أخذ عن أبيه، وأبوه أخذ عن أبيه، وهكذا إلى عشرة آباء كما قلنا، قلت وطريقة شيخنا أخذها عن أبيه الشيخ محمد فاضل، وهو أخذ عن أبيه ما مين، عن أبيه الطالب حيار، عن أبيه محمد، عن أبيه الجيه المختار، عن أبيه الطالب الحبيب، عن أبيه الطالب علي، عن أبيه سيدي محمد، عن أبيه يحيى الصغير، عن الشيخ زروق، عن عقبة الحضرمي، عن علي بن أوفى، عن والده محمد، عن الامام الباخلي، عن ابن عطاء الله، عن أبي العباس المرسى، عن الامام الشاذلي، عن مولانا عبد السلام بن مشيش، عن ابن العربي الحاتمي، عن النجيب السهروردي، عن ابن هيت، عن مولانا عبد القادر الجيلي، عن أبي الوفاء، عن الشنبكي، عن الشبلي، عن الجنيد، عن أبي الحسن، عن معروف الكرخي، عن الحسن البصري، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن جبريل، عن رب العزة جل جلاله، وتعاظم سلطانه، انتهى. كما تلقيته من سيدي محمد الدرباكي رحمه الله ونفعنا به وبمن في هذه السلسلة المباركة من الأخيار.

وللشيخ — رضي الله عنه — وأنجاله الكرام محبة تامة في جانبي، [243] *ويدعوني بولدي، ويدعو لي بخير كثير، وبشرني بشارات متعددات، منها أنه قال لي أول مرة رأيته أرجو لك من الله — تعالى — مرتبة اعلى من مرتبة والدك، وقال لي مرة أخرى إنك من ترق إلى ترق إلى الدرجة التي لم يبلغها أحد، وكاشفني مرة وكنت عازما على سؤاله عن ذلك الشيء الذي كاشفني به وذكره لي من تلقاء نفسه قبل أن نذكره له، وقال لي فيه ما سرني، وهو أني كنت مريدا أن نسأله عن حال عاقبتي في أواخر عمري، فقال إني أرجو الله تعالى أن يجعل آخرك أفضل من أولك، فحصلت على فائدتين على كرامة للشيخ من جهة الكشف، وعلى البشارة في حق نفسي، والحمد لله: وقال لي أنه رأى والدي واجتمع معه وأحسن إليه، ودخل الشيخ لداري وزار

منه جميع أهلنا وأولادنا كبارا وصغارا وأناس آخرون وجدهم الحال عندنا، وكذلك والدتنا رضي الله عنها لأنها كانت في قيد الحياة يومئذ، ودعا للجميع بما نرجو قبوله من الله، ودخل لداري أيضا جل أولاده وتلامذته، وأكلوا طعامنا، وشرفونا بأقدامهم المباركة، إلا الشيخ فلم يأكل شيئا لا عندي ولا عند غيري، وتحت يدي من مكاتيبه لي وأجوبته شيء كثير، وعندي أيضا نصيب كبير من تآليفه المنورة بنور الله، والكل غائب عني الآن، ولو حضرتني لذكرتها بأسمائها ★وموضوعاتها. [244]

وفيه رضي الله عنه من الحلم والتواضع والرأفة والصبر والتأني والشفقة ومكارم الأخلاق ما لا يوصف، وسمته سمة الصالحين الأخيار، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، ولا يغضب لنفسه، وكان تلامذته يحبون غضبه عند موجبه، لأن النصر يعقبه، والكرامة تجذبه وتطلبه، وكان أثبت من أحد لا تستفزه الرياح، وقافا مع الحق، صادعا بالصدق، لا يخلو طرفة عين من مشاهدة ربه، ومستحضرا لجلاله وكماله بقلبه، راضيا بحكمه، مستسلما لأمره، لهجا بذكره، على سنن السلف الصالح في كل أحواله وعلانيته وسره، والحديث والآية وأمثال العرب وأشعارهم وآثارهم كل ذلك على ظاهر قلبه، ما تكلم في شيء إلا استشهد عليه وأوضحه وبينه ونسبه لقائله، وأعطاه الله من الهيبة والوقار والتؤدة ما لم نره في غيره من الأمراء فمن دونهم، والقلوب تميل إليه وتحبه بالطبع، ولا يكرهه إلا منافق أو حسود جاحد مطموس البصيرة، مكشوف السريرة، عصمنا الله من بغض الصالحين، وأوليائه المفلحين، بمنه وكرمه آمين، وقد عثرنا على أناس كانوا يبغضون الشيخ ويتكلمون فيه، فآل بهم الحال إلى الاحتياج إليه، والاستشفاع به، منهم الفقيه العلامة السيد محمد بن إبراهيم ★السباعي أصلا المراكشي دارا، سمعت كراهيته له من ثقة، فنزلت بالسباعي [245] نازلة عويصة سجن لأجلها، وقطع الناس بعسر امره، وبالغ فيما يخلصه وما نفعه، وانبهمت عليه المسالك، إلى أن من الله عليه بمجيء الشيخ إلى مراكش عند السلطان فتشفع فيه وسرحه، ومن ثم صار السباعي يعرف القدر للشيخ وكف عنه أذاه.

وأخبرني سيدي محمد الدرباكي رحمه الله أن الشيخ رضي الله عنه كتوما للأسرار جدا، قلما يبوح بشيء منها، قال وتذاكرت معه يوما وعرضت له بسيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه الذي ألف فيه سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي كتاب «الذهب الابريز»، وقلت له إنه يكاشف ويخبر بالأسرار ويقع ذلك كما يقول، وقصدي أن نرى ما عنده ولعله يبدي لي شيئا، فأجابني بقوله يا ولدي إن القلة إذا كانت فارغة تكلمت، وإذا عمرت وامتلأت سكتت، قال فتعجبت من هذا الجواب البديهي، وزدت يقينا في كونه من الكمل رضي الله عنه ونفعنا به، وقال لي إنه اشتكى على الشيخ مرة في شأن زوجه واستشاره في فراقها، فأجابه بقوله يا ولدي إن الزوجة إذا كانت لائقة بك فلا تطلقها فإن النساء لسن كلهن كذلك، وإن كانت غير لائقة فطلقها، فإن النساء لسن كلهن كذلك، قال فتنبّهْت بقوله واسترحت.

[246] وتكرر *مجيء الشيخ رضي الله عنه عند السلطان ست مرات مرة في حياة أمير المؤمنين مولانا الحسن بعد أن كتب له ودعاه عام أربعة وثلاثمائة وألف كما تقدم في صدر الكتاب، وكان مجيئه لمراكش

المرة الثانية في دولة أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز بمراكش أيضا، وذلك في حياة الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه الله، ونزل بدار الحاج حمادي المسفيوي.

الثالثة في حياة الوزير المذكور أيضا، وأنزله بداره بمراكش، ونوه به واعتنى وبالغ في البرور، جزاه الله خيرا، ولم يزل ينظر إليه بعين الرعاية والاعتبار إلى أن لقي الله.

الرابعة كانت وقت تكليف الفقيه الوزيرا لسيد الحاج المختار ابن عبد الله بن أحمد بن مبارك بمراكش كذلك، وسمعنا بالتواتر أن الشيخ لما جاء في هذه المرة وبات قريبا من المدينة، وفي الغد الذي هو ليلة العيد النبوي يدخل إليها وأعلم جانب السلطان وأهل الدائرة بذلك كتب له الوزير الحاج المختار المذكور بالاقامة في ذلك المحل إلى أن يفوت العيد، لأن الحال وجدهم مشغولين في أموره، فأنف الشيخ من ذلك ولم يعبأ به، وعزم على الدخول للمدينة حيث لم يبق بينه وبينها إلا أقل من الساعتين، ولما علم أهل الدائرة

بعزمه تهيأوا له وخرجوا لتلقيه على بعد ومعهم العسكر والموسيقا، وجاءوا معه إلى أن وصل للمحل المعد لنزوله بعرصة المامونية [247] *قرب باب الرب، وهي عرصة لجانب المخزن قديمة، وعليها أبهة السلطنة ونخوة المملكة، فأخبره مخبر بأن هذه العرصة ينزلها سفراء الروم إذا قدموا على السلطان، فنهض وخرج منها في الحين، وامتنع من النزول فيها، فأمر السلطان بانزاله في دار الوزير السيد أحمد رحمه الله، في المحل الذي نزل فيه قيد حياته، وقوبل بالاعتناء والمراعات على حسب الوقت، إلى أن صدر مجبورالحال لمحله، وذلك عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف، ولم يمض بعد ذلك على الوزير الحاج المختار إلا أيام قلائل ونزلت به تلك النكبة التي تقدم شرحها وكيفيتها في هذا الكتاب، ونسأل الله السلامة والعافية، آمين.

المجيء الخامس للشيخ عند السلطان كان بفاس، ونزل بدار الفقيه الوزير السيد أحمد رحمه الله بفاس الجديد، وقوبل بالاعتناء والمراعات على العادة، ومر في فقوله على بلاد زمور الشلح، وهي منقبة وكرامة للشيخ، لأنها بلاد لا يسلكها أحد إلا اخذ وقتل ونهب، عادة مطردة معروفة، ومشهورة اشتهار الشمس في الوجود، فسلكها الشيخ وجميع من معه من غير بأس، وفرح بهم زمور، وأقاموا لهم الضيافات وذبحوا الدبائح، وأهدوا للشيخ واعتبروه، ووقعت له معهم وقعة كانت كرامة له حكاها لنا غير واحد، منهم الشريف مولاي أحمد الذي يتوجه رسولا من الشيخ بمكاتيبه إلى الناس، وطال عهدي بذلك، ولذلك لم نشرحها خوفا [248] *من ذكرها على غير وجهها، حيث نسيت صورتها، ومات للشيخ — رضي الله عنه — في هذه المرة لما اجتاز في قفوله بمراكش ولد من أعيان أولاده اسمه سيدي محمد تقي الله بالجدري، وهو رجل بأولاده رحمه الله، ودفن حذاء قبر أخيه سيدي عثمان في مقبرة سيدي أبي الأوقات برياض الزيتون القديم، وبنيت عليهما بأمر السلطان قبة فارهة، ومعهما مقابر لبعض التلامذة، رحم الله الجميع ونفعنا بهم آمين.

المجيء السادس للشيخ كان بفاس أيضا، ونزل بدار السيد أحمد المذكور، واعتنى به السلطان كذلك، وقفل على طريق بني حسن.

وفي هذه الأيام وجه ولده الدرة المكنونة، والياقوتة المصونة، سيدي أحمد الهيبة للسلطان بفاس، ولعله لأجل المفاوضة في أمر النصارى وشيوعهم بتلك البلاد الصحراوية، وطلب الاعانة منه بالسلاح المماثل لسلاحهم، والآذن في جهادهم، وسمعنا أن السلطان قابله بالجميل، وأعطاه شيئا كثيرا من المكاحل، ورجع مجبور الخاطر، وهو ـــ الآن ـــ وهو أوائل شعبان عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف ـــ بمراكش، ومنها يتوجه لأبيه رضي الله عنهما، آمين.

قلت وبعد الفراغ من هذا النصف الأول من هذا الكتاب، جاء الشيخ بنفسه المجيء السابع عند السلطان بفاس، قالوا لاجل المفاوضة في ظهور النصارى ببلاد الصحراء وشيوعهم هنالك، وبعد فراغه من ذلك الغرض قفل راجعا من فاس ووصل إلى مراكش ومكث فيه نحو الشهر، ثم توجه لمحله على طريق متاكة، وبات عند العامل المتوكي القائد عبدا لمالك لأنه طلب مجيئه إليه، ثم توجه على طريق الصويرة ومكث فيها ما شاء الله، ومنها ركب بحرا في اليوم الأخير من رمضان عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف، وعيد عيد الفطر في البحر، ونزل بطرفاية بناحية الصحراء، ومنها توجه لمحله مصحوبا بالسلامة والعافية، وبلغنا خبر وصوله سالما.

وللشيخ زاوية كبيرة بهية بمراكش في حومة القنارية، كان وعده بها أمير المؤمنين مولانا الحسن رحمه الله ولم تتيسر على يده، ثم تيسرت على يد نجله أمير* المؤمنين مولانا عبد العزيز، بواسطة الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه [249] الله ومباشرته وإعانته، وتمت على أحسن ما يكون، وله زاوية أخرى بفاس في حومة الطالعة أصغر من التي بمراكش، بناها له السلطان أيضا، ولعله بواسطة ابن يعيش، وبنى له السلطان أيضا دارا كبيرة مشتملة على ديار بمحله من الصحراء،ووجه العملة والمعلمين والياجور والجير والخشب من ثغر الصويرة بحرا، ونزلوا بثغر طرفاية وتوجهوا برا، وسمعنا أن ذلك البناء وجد جله، وسكن الشيخ في بعضه، وجاء على أحسن ما يكون، وذكر لنا أن الشيخ غرس كثيرا من النخيل بذلك المحل، وصار يحاول أجراء عين من الماء هنالك، وظهر في الناس بسبب ذلك بعض الولوع بالفلاحة والتنبه لها.

ومن عادته ــ رضي الله عنه ــ أن لا يتخلف عن صلاة الجماعة، وهو الامام فيها دائما سرمدا أبدا صيفا وشتاء ليلا ونهارا من صغره إلى كبره، وإذا صلى المغرب فإنه لا يبرح من محله ذاك إلا إذا صلى فيه العشاء وتنفل بعدها وقبلها بما شاء الله، وقرأ القرآن بعد العشاءين معا ثم يدخل لمحله، وإذا صلى الصبح فإنه يبقى جالسا بالموضع الذي صلاه فيه إلى أن تطلع الشمس ويصلي الضحى، ثم يلتفت إلى تلامذته ويكلمهم ويقرأ معهم [250]*أنواعا من العلوم ثم يدخل لمحله، وهكذا حاله على الدوام والاستمرار، ما اختل فيه نظامه، ولا صده عنه راحته ومنامه، فحضرته حضرة البهاء والنور، والسعي المحمود المشكور، ولها دوي في طرفي النهار وطرفي الليل كدوي النحل بالذكر وقراءة القرآن والركوع والسجود، والاقبال على الإلاه العلي المعبود.

وله تلامذة كثيرون من أهل مراكش وفاس ومدينة سلا، ومن غالب المراسي والثغور، زيادة على تلامذته الذين لا يحصون كثرة بالصحراء، وما رأيت اليوم بالمغرب الاقصا أشهر من الشيخ ولا أكبر منه قدرا عند العلماء والكبراء، وأهل الوقت والأمراء.

ويليه في هذه الساعة شهرة ودعوة الشريف العالم سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني الفاسي، وقد رأيته بمراكش لما كان منفيا إليها يقبل يد الشيخ ويلتمس منه الدعاء، فعلمت أنه لا أكبر من الشيخ في الولاية في الوقت، وتشفع فيه الشيخ ورجع لبلده فاس وعفي عنه، واستقر في محله واطمأنت نفسه، وراجعه انسه.

ومن طريقة الشيخ ــ رضي الله عنه ــ إيقاع الصلاة أول وقتها، لأن أول الوقت رضي الله، ولما رءاه أهل مراكش يقدم صلاة العشاء على الوقت الذي يصلونها هم فيه، تكلموا في ذلك وبلغه الخبر فأجابهم بنص فقهي، وهو أن وقتها يدخل بمغيب حمرة الشفق، وكون العادة [251]*بالمدن جرت بتأخيرها إلى غيبوبة البياض لا يخدش فيمن صلاها قبلها، وكذلك وقع بفاس حين رأوه يصليها قبلهم، وذلك أن أهل المدن لا يعرفون في الغالب أوقات الصلاة بالشمس والنجوم والامارات المعلومة بالشرع، لاعتمادهم في ذلك على المجانة، والرخامة ذات الشاخص المنصوبة لمعرفة الظلال، ولطول استقرارهم في البيوت

والبنيان واختفاء الأفق عنهم به وكثير من النجوم التي بها تعرف الأوقات الليلية، بل لا يعرفون من الكواكب إلا الشمس والقمر، ولا يصلون إلا تقليدا، بخلاف أهل البوادي فلهم معرفة بالغة بالنجوم والأوقات ليلا ونهارا، ولا سيما أهل الصحراء فهم أتم معرفة وأكثر مهارة وأنقى أذهانا، بل رأينا منهم من يعرف الوقت وهو في بيت مسدود عليه غير مشاهد للسماء كشيخنا رضي الله عنه، وأهل المدن بمعزل عن ذلك، ولذلك استغربوا صلاة الشيخ للعشاء قبل وقت صلاتهم لها، وقال لي سيدي محمد الدرباكي رضي الله عنه ورحمه على مضي ساعة واحدة من المغرب تغرب حمرة الشفق تجربة محققة، وجربتها أنا مرارا عديدة ووجدتها صحيحة، ولم يبق عندي ريب في كون صلاة [252] الشيخ تقع في وقتها، وانتفت عني الوساويس جزاه الله *خيرا، وقال لي مرة إن الشيخ حضه على إيقاع الصلاة أول وقتها، ثم قال له وإذا كان من عادة الجماعة تأخير الصلاة عن أول وقتها فلا تنتظرها، انتهى، ودين الشيخ وزهده وورعه وعلمه وتقواه وفهمه وأمانته ونسكه ونصيحته وعدله ووقوفه مع السنة المحمدية ومثابرته على متابعة المصطفى يأبى ذلك من البحث معه في مثل هذا الأمر الذي لا يخفى، حتى على الصبيان ومطلق العوام، فلم يبق إلا الجهل بالشريعة أو التعنت والإذاية، إذ السلامة من الخلق أمر مفروغ في قالب المحال، وشأن لا يتيسر بحال.

والشيخ رضي الله عنه لا عيب في ساحته، ولا ما يخدش في سيادته ونفاسته، شريف النسب، كريم الحسب، حليف الفخر والأدب، بسنا محياه تتزين الأقمار، وتستضيء الشمس في رابعة النهار، وتتحلى بنور بهائه المخدرات في القصور والديار، يتصل نسبه الشريف النفيس، بنور المغرب أبي العلاء سيدنا ومولانا ادريس ابن ادريس، رضي الله عنهم أجمعين، وعن آبائهم [253] الكرام، وحشرنا في *زمرتهم، وأدامنا على محبتهم، وأماتنا على ملتهم، وعندي بمراكش عمود هذا النسب الشريف، ذي الفخر السامي والظل الوريف، والنور الساطع المنيف، وإن ارتفع العائق ووصلت محلي فإني نلحقه بهذا الموضع إن شاء الله تعالى تبركا به، وتشبثا بذيله المبارك وسببه ، ومحبة في جانب الشيخ رضي الله عنه.

ثم إني لم نبلغ في حق الشيخ عشر المعشار، مما يليق بجانبه من التجلة والاكبار والفخار، حيث لم نجد ما نستعين به على ذلك لفراقي كتبي وتقاييدي، وإنما ذكرت ما ذكرت من حفظي وفهمي، وبحسب ما وصل إليه علمي، ليلا يخلو كتابي هذا من ذكره، ولأني التزمت في صدر الكتاب أن أعيد ذكره بأكثر مما هنالك، والأقدار عاقت عن التوسع في الأخبار، ومنعت من التوغل في التكثير والانتشار، والله أسأل أن يثيبني على حسن نيتي، وصلاح طويتي، وأن يجعل محبة هذا الشيخ الجليل جنة لي مما أخشاه ولذريتي، وأن يجعل بالسلامة والعافية أوبتي إلى أهلي وبلدتي، وأولادي وأهل ودي واحبتي، في صعود وارتقاء، وسعود تطاول السماء، وتتكفل باليمن والأمان [254]والخير الكثير والهناء، وأن يختم لنا بالخاتمة الحسنى*، ويجعل لنا في الآخرة ما هو أعلى وأبقى وأسنى، بمنه وكرمه آمين.

قلت ونسب شيخنا رضي الله عنه هو هكذا، فهو الشيخ العلامة، والبحر الفهامة، قطب الوجود، ومشرب الوفود، جامع الحقيقة والشريعة، صاحب الدرجة الرفيعة، ذو القدر المنيف، والنسب الشريف شيخنا وقطب دائرة وجودنا الشيخ ماء العينين، بن شيخه الشيخ محمد فاضل، بن مامين، إبن الطالب أخيار، بن الطالب محمد بن الجيه المختار، بن الطالب الحبيب، بن الطالب علي، بن سيدي محمد، ابن سيدي يحيى الصغير، بن سيدي عال، إبن شمس الدين، بن يحيى الكبير القلقمي، بن سيدي محمد، بن سيدي عثمان، بن مولاي بوبكر، بن سيدي يحيى، بن مولاي عبد الرحمان، بن أران، إبن مولاي اتلان، بن جملان، بن ابراهيم، بن مولاي مسعود، بن مولاي عيسى، بن مولاي عثمان، بن مولاي اسماعيل، بن مولاي عبد الوهاب، بن مولاي يوسف، بن مولاي عمر، بن يحيى بن عبد الله، بن مولاي أحمد، بن عبد الله الأكبر، بن ادريس الأزهر، بن ادريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، إبن الحسن المثني، بن الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، بن علي كرم الله وجهه، نفعنا الله ببركاتهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[255] *انتهى ما تيسر جمعه في النصف الأول من هذا الكتاب، الذي أتى بما تستحسنه وترغب فيه أولوا الألباب. مع الاختصار الذي كاد أن يكون لغزا،

ومعانيه الدقيقة رمزا، والعاقل لا تخفاه الأحوال، ولا تلتبس عليه الأقوال، ولست شاكا في بغيض يقدح، وحسود يكلح وينبح، فكل الأواني بما فيها تنضح، وعن معانيها تنادي وتصدح، والكريم يمدح ويسمح، ويغضي ويصفح، على أني لا أبرىء نفسي من الزلل والخطأ، إذ ذاك مقام تزل فيه الأقدام وتقصر الخطا، فقلما يخلص مصنف من الهفوات، أو ينجو مؤلف من العثرات، فمن رأى عيبا فليتكلم بأدب ووقار، وليلتمس العذر لأخيه فإن المومن يلتمس الأعذار، والكافر يترقى للنكبات وللعثار، والمنصف كريم أدبه، وشريف حسبه، فالانصاف من شيم الأشراف، والحسود مجبول على التهاتر والاعتساف، وركوب متن الاباية والاختلاف، فالحسود لا يسود، ولا توفى له في محسوده وعود، أمر جرى به القلم في أم الكتاب، وقضاه الحكم العدل رب الأرباب، وأقول له متمثلا ولله تعالى متبتلا

ألا قل لمن بات لي حاسدا أتـــــدري على من أسأت الأدب
أسأت على اللـــه في حكمـــه لأنك لم ترض لي ما وهب
فأخـــــــزاك ربي بأن زادني وسد علـــيك وجـــوه الطـــلب

وكل الكلام فيه المقبول والمردود، إلا كلام الله وكلام رسوله الحامد المحمود، فمن قال ما شاء، لقي ما ساء، ومن جرى طلقا مع الهوى، تردى في دركات المقت وهوى، وأقول في جوابه عما تمشدق به من كسيف خطابه، ما قاله أبو الطيب المتنبي المسلم الالمعية من كل عجمي وعربي

وإذا أتـــتك مذمتـــي من ناقص فهـــي الشهـــادة لي بأني كامـــل

ولله الكمال، وعليه الاعتماد على كل حال، هو حسبي وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، تنال به في الجنة قصورا وغرفا، ونحظى بحسن الختام في زمرة النبي المصطفى.

وكان الفراغ منه تحريرا في أوائل المحرم الحرام عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف.

ويليه النصف الثاني، وأوله الباب الخامس. (تم).

فهرسة النصف الأول من التنبيه المعرب
عما عليه الآن حال المغرب

مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط



زنقة الرخاء حي يعقوب المنصور الرباط
الهاتف : 02 57 79/14 69 79
المخزن : 10 شارع الفضيلة ـ الهاتف : 38 69 79

الثمن 50،00 درهم

مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط